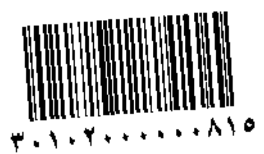




معهد الدراسات الاسلامية
شعبة الدراسات الاجتماعية

التعريب في مصر الاسلامية
وأثره في الحياة الفكرية حتى بداية العصر الفاطمي

بحث

ناهد حسن اسماعيل القصير

مقدم لنيل درجة الماجستير في الدراسات الاسلامية

باشراف الاستاذ الدكتور / علي حسني الخربوطلي

١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م

فهـــــــرس

صفحة

xxxxxxxxxxxx

" بسم الله الرحمن الرحيم "

مقدمـــــة

يدرس هذا البحث التعريب في مصر الاسلامية وأثره في الحياة الفكريـــــة ، حتى بداية العصر الفاطمي ، وقد رأيت ان اتجه ببحثي الى ابراز صفحة مشرقـــــة من صفحات تاريخ مصر الخالدة ، فدرست المسالك التي سلكها التعريب الى القطـــر المصري ، حتى اصبحت مصر اقليما بارزا من اقاليم العالم العربي الاسلامي ، ثـــم ادرس وسائل التعريب والعوامل المؤثرة فيه ، ومظاهره ثم آثاره الفكرية.

كان الاسلام في القرن السابع الميلادي أعظم الحركات الاصلاحية في العالـــم أجمع ، عبر جميع العصور فالاسلام حضارة عامة شاملة تصلح لكل انسان ، ولكـــل بيئة ، ولكل عصر . ولم تنجح اللغة العربية في تحقيق وحدة العرب ولم تخلـــق منهم امة واحدة ، بل تفرعت الى عدة لهجات حتى اصبحت بعض اللهجات وكأنهـــا لغات مستقلة. وتنوعت الحياة السياسية في الجزيرة العربية ، فرأينا الدولة فـــي اليمن والمدينة المستقلة في الحجاز ، والقبيلة في البادية. وتغلبت البداوة علـــى معظم العرب واثرت في فكرهم وعاداتهم وتقاليدهم وفي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية وكان لسان العربي أنشط من عقله ، ولذا اشتغل في الجاهلية بالعلوم الادبيـــة واللغوية ، أكثر من اشتغاله بالعلوم العقلية ونجح الاسلام في خلق امة عربيـــة موحدة ذات حضارة واحدة.

والاسلام هو الدين العالمي وحضارته تتصف بالعالمية والانسانية وقد بـــدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بتحقيق عالمية الدين الاسلامي ، فكانت كتبه الى ملـــوك وأمراء الدول المعاصرة ومنهم المقوقس نائب الامبراطور البيزنطي في حكم مصــــر. وكان من بين الهدايا التي أرفق المقوقس بها رده الى الرسول الكريم ، ماريـــة القبطية التي أنجب منها ابنه ابراهيم . وبشر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتـــح مصر وأوصى بالقبط خيرا .

وتابع الخليفتان الاولان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب سياسة الرســـول الكريم في تحقيق عالمية الدين الاسلامي فكان فتح مصر في عهد الخليفة الثانـــي

عمر ، على يد القائد العربى عمرو بن العاص ، فبدأت مصر تدخل التاريخ الاسلامى من أوسع أبوابه .

شاء الله تعالى ان يختار خاتم رسله وأنبيائه من بين العرب ، كما شاءت حكمته السامية ان ينزل آخر الكتب السماوية باللغة العربية . وجاء ذكر مصر فى القرآن الكريم عدة مرات مما كرمها وشرفها على كثير من الاقطار والبلاد . وكانت مصر هى الارض الخصبة للعقيدتين المسيحية واليهودية ، وعاش على أرضها موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم وجد الاسلام واللغة العربية مجالات فسيحة على ارض مصر وبين أهلها . كما قدر المصريون الحضارة العربية الاسلامية حق قدرها فالشعب المصرى عريق فى الحضارة ويستطيع استيعاب الحضارات العالمية وهضمها وتمثلها .

لم يكن الفتح العربى لمصر غزوا أو توسعا اقليميا بل كان تحقيقا لعالمية الاسلام من جهة وانقاذا لشعب مصر من مظالم البيزنطيين ، وتحريرا للمصريين من الاضطهاد الدينى وتطويرا للحياتين الاجتماعية والاقتصادية . فقد حمل الاسلام معه مبادئه الخالدة من حرية واخاء ومساواة وعدالة . وكان المصريون قد سمعوا بسياسة العدل والتسامح التى اتبعها الفاتحون العرب فى بلاد الشام ، ولذا لقى جيش عمرو بن العاص ترحيبا من المصريين .

ويحلل يدرس الارض التى ألقى فيها الفاتحون العرب بذور الاسلام والعروبة ويتتبع البحث هذا الغرس الطيب فى مراحل نموه المختلفه حتى أزهر وأثمر فتركت مصر وراءها الماضى البيزنطى الرومى الفرعونى بما صحبه من تخلف حضارى ومظالم سياسية لتبدأ تاريخها العربى الاسلامى بما اتصف به من حضارة زاهرة وتقدم عمرانى ونهضة فكرية .

اتبعت المنهج الموضوعى ، مع المحافظة على التسلسل الزمنى ولم تبوب بحثى على أسس زمنية ، بحيث أجمل لكل من عصر الولاة او العصر الطولونى

او العصر الاخشيدى بابا خاصا به بل رأينا تقسيم البحث الى موضوعات لكل موضوع وحدته الفكرية وتكامله العلمى وخصائصه المتميزه مع دراسة جوانب كل موضوع فى هذه العصور الثلاثة .

وقد واجهتنا عدة مشكلات علمية فالموضوع متسع الاطراف ، متشابك الاحداث ، والتعريب يمضى متبعا سنة الحياة والتطور والارتقاء ، بدون توجيه مقصود او قوة دفع مرسومة ، فقد خضع كل من الاسلام واللغة العربية لعنصر الاختيار وأقبل المصريون عليهما فى حرية تامة مع بعض المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فالحياة متشابكة متداخلة فى عناصرها المختلفة المتعددة ، والتعريب له دوافع ومظاهر ونتائج كثيرة متنوعة فكان علينا ان نلم بها كلها بقدر الامكان ، مفصلين الحديث عن أبرزها وأهمها ، مجملين الدراسة للموضوعات الثانوية والفرعية .

وقد رأينا ان نقسم بحثنا الى بابين كبيرين مع تفريعهما الى عدة موضوعات ، اذ لم نشأ تفتيت المادة العلمية ، كما اردنا المحافظة على تكامل التعريب فى دوافعه ومظاهره وآثاره الفكرية وقد بدأ البحث بتمهيد شمل دراسة موجزة عن حالة مصر قبيل الفتح العربى ودرس الباب الاول العوامل المؤثرة فى التعريب وما صاحبه من انتشار الاسلام . وقد تناولنا فى هذا الباب عدة موضوعات متنوعة فدرسنا موقف المصريين من الفتح العربى ، واثر هذه المواقف فى اقبالهم على اعتناق الاسلام وعلى التعريف . ورأينا القبائل العربية الوافدة على مصر ، ثم درسنا اثر قيام مدينة الفسطاط فى اتخاذها مركزا للتعريب وكيف اصبح جامع عمرو بن العاص — اول جوامع مصر والقارة الافريقية — مركز اشعاع الاسلام والعروبة ثم تتبعنا خطوات انتشار الاسلام وأثره بالتالى فى انتشار اللغة العربية ، ثم درسنا اثر اقبال المصريين على تعلم اللغة العربية فى اتساع حركة التعريب ، كما درسنا موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية وأثر كل من سياسة الضرائب وثورات المصريين فى التعريب .

ودرس الباب الثانى من هذا البحث مظاهر التعريب وآثاره فى الحياة الفكرية ودرسنا فى هذا الباب عدة موضوعات ، فرأينا اثر تعريب دواوين

الحكومة فى العصر الاموى فى انتشار اللغة العربية فى مصر ثم اثر التعريب فى قيام المدرسة العلمية الاسلامية وتبعث لك دور الذميين المصريين فى الحياة الفكرية العربية وأبرز دور الصحابة والتابعين والقضاة فى التعريب وفى النهضة الفكرية • كما كان للموالى دورهم المؤثر ايضا فى النهضة العلمية • كما ادى تعريب مصر الى ظهور فكر صوفى كان له أثره فى الحياتين السياسية والاجتماعية فى مصر • ثم درسنا دور التعريب فى نهضة الدراسات اللغوية والنحوية ، ثم شهدنا ديوان الرسائل الذى قام بدور مؤثر فى تدعيم حركة التعريب فى مصر الاسلامية وتتضح تفاصيل هذه الموضوعات فى فهرس الرسالة •

اطلعت على كثير من المصادر الاصلية والمراجع الحديثة العربية والافرنجية دوناها فى حواشى البحث وفى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الرسالة • والحقيقة ان كثرة المادة العلمية وتناقضها وتضاربها احيانا ، كانت من مشاكلنا العلمية • وقد اهتم المؤرخون الاقدمون المسلمون بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة بالنهضة الفكرية العربية فى مصر وأمدونا بكثير من الحقائق والمعلومات • كما ان اساتذة جامعاتنا المصرية قدموا لمكتبتنا العديد من الابحاث القيمة •

وفى ختام هذه المقدمة ، أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان لاستاذى المشرف الاستاذ الدكتور على حسنى الخربوطلى على كريم رعايته وحسن عنايته فقد اعطانى الكثير من علمه وجهده ووقته • جزاه الله تعالى عن الدراسات الاسلامية خير الجزاء •

كما اتقدم بعظيم الشكر وبالغ الامتنان للمؤرخ الاجل الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور ، أستاذ الاساتيذ ، والمؤرخ الجليل الاستاذ الدكتور أحمد الشرباصى على تفضلهما بقبول مناقشة رسالتى ، حفظهما الله تعالى ومتعهما بالصحة والعافية وجعلهما ذخرا لكل الدارسين والباحثين •

وبعد ، فهذه هي صورة مشرقة من صور تاريخ مصر ، العربية الاسلامية ، أقدمها لكل مسلم ، وعربي ، ومصري ، لتكون الحافز والقدوة والأسوة ، لنمضي على طريق الاجداد ، نحو المزيد من الأمجاد ، والله عز وجل ولي التوفيق .

تمهيد

أحوال مصر قبيل الفتح العربي الاسلامي

كانت لاحوال مصر السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، قبيل الفتح العربي الاسلامي اثرها الواضح في موقف المصريين من هذا الفتح ، ثم من استقرار العرب الفاتحين ، ثم من اقبالهم على اعتناق الاسلام والتعرب لغويا وعنصريا .

تحولت مصر الى ولاية رومانية ثم بيزنطية ، منذ انتصار اغسطس قيصر على كليوباتره في موقعه (أكتيوم) سنة ٣١ ق.م . واستيلائه على مصر ، والقضاء نهائيا على دولة البطالمة فيها .(١) ولم يختلف الوضع في مصر في العهد البيزنطي (٢٨٤ـ ٦٤٠م) عما كان عليه في العهد الروماني (٣١ ق.م ـ ٢٨٤م) فقد عانت مصر في العهدين ـ على السواء ـ من الاضطهاد الديني ، والمظالم الاجتماعية والاقتصادية . فضلا عن اهمال الرومان والبيزنطيين لمرافق البلاد .

انقسم سكان مصر الى فئات ثلاث هي : المصريون ، والبيزنطيون ، واليهود ، الى جانب اقليات أخرى أجنبية .

أما المصريون ، فقد عاشوا حياة ضنك ومشقة ، نتيجة كثرة الضرائب المفروضة عليهم ، حتى ان كثيرا من الفلاحين هجروا أراضيهم وقراهم بعد عجزهم عن سداد الضرائب .(٢)

وكان الفلاحون ينقسمون الى طبقتين كبيرتين ، الاولى منها هي طبقة مزارعي الضياع الكبيرة ، وهم أرقاء ملتصقون بالارض وملزمون بخدمة أصحاب هذه الضياع .

---

(١) الخربوطلي : مصر العربية الاسلامية ص٧

(٢) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule, Vol.5, P. 118 - 119.

والطبقة الثانية تضم المزارعين الاحرار ، وهم اما ملاك لقطع صغيرة من الارض ، أو مستأجرون لدى ملاك متوسطين . وكان هؤلاء ايضا يرتبطون بالارض ، ويحظور عليهم مغادرتها ، رغم تمتعهم رسميا وظاهريا بالحرية. (١) وعلى أكتاف هؤلاء الفلاحين التعساء أثرى كبار الملاك وكونوا طبقة من النبلاء الاقطاعيين بدأت تظهر في القرن الرابع الميلادى وبلغت اقصى قوتها في القرن السادس للميلاد . وغدت هذه الطبقة — بحكم مصالحها — مرتبطة بالحكومة البيزنطية منفذة لرغباتها ، وحامية لمصالحها في مصر. (٢) ومن هذه الطبقة النبيلة ظهرت بعض الاسر الكبيرة . وقد حرصت هذه الاسر على اخضاع من جاورها من الفلاحين الاحرار للسيطرة البيزنطية ، حتى اصبحوا بمثابة اقنان للارض . واتصف هؤلاء الفلاحون البؤساء بالجهل والقصور الفكرى وان اشتهروا بعمق تدينهم وبتقواهم وبخضوعهم التام لكنيسة الاسكندرية .

عانى المصريون من فداحة الضرائب وكان الامبراطور يحدد سنويا مقدار هذه الضرائب في رسالة يبعثها الى نائبه في حكم مصر ، ويقوم الحاكم بتحديد الضرائب على الاقاليم والقرى. (٣) ومن أهم الضرائب ضريبة القمح ، حيث تقدم كل قرية سنويا قدرا محددا من القمح ويرسل الحاكم القمح الى العاصمة البيزنطية. (٤) ثم كانت هناك ضريبة الرؤوس تفرض على المصريين الذين تتراوح اعمارهم بين أربع عشرة سنة وستين سنة. (٥) كما فرض البيزنطيون تقديم الهدايا للامبراطور ، وضرائب مختلفة على التجارة والدخل والمبيعات والتركات والعقود والحيوانات . وعانى المصريون من مظالم جباة الضرائب ولجأوا الى حماية كبار الموظفين المدنيين والعسكريين فكان المالك الصغير عندما يعاني من الضرائب يلجأ الى أحد جيرانه الاقوياء لحمايته على ان يتنازل له عن ارضه ويزرعها له كمستأجر. (٦)

---

(١) بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربي (ترجمة عبد اللطيف احمد على ومحمد عواد حسين) ص ٢٤٣

(٢) Diehl: L'Egypte Chretienne et Byzantine, P.403.

(٣) Milne : Op. Cit. P. 118 - 119.

(٤) Hardy: The Large Estates of Byzantine Egypt, P.7.

(٥) Milne : Op. Cit. P.121.

(٦) بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربي ص ٢٣٥ — ٢٣٦

وعانى المصريون ايضا من الاضطهاد الديني نتيجة الخلاف المذهبي ، وكانت المسيحية قد انتشرت في مصر قبل انتشارها في الامبراطورية الرومانية التي احتفظت بوثنيتها ولقى المصريون المسيحيون كثيرا من مظاهر الاضطهاد وخاصة في عصر الامبراطور دقلديانوس (١) ، وبدأ فرار المصريين الى الصحراء وبناء الاديرة (٢) حتى تولى الامبراطور ثيودوسيوس فجعل المسيحية دين الدولة الرسمي • وقام خلاف بين اثنين من كبار رجال الدين المسيحي في الاسكندرية هما (أثناسيوس) و(اريوس) حول طبيعة المسيح وتدخل الامبراطور (قسطنطين) في الخلاف وعقد اجتماع في (نيقيه) لانهاء الخلاف • وأدان مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ م (آريوس) وسجنه ونفى اتباعه ، وتحددت العقيدة الارثوذكسية باعتبار المسيح من نفس مادة الاب ، أى ان صفة الالوهية مستمدة من الاب • (٣)

تولى اثناسيوس بطريكية الاسكندرية وتعصب لمذهب نيقية• ولكن الامبراطور البيزنطي أدرك ان قرارات مجمع نيقية تتعارض مع آراء معظم رجال الكنيسة والرهبنة فبدأ ينحاز الى الاريوسية وانقلب على انصار مذهب نيقيه ، وأمر البطريك اثناسيوس بان يعيد آريوس الى الكنيسة فرفض فقرر الامبراطور نفيه ، مما أدى الى اضطراب الاسكندرية وهرب اثناسيوس الى الصحراء• (٤) وبدأ تدخل الدولة في شئون الكنيسة وأصبح للاساقفه حقوق مدنية ومنها فرض الضرائب كمونة للكنيسة• (٥)

ومنذ ذلك الحين سيطر بطاركة الاسكندرية على الاحوال الداخلية في مصر وحرصوا على استغلال كنيستهم واحتضان شعبهم كما قام صراع بين الاساقفة واتباعهم واستمرت هذه الصورة من سنة ٣٨٥ الى ٤٥١ م• (٦)

---

(١) يسمى عصر هذا الامبراطور (عصر الشهداء) نتيجة قتل كثير من المصريين وهدم الكنائس (ساويرس بن المقفع : سير البطاركة الاسكندرانيين جـ١ ص٤٧ــ٤٨)

(٢) بل : نفس المرجع ص٢١٧ ومابعدها ، العريني : مصر البيزنطية ص٢٤٩

(٣) Milne : Op. Cit. P. 89.

(٤) العريني : مصر البيزنطية ص٥٣

(٥) Milne : Op. Cit., P. 89.

(٦) العريني : مصر البيزنطية ص٥٣

وفى سنة ٤٥١م [١] عقد مجمع خلقيدونية لاقرار صيغة جديدة للعقيدة المسيحية ، وقرر الاساقفة المجتمعون ان للمسيح طبيعتين ، كما أصدر قرارات بابطال مذهب العقيدة الواحدة، وتم خلع (ديسقورس) بطريك الاسكندرية مما أدى الى غضب المصريين. [٢] ورفض المصريون قبول (بروتريوس) بطريكا ، فأرسل البيزنطيون كتيبة عسكرية لارغام المصريين على قبوله. [٣] ورفض المصريون قرارات مجمع خلقدونية وبدأت روح انفصالية استقلالية عن الدولة البيزنطية .

وبعد سنة ٤٥١م انفصل الاقباط عن الكنيسة البيزنطية تحت شعار الاعتقاد بالطبيعة الواحدة كما اطلق المصريون على أعدائهم فى المذهب اسم (الملكانيين) باعتبار المذهب الملكى الامبراطورى. [٤] وزاد انتشار اللغة القبطية والادب القبطى فى اعماق مصر بدلا من اللغة اليونانية والثقافة اليونانية. [٥] وبدأ صراع بين المصريين اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة والبيزنطيين اصحاب مذهب الطبيعتين. واستمر الصراع حتى الفتح العربى لمصر.

اليهود : تركز اليهود منذ العصر البطلمى فى مدينة الاسكندرية ،وكانت لهم جاليات اخرى فى بعض مدن مصر السفلى ، وكذلك فى الفيوم. وفى البهنسا ، وأقام اليهود فى أحياء خاصة بهم وتحول بعض اليهود الى المسيحية مع احتفاظهم بأسمائهم القديمة. [٦] واشتغل معظم اليهود بالتجارة سواء فى داخل مصر او مع دول حوض البحر المتوسط وجنوا ثروات ضخمة. [٧] كما اشتغل بعض اليهود بالزراعة والاعمال اليدوية فى مدن مصر. [٨] وأبدى اليهود عداء

(١) فى عهد الامبراطور مارقيان ٤٥٠–٤٥٧م
(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد) ص٤٠١–١٠٥
(٣) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها جـ٢ ص٥٨–٥٩
(٤) Hardy: The large Estates of Byzantine Egypt, P.21.
(٥) العرينى: مصر البيزنطية ص٧٥
(٦) The Jewish Encyclopedia, Vol.5, P. 60.
(٧) Milne : Op. Cit., P. 98 - 99.
(٨) Goitein : Jews and Arabs, Their Contacts through the Ages. P. 7.

للمسيحية والمسيحيين ، مما عرضهم دائما للعقاب والعذاب ، حتى ان البطريك كيرلس امر سنة ٤١٥ م بطرد هم من الاسكندرية واغلاق معابد هم واستباحهم بيوتهم ، وتعرض اليهود لمذبحة كبيرة• (١)

وكان عداء المصريين لليهود مظهرا من مظاهر عدائهم للروم• اذ كان الهجوم على اليهود أسلم عاقبة لهم من الهجوم على الروم• (٢) غير ان الكراهية العنيفة المتأصلة فى نفوس اليهود ضد النصارى وجدت الفرصة للانتقام اثناء الغزو الفارسى للشام ومصر (٦١٥ـ٦١٨ م) فانتهزها اليهود وفتكوا بالنصارى ودمروا كنائسهم وأحرقوها • فلما انتصر هرقل على الفرس وطهر الشام ومصر من الفرس (٦٢٧م) طلب منه نصارى الشام ومصر ان يمكنهم من الانتقام من اليهود وذلك على الرغم من العهد الذى منحه اياهم بحمايتهم• ولما اشتد ضغط النصارى عليه اجابهم الى طلبهم• وأمر باجلاء اليهود عن بيت المقدس وعدم عودتهم اليه أبدا • (٣) وانتهز النصارى الفرصة وهاجموا اليهود فى كل من مصر والشام ووقعت مذبحة عامة لليهود سنة ٦٣٠ م قتل فيها كثير منهم • ولم يفلت من القتل والتعذيب الا الذين هربوا أواختفوا فى الصحارى والكهوف • (٤)

ولكن اليهود استعادوا قوتهم ومركزهم حتى بلغ عددهم بعد ذلك بعشر سنوات اى قبيل الفتح العربى لمصر ، أربعون الفا فى الاسكندرية وحدها كما ساهموا باموالهم بقسط كبير فى الجزية التى دفعتها مصر لبيت مال المسلمين• (٥)

البيزنطيون : كونت الجالية البيزنطية طبقة ارستقراطية فى مصر ، اذ كانت هى الطبقة الحاكمة• فقد تركزت فى ايدى البيزنطيين معظم الوظائف الكبرى ، فكانوا هم حكام الاقاليم وقواد الفرق العسكرية ومنهم من كان ينتخب اعضاء (سناتو الاسكندرية) ومن الطبيعى ان تتركز معظم ثروة البلاد فى أيديهم نظرا لسيطرتهم

---

(١) العريفى : مصر البيزنطية ص ٢٥١
(٢) بتلر : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى ص ١٧٦
(٣) تبلر : فتح العرب لمصر ص ١١٩
(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها جـ٢ ص ١١٩
(٥) المرجع السابق جـ٢ ص ١٤٢

على الاقتصاد المصرى واشتغالهم بالتجارة الخارجية مما زاد من نفوذهم وسلطانهم (١) وكان ذلك على حساب التجار المصريين الذين قل اشتغالهم بالتجارة الخارجية الى حد ما ، بعد ان كانت السفن المصرية تشق عباب البحر المتوسط وتمارس تجارة واسعة . (٢)

عاش البيزنطيون فى مصر حياة كلها بذخ وترف ، واتخذوا قصورا فخمة وحمامات رائعة مازالت اطلالها قائمة فى الاسكندرية كما سكن البيزنطيون كثيرا من مدن مصر وخاصة الفيوم . (٣) وحرصت الحكومة البيزنطية على حرمان المصريين من الالتحاق بالحاميات البيزنطية فى القرنين السابقين للفتح العربى حينما اشتد الصراع بين المصريين والبيزنطيين مما ادى الى حرمان المصريين من الخبرات العسكرية ومعرفة فنون القتال . (٤)

وامتلكت البطريركية البيزنطية الملكانية فى الاسكندرية اراضى واسعة ، كانت تصدر كميات ضخمة من القمح كما مارست نشاطا تجاريا واسعا وصدرت المصنوعات المصرية الى الدولة البيزنطية نتيجة امتلاكها اسطولا تجاريا كبيرا كما امتلك البطاركة ثروات ضخمة بينما اعتمدت الكنيسة المصرية على التبرعات والاحسان . (٥)

---

(١) العرينى : مصر البيزنطية ص ٢٥١
(٢) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها جـ٢ ص ٩٦
(٣) عثر على برديات يونانية ترجع الى العهد البيزنطى تحمل اسماء يونانية فى الفيوم
Diehl : Op. Cit. P. 499.
(٤) بتشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها جـ٢ ص ٩٦
(٥) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٤٤ · Hardy : Christian Egypt, P.156

الباب الاول

العوامل المؤثرة فى التعريب فى مصر الاسلامية

١ ـ موقف المصريين من الفتح العربى وأثره فى اقبالهم على الاسلام والتعريب.

٢ ـ القبائل العربية الوافدة على مصر.

٣ ـ اثر بناء الفسطاط فى اتخاذها مركزا للتعريب.

٤ ـ انتشار الاسلام فى مصر وأثره فى التعريب.

٥ ـ موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية.

٦ ـ اثر سياسة الضرائب فى انتشار الاسلام والتعريب.

٧ ـ ثورات المصريين وأثرها فى التعريب.

١ ـ موقف المصريين من الفتح العربي واثره في اقبالهم على الاسلام والتعريب

كتاب الرسول الى المقوقس :

الاسلام هو الدين العالمي ومحمد عليه الصلاة والسلام هو رسول الله الى العالمين . وقد عرف الرسول الكريم عالمية العقيدة الغراء التي يدعو اليها ، ولذا ما كاد يوقع صلح الحديبية في العام السادس بعد الهجرة ، الذي ينص على هدنة مع قريش تستمر عشر سنوات حتى بدأ النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق عالمية الاسلام فكانت كتبه الى ملوك وامراء الدول ومنهم المقوقس حاكم مصر . (١)

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام حاطب بن ابي بلتعه اللخمي الى المقوقس نائب الامبراطور البيزنطي في حكم مصر وكان يقيم في الاسكندرية ، فسلمه حاطب كتاب النبي وقد جاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . فأما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، واسلم يؤتيك الله اجرك مرتين ، يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون " . (٢)

أحسن المقوقس استقبال حاطبا واكرمه ويشير المؤرخ ابن عبد الحكم (٣) الى الحوار بينهما حول الرسول عليه الصلاة والسلام وصفاته ، ونستنتج من هذا الحوار ان المقوقس كان يعلم مسبقا بظهور نبي جديد ولكنه كان ينتظر ظهور دعوته في بلاد الشام لا في الجزيرة العربية . واعلن المقوقس لحاطب ترحيبه باعتناق الاسلام الا انه يخشى معارضة القبط له ، ثم طلب المقوقس من حاطب الا يتحدث الى المصريين بما كان بينهما من حوار وخاصة عن ميله الى اعتناق الاسلام .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٣ ص ٢٥٩ ومابعدها .
ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٤١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٤١ـ٤٢

(٣) المصدر السابق .

ويمكننا ان نستنتج من الروايات التاريخية ان المقوقس كان حريصا دائما على مصالحه السياسية ، فهو يخشى على نفوذه ومركزه وهو يرضح لمعارضة قومه للدين الجديد ، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام حين تسلم كتاب المقوقس " ضن الخبيث بملكه ، ولا بقاء لملكه ". (١)

بعث المقوقس كتابا الى الرسول عليه الصلاة والسلام جاء فيه : " لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام ، اما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه ، وقد علمت ان نبيا قد بقى وقد كنت اظن انه يخرج بالشام ، وقد اكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام ". (٢)

بشر الرسول عليه الصلاة والسلام بفتح مصر واوصاهم بقبط مصر خيرا ، وهناك احاديث نبوية شريفة ذكرها كتاب الحديث والمؤرخون ومنها ان الرسول الكريم قد قال : " انكم ستفتحون ارضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما ". وقال عليه الصلاة والسلام ايضا " انكم ستكونون اجنادا وان خير اجنادكم اهل المغرب منكم فاتقوا الله فى القبط لاتأكلوهم اكل الخضر ". (٣)

الفتح العربى لمصر :

بعث الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على رأس الجيش العربى الاسلامى لفتح مصر ، بعد ان انتهى من فتوحات الشام ، وبلغ المقوقس خبر قدوم عمرو بن العاص ، فأسرع الى حصن بابليون وبدأ اعداد القوات العسكرية لمواجهة جيش عمرو ، وكان حاكم حصن بابليون من الروم ويسمى (الاعيرج) (٤)

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٣ ص ٢٦٠ـ٢٦١

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٤٣

(٣) المصدر السابق ص٢ـ٣

(٤) المصدر السابق ص٥٣ ـ الكندى : الولاة والقضاة ص٨

واراد المقوقس الا تبلغ المصريين اخبار انتصارات العرب فى الشام وتخاذل الروم امام الفاتحين فبعث رسلا الى الحدود المصرية لمنع دخول القادمين من بلاد الشام حتى لاينقلوا اخبار الانتصارات العربية فيضعفوا الروح المعنوية . (١)

بدأ القتال بين العرب الفاتحين والروم عند (الفرما) لمدة شهر وانتصر المسلمون. (٢) وتشير بعض الروايات التاريخية الى مساعدة قبط الفرما لعمرو بن العاص. وتذكر انه كان بالاسكندرية أسقف للقبط يسمى (ابو ميامين) لما بلغه اخبار قدوم عمرو بن العاص على رأس الجيش الاسلامى كتب الى القبط يبشرهم بقرب زوال الحكم البيزنطى فى مصر ،وطلب من القبط مساعدة العرب . (٣) والواقع ان (ابو ميامين) هذا هو الاب (بنيامين) بطرك القبط اليعاقبة فى مصر الذى بادر بالخروج من الاسكندرية عند قدوم المقوقس اليها حاكما لمصر وبطركا للملكانيين فيها . وقد لجأ هذا البطريك الى بعض اديرة الصعيد .

ونستخلص من كتابات المؤرخين عن أولى مواقع الفتح العربى ان المقوقس لم يبادر بارسال نجدة لاهل الفرما عندما علم بحصار العرب لهم. ويصور (بتلر) (٤) موقف المقوقس بانه أول خيانة ارتكبها فى حق دولته ويذهب الى انه كان يرمى الى فصل الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب المسلمين ومساعدتهم ضد الدولة البيزنطية. كما ان المقوقس — فيما بعد — لم يهتم ايضا بارسال نجده الى ابنته ارمانوسه فى بلبيس حتى نجح العرب فى فتح هذه المدينة.

---

(١) الواقدى : فتوح الشام جـ٢ ص ٦٤

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٤ — ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص٢٥

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٢ هـ ٥٣

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص١٨٨ — ١٨٩

تقدم عمرو بن العاص فى الاراضى المصرية دون اى مقاومة تذكر حتى وصل الى بلبيس حيث دار القتال لمدة شهر تقريبا حتى فتحها المسلمون. (١) وينفرد الواقدى (٢) بالاشارة الى تقدم (يوقنا) صاحب حلب على رأس بعض الجند حتى وصل الى بلبيس حيث ارمانوسه ابنة المقوقس كما ارسلت ارمانوسة الى ابيها تخبره بتقدم الجيش العربى ، وتطلب منه الاستعداد لمواجهة العرب، وجمع المقوقس كبار رجال الدولة وسألهم المشورة. فاقترحوا عليه ارسال جيش الى ارمانوسة لمساعدتها ضد العرب الى جانب الاستنجاد بجيرانه لمناصرته وجمع الجيوش من جميع مدن مصر استعدادا لمواجهة الجيش العربى ولكن المقوقس رفض مشورتهم • واعلمهم بانه مهما استعد فلن يقوى على مناهضة العرب وانه من الحكمة ان يرسل الى ابنته كتابا يطلب فيه منها التلطف فى معاملة (يوقنا) ومن معه من الجند العرب ومنحهم الامان وارسالهم اليه لتطييب خاطرهم.

فلما علمت بذلك ارمانوسة ارسلت الى يوقنا تخبره بما كتب ابوها اليها • ودار قتال بين الجيش العربى وجند ارمانوسة انتهى بانتصار العرب واسرهم لارمانوسة. واحسن عمرو بن العاص معاملتها وارسالها معززة مكرمة الى ابيها المقوقس فى صحبة قيس بن سعد الذى قال للمقوقس فى حديث طويل له معه : " ايها الملك لابد لنا منكم • ولا ينجيكم منا الا الاسلام او الجزية أو القتال " فوعده المقوقس بعرض الامر على قومه • رغم وثوقه بعدم استجابتهم لامر من هذه الامور الثلاثة لانهم قوم عناد ولان " قلوبهم قاسية من اكل الحرام ". (٣)

ثم مضى عمرو بن العاص على رأس جنده دون مقاومة تذكر حتى وصل الى قرية (أم دنين) (٤) حيث اشتد القتال وواجه عمرو مقاومة عنيفة جعلته يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب الذى سارع بنجدته. (٥) وتدل هذه المقاومة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ ــ الكندى الولاة والقضاء ص ٨
(٢) الواقدى : فتوح الشام جـ٢ ص ٢٦
(٣) الواقدى : فتوح الشام جـ٢ ص ٦٧ ــ ٧٠
(٤) ام دنين قرية بمصر بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل القاهرة (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٢٥١) وهى الان مكان حديقة الازبكية
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٤ ــ الكندى : الولاة والقضاء ص ٨

على ان البيزنطيين قد ادركوا الان خطورة الموقف فأعدوا العدة لمواجهة الفاتحين العرب. وبعد قتال عنيف انتصر عمرو على البيزنطيين ومن لحق بهم من القبط وهلك كثير منهم ولجأ كثير منهم بحصن بابليون وبمدينة نقيوس. (١)

وتذكر بعض الروايات التاريخية القبطية (٢) ان فتح الفيوم كان بعد حصار ام دنين وقبل فتح حصن بابليون كما تشير الى ان عمرو بن العاص قد قام بمحاولة لفتح اقليم الفيوم قبل اتمام فتح ام دنين ولكنه لم يحالفه التوفيق حتى وصله المدد من الخليفة فتمكن من الاستيلاء على ام دنين ثم وجه جهوده لاتمام الاستيلاء على اقليم الفيوم.

ولكن المؤرخين المسلمين يجمعون على ان فتح الفيوم كان بعد فتح حصن بابليون وليس قبله كما يذهب المؤرخ القبطى حنا النقيوسى كما ان الروايات الاسلامية تذكر ان الذى قام بفتح اقليم الفيوم هو احد قواد عمرو. (٣)

ويبدو ان اهل مصر من القبط بصفة خاصة بدأوا يقدمون المساعدات الايجابية للعرب الفاتحين بعد استيلائهم على اقليم الفيوم. فقد طلب عمرو من (ابا كيرى) (٤) حاكم دلاحى (٥) ان يبعث الى القوات العربية فى الفيوم بعض السفن لينتقلوا بها من الجانب الغربى للنيل الى الجانب الشرقى للسيطرة على ضفتى النيل. (٦) كما طلب عمرو ايضا من (جورج) حاكم اقليم مصر ان يبنى جسرا على قناة مدينة قليوب حتى يتمكن من فتح المدن المصرية. ونجح عمرو فى فتح مدينتى اتريب ومنوف بمساعدة القبط له. (٧)

---

(١) تقع نقيوس على الطريق بين الفسطاط والاسكندرية (ياقوت : معجم البلدان جـ٩ ص٣٠٢)

(٢) Chronique de Jean, P. 437.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٢٢٧ـ٢٢٨ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٨

(٤) Abaciri

(٥) على الضفة الغربية للنيل جنوب منفيس شرق الفيوم.

(٦) Chronique de Jean, P. 439.

(٧) Ibid., P. 439 - 440

وعاون القبط ايضا العرب الفاتحين فى اقامة جسر ضخم عند بابليون لمنـــع السفن من الذهاب الى نقيوس والاسكندرية ومصر العليا من جهة ولتيسير عبور الفرسان العرب للنيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من جهة اخرى واصبح القبـــط — فى الحقيقة — اعوانا للعرب الفاتحين يقدمون لهم الوانا من المساعدات.

كان الحكام الرومان قد غادروا مدينة (نقيوس) الى حصن بابليون حتى اذا علموا بانتصارات العرب المسلمين فى اقليم مصر ومساعدة بعض المصريين لهم بادروا الى الخروج الى الاسكندرية وتركوا فى نقيوس حامية صغيرة للدفاع عنها كما بعثوا الـــى حاكم سمنود [١] يحثونه على الدفاع عن الاراضى الواقعة بين فرعى النيل وتخلـــى بعض القبط عن عقيدتهم واعتنقوا الاسلام واستولوا على املاك المسيحيين الذيـــن هربوا من وجه المسلمين مؤثرين التمسك بدينهم. [٢]

لن نخوض فى التفاصيل العسكرية واخبار سقوط حصن بابليون فى ايـــدى العرب الفاتحين وخاصة ان الروايات تعددت وتختلف وتتناقض ويهمنا فى بحثنـــا — فحسب — الاشارة الى موقف المصريين من الفاتحين العرب.

شدد عمرو وجنده الحصار على حصن بابليون حتى طلب الروم والقبـــط المتحصنون بالحصن التفاوض من أجل الصلح ومنح الامان للمصريين ، فأجابهـــم عمرو الى طلبهم على ان يؤدى كل واحد منهم للمسلمين " دينارا واجبة وبرنسا وعمامة وخفين ". [٣]

استضاف الروم والقبط — عقب هذا الصلح — جند عمرو بن العاص ، فقدموا عليهم وقد ارتدوا البرود [٤] وجلس العرب الى جانب الروم. [٥]

---

(١) بين سمنود والمحلة ميلان (ياقوت : معجم البلدان جا١ ص٢٥٤)

(٢) Chronique de Jean. P. 440

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٥٥

(٤) البرود : جمع البرد وهى كساء مخطط يلتحف به (الوسيط جا ص٤٧)

(٥) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٥٥

فقرة موجودة كذلك

رفض الروم والقبط اعتناق الاسلام أو دفع الجزية وأصروا على القتال وحاول المقوقس جاهدا اقناعهم بقبول دفع الجزية للمسلمين الا انهم أصروا على موقفهم وأمروا بقطع الجسر بين الحصن وجزيرة الروضة واشتد القتال بين الفريقين• وتحقق النصر للمسلمين وعند ذلك لم يجد الروم والقبط بدا من قبول دفع الجزية وعقد الصلح مع المسلمين• (١)

وكتب المقوقس الى عمرو بن العاص بأنه مازال حريصا على اجابته الى واحد من الامور الثلاثة التى عرضها عليه وان قومه اقتنعوا برأيه واستجابوا لرغبته ومن ثم عادت المفاوضات بين الطرفين وتم عقد الصلح بين عمرو والمقوقس بالشروط الاتية :

١- يفرض على جميع من بمصر اعلاها واسفلها من القبط دينارا ن يتساوى فى ذلك الرفيع والوضيع• ومن بلغ الحلم منهم دون النساء والاطفال والشيوخ •

٢- ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة أيام•

٣- للقبط ارضهم واموالهم ولايتعرض لهم فى شىء منها • (٢)

واشترط المقوقس على عمرو ان يترك للروم حرية الموافقة على هذه الشروط ومن رفضها منهم فله الحرية فى الخروج من مصر الى الدولة البيزنطية• وارسل المقوقس شروط هذا الصلح الى الامبراطور هرقل•

ويجد ربنا الاشارة الى كتاب الامان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين فهو يرسم الابعاد التى حددها العرب المسلمون لمعاملة اهالى مصر وقد جاء فى هذا الامان:

" بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما أعطى عمرو بن العاص ~~من~~ المصريين الامان على انفسهم وملتهم واموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ولا يدخل عليهم عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ولاتساكنهم النوبة وعلى اهل مصر ان يعطوا

أنظر الصفحة التالية ؟

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٢-٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٣-٦٤

الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف ألف وعليهم ما جنى لصوتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ومن ابى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا ، عليهم ما عليهم اثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على الا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة " (١)

ونستنتج من هذا النص التاريخى ان الصلح الذى عقده عمرو بن العاص مع المقوقس عقب الاستيلاء على حصن بابليون كان :

١ـ ينطبق على جميع اهالى مصر فى الوجهين البحرى والقبلى فقد كان مقدار الجزية يمثل مبلغا كبيرا من المال ،
٢ـ يمنح الصلح القبط الامان على ارواحهم وعقائدهم واموالهم وكنائسهم
٣ـ يفرض العرب المسلمون الجزية على المصريين ويزاد قدرها او ينقص تبعا لاحوال الفيضان فى كل سنة وكانت تدفع على ثلاثة اقساط سنويا ، واصبح المصريون بذلك (أهل الذمة) ،
٤ـ يطبق العرب شروط هذا الصلح على الروم والنوبة اذا شاءوا ذلك ، اما اذا رفضوا الشروط فلهم حرية مغادرة مصر الى حيث يريدون ، ويقصد بالنوبة هنا النوبيون المقيمون فى الاراضى المصرية وليسوا سكان بلاد النوبة ،

---

(١) الطبرى جـ٣ ص ١١٩ ـ ٢٢٠ ،
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٤ـ٢٥
القلقشندى : صبح الاعشى جـ١٣ ص ٣٢٤

فى القاموس : اللَّصْت وجمعه لُصوت : اللص

وبعد عقد الصلح (٢٠ هـ — ٦٤١ م) أمر عمرو بن العاص الجند الروم بمغادرة الحصن على ان يحملوا معهم بعض اموالهم واعطى لهم مهلة ثلاثة ايام يغادرون فيها الاراضي المصرية • ورفض عمرو تسليم السبايا حتى يستشير الخليفة عمر بن الخطاب • وقد أمر الخليفة برد السبايا • (١)

غضب الامبراطور البيزنطي هرقل عندما بلغه عقد الصلح مع العرب الفاتحين وكتب الى المقوقس يوبخه على ذلك • ويقول له ان الجند العرب أقلية بالنسبة لعدد القبط وانه اذا كان قبط مصر قد رحبوا بالعرب • وقبلوا اداء الجزية فان عدد الروم بمصر يزيد على مائة ألف ومعهم السلاح والعتاد • وطلب هرقل من المقوقس ان ينهض مع الروم لقتال العرب• وكتب هرقل ايضا رسالة مشابهة الى الروم بمصر• (٢)

اما المقوقس فقد كان مقتنعا بالموقف الذى اتخذه من عمرو بن العاص والمسلمين • كما تمسك بعقد الصلح وحاول اقناع الروم بقبوله• فقال لهم : " واعلموا معشر الروم والله انى لا اخرج مما دخلت فيه ولا مما صالحت العرب عليه• وانى لاعلم انكم سترجعون غدا الى قولى ورأيى وتتمنون ان لو كنتم اطعتمونى • وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره• ولم يعرفه ويحكم • اما يرضى احدكم ان يكون آمنا فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة "• (٣)

أخبر المقوقس عمرو بن العاص برفض الامبراطور هرقل للصلح • وانه كتب اليه والى جماعة الروم بمصر بنقض الصلح ومواصلة القتال • واكد المقوقس لعمرو انه هو والقبط متمسكون بالصلح وبتنفيذ شروطه ثم طلب من عمرو الموافقة على امور ثلاثة : اولها : احترام عهوده للقبط واعتباره واحدا منهم• وثانيها : الا يقدم عمرو على مصالحة الروم حتى يصبحوا أرقاء وفيئا للمسلمين • وثالثها : ان يأمر

---

(١) الطبرى جـ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ — ابن الاثير : الكامل جـ٢ ص٣٩٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٦٤ — ٦٥

(٣) المصدر السابق ص٦٥

عمرو عند وفاة المقوقس بدفن جثمانه فى كنيسة بالاسكندرية. (١)

ووافق عمرو على ما طلبه المقوقس فى مقابل مساعدة القبط له ضد الروم خلال زحفه الى الاسكندرية. فيضمنوا له سلامة الجسور على النيل ويقدموا المأوى والضيافة للجند المسلمين. وقدم القبط كل المساعدات الممكنة للجيش العربى. (٢)

مدى معاونة المصريين للفتح العربى :

ساعد بعض القبط عمرو بن العاص اثناء حصاره لحصن بابليون فقد تقدم اليه فريقان على التوالى ـ احدهما بقيادة (ميناس) والاخر بقيادة (كزمتاس بن صمويل) وقد قدما من الشاطئ الغربى للنيل وهم جميعا من اهالى اقليم الفيوم ويبغضون الروم. ويتصفون بالجسارة والاقدام. (٣) وكانت المعاونات التى يقدمها القبط للجيش العربى تدعم جهود الفاتحين ، وتضعف من مقاومة الروم وتخرج موقفهم وتقلل من هيبتهم.

واتخذت المساعدات التى قدمها القبط المصريون للجيش العربى صورا عديدة نذكر بعضها . ففى اثناء حصار حصن بابليون جمع القائد البيزنطى (تيودور) جيشه بين فرعى النيل فلما علم عمرو بذلك أسرع بالزحف بكتيبة من الجند محاذيا الفرع الشرقى للنيل. وفى نفس الوقت بعث تيودور قائدين من قواده . (٤) الى سمنود لمناهضة العرب وطلب من الجند القبطيين بها مساعدتهما ضد العرب الا انهم أبوا قتال العرب . (٥) وكان معظم هؤلاء الجند من القبط الذين كرهوا الحكم البيزنطى ورأوا فى الفتح العربى تحريرا لهم.

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٧
ابن البطريق : التاريخ المجموع ص٢٤
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٦٥
(٣) Chronique de Jean. P. 443.
(٤) هما ياكبوى وساتقارى
(٥) Chronique de Jean. P. 440.

ويرى بعض المؤرخين ان استيلاء المسلمين على الحصن كان خير انتقام للقبط من الروم الذين لم يراعوا حرمة عيد الفصح فأخرجوا فى هذا اليوم القبط الارثوذكس الذين كانوا فى سجن الحصن لرفضهم اتباع مذهب الامبراطور الدينى . وأساءوا معاملتهم فانهالوا عليهم ضربا بالسياط وقطعوا أيديهم . (١) وفى الحقيقة كان هذا الاضطهاد هو حلقة فى سلسلة طويلة عانى القبط المصريون منها طويلا عبر العصر البيزنطى . ولاشك ان هذه الاضطهادات المتكررة كانت من العوامل التى دفعت بهؤلاء الاقباط الى كراهية الحكم البيزنطى وتقديم المعاونات للفاتحين العرب .

وبعد استيلاء عمرو بن العاص على حصن بابليون فكر فى فتح الاسكندرية فقد رفض الامبراطور هرقل الصلح الذى عقده المقوقس مع عمرو وبعث قوات بيزنطية كبيرة أغلقت ابواب الاسكندرية وتأهبت للقتال . (٢)

وخلال زحف عمرو بن العاص الى الاسكندرية لقى كثيرا من المساعدات والمعاونات التى قدمها القبط المصريون فقد اصلحوا الطرق واقاموا الجسور . ولم يلق عمرو اية مقاومة على طول الطريق من حصن بابليون الى الاسكندرية حتى بلغ ترنوط . (٣) حيث التقى بالقوات البيزنطية وانتصر عليها وهربت حاميات المدن الى الاسكندرية .

عسكر عمرو بن العاص قرب الاسكندرية وكان معه رؤساء القبط الذين قدموا الطعام للجند العرب والعلف لخيولهم ودلوهم الى الطرق والمسالك المؤدية الى الاسكندرية . (٤)

---

(١) Chronique de Jean. P. 447.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٦٦

(٣) قرية بين الاسكندرية ومصر وبها اسواق كثيرة وكنيسة كبيرة ومعاصر للسكر وبساتين (ياقوت : معجم البلدان جـ٥ ص٢٧)

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٦٧

والحقيقة ان أهل المدن المصرية المجاورة للاسكندرية انقسموا الى فريقين فريق مع القائد البيزنطي العام تيودور وفريق آخر يؤيد الجيش المصري • وانتشرت في البلاد حرب أهلية • فكان كل فريق يهاجم الفريق الآخر •

وفي الاسكندرية كان هناك بعض الحكام والقواد البيزنطيين الذين لاذوا بالفرار الى الاسكندرية الى جانب بعض اهالي الدلتا من القبط والروم • وساد الاسكندرية جو من الاضطراب والانقسام فقد تنازع الرؤساء والقواد والحكام كما انقسم اهالي الاسكندرية والمهاجرون اليها الى فريقين متخاصمين ونشب القتال بينهما وراحت ضحيته اعداد كبيرة من الارواح • (١)

وكان الامبراطور هرقل حريصا على الاحتفاظ بالاسكندرية • فكان يقول : " لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكهم " • واخذ يستعد للخروج بنفسه للدفاع عنها الا انه مات كمدا • فاشتد ساعد العرب وزادت حماستهم • (٢)

وتذكر بعض المصادر التاريخية ان المقوقس طلب من عمرو بن العاص اثناء حصار الاسكندرية الصلح والمهادنة لمدة معينة فرفض عمر • ثم تقول هذه المصادر " الا ان القبط في ذلك يحبون الموادعة " • (٣)

ولن نخوض ايضا في تفاصيل فتح عمرو لمدينة الاسكندرية • وقد انتهى الامر بعقد الصلح • وشروطه هي :

١ـ يدفع الجزية كل من دخل في العقد •
٢ـ يبقى المسلمون في اماكنهم دون تدخل في اى عمل وبدون تعديل في اى وضع حتى يجلو جنود الروم •
٣ـ يجلو الجند الروم عن الاسكندرية خلال احد عشر شهرا ويحملون معهم ممتلكاتهم ومتاعهم ومن اراد منهم الرحيل عن طريق البر يدفع جزية شهرية حتى يتم رحيله عن ارض مصر •

---

(١) Chronique de Jean. PP. 450 - 451.
(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٦٩
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص٢٢٢ ـ ابن الاثير : الكامل جـ٢ ص٣٩٧

٤ــ يأخذ المسلمون رهائنا مائة وخمسين من العسكريين وخمسين من المدنيين.
٥ــ لاتعود القوات البيزنطية ثانية الى الاسكندرية •
٦ــ يسود السلام ويتوقف القتال بين المسلمين والروم •
٧ــ يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين ويمنحهم الحرية الدينية •
٨ــ يسمح لليهود بالاقامة فى الاسكندرية • (١)

أخذنا هذه الشروط عن المؤرخ حنا النقيوس وما لاشك فيه ان سماح عمرو بن العاص لليهود بالاقامة فى الاسكندرية ــ اهم مراكز نشاطهم ــ كان مكافأة لهم لعدم تدخلهم فى قتال المسلمين والتزامهم الحياد طوال احداث الفتح وبقى اليهود فى الاسكندرية وأدوا للحكومة الاسلامية الجزية • (٢)

واذا ناقشنا شروط صلح الاسكندرية نجد ان الشرط الاول قد جعل اهالى الاسكندرية اهل ذمة يؤدون الجزية فى مقابل الدفاع عنهم وتأمينهم على انفسهم • وعلى مصالحهم وممتلكاتهم وكان هذا الشرط ايضا احد شروط صلح بابليون • ومن الشروط المشتركة ايضا فى الصلحين حماية المسلمين لكنائس القبط وغيرهم من المسيحيين • وعدم التدخل فى شئونهم الدينية اما فيما عدا ذلك فهى شروط خاصة بمدينة الاسكندرية وشعبها • مما يميز هذا الصلح عن صلح بابليون •

بعد عقد هذا الصلح عاد المقوقس الى الاسكندرية واخبر الحكام والقواد وكبار رجال المدينة من الروم بما تم بينه وبين عمرو بن العاص وبما تضمنه الصلح مع المسلمين بينما لم يعلم سائر اهالى الاسكندرية شيئا عن هذا الصلح • فلما قدم بعض المسلمين الى الاسكندرية لحمل الجزية المقررة فى الصلح • اراد بعض سكان المدينة مقاومتهم الا ان جيش الروم حال دون ذلك فثار الشعب وانتشرت

---

(١) Chronique de Jean, P. 455.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٧٤ •
ابن بطريق : التاريخ المجموع ص٢٦
ابن اياس : بدائع الزهور جا ص ٢٢

الفوضى فى الاسكندرية بل ارادوا قتل المقوقس ورجمه بالحجارة تعبيرا عن سخطهم لعقده الصلح مع المسلمين. (١)

وخرج المقوقس الى المتظاهرين والثائرين لتهدئة روعهم وتوضيح حقيقة الموقف فذكر انه اقدم على عقد هذه التسوية لمصلحتهم ولانقاذهم هم وأطفالهم . وتوصل اليهم لقبول الصلح . وسلم أهالى الاسكندرية أخيرا بقبول الصلح وحملوا كثيرا من الاموال الى المقوقس ليدفع الجزية المقررة عليهم للمسلمين. ومما تجدر الاشارة اليه ان المقوقس حمل الجزية بنفسه الى عمرو بن العاص. (٢)

كان استقرار الحكم الاسلامى فى الاسكندرية يقضى على كل امل فى عودة الحكم البيزنطى الى مصر وقد فترت الحماسة للقتال ورأى معظم اهالى مصر الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد . ومن ثم تم فتح كثير من المدن الدلتا صلحا ، بعهد بين حاكمها وبين المسلمين ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس . وفرض العرب عليهم فى الصلح " دينارين على كل انسان جزية . وأرزاق المسلمين الى جانب شروط ستة لايخرجون من ديارهم ولاتنتزع نساؤهم ولاكنوزهم . ولا أراضيهم ولايزاد عليهم ". (٣)

وهكذا تم للعرب المسلمين فتح البلاد المصرية واستقرت الامور لهم فيها . الا ان الاسكندرية ما لبثت ان نقضت الصلح (سنة ٢٣ او ٢٥ هـ) (٤) ولاشك ان البيزنطيين هم الذين نقضوه وليس القبط المصريين . ونجح عمرو بعد جهود عسكرية عديدة فى استرداد الاسكندرية. (٥)

---

(١) Chronique de Jean. P. 456.

(٢) Ibid. P. 456.

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٧٧
ابو عبيد : الاموال ص١٤١.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٣

(٥) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٢٣٥

اختلف الكتاب المحدثون فى الرأى حول موقف قبط مصر من العرب الفاتحين ومدى ترحيبهم بالمسلمين ، ومدى تقديم المساعدات اليهم .

وينسب المستشرق (توماس أرنولد) (١) النجاح السريع الذى أحرزه الفاتحون العرب الى ما لقيوه من ترحيب المصريين الذين كرهوا الحكم البيزنطى الظالم ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت فان اليعاقبة — وهم يكونون السواد الاعظم من المصريين — قد عوملوا معاملة مجحفة من اتباع المذهب الملكانى التابعين للامبراطور .

ومما لاشك فيه ان بعض القبط وقف موقف الحياد لان ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية الى اخرى وهم بذلك لن يتمكنوا من اجلاء العرب والبيزنطيين معا وفى وقت واحد كما ان فريقا من القبط حارب الى جانب الروم البيزنطيين اذ كانوا يتوقعون انتصار البيزنطيين على العرب . (٢)

ويرى احد الكتاب المحدثين انه لما قدم العرب الى مصر فاتحين احتاجوا الى من يشد أزرهم فوجدوا فى القبط خير معين وان كان ليس هناك مايدل دلالة واضحة على مساعدة القبط العرب فى تقدمهم من العريش حتى فتح حصن بابليون ، الا انه من الثابت انهم لم يساعدوا الروم ضد العرب بل امدوا العرب بالعلف والمؤن وغيرها . (٣)

ويرى (هاردى) (٤) ان القبط نظروا الى الفاتحين العرب على انهم منقذون ومحررون لهم مما كانوا يلاقونه ويعانون منه فقد كانوا يبغضون الروم بغضا شديدا لما قاسوا على يد المقوقس وقد ادرك المسلمون حقيقة مشاعر القبط مما جعلهم اكثر جرأة وبسالة فى القتال .

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص١٢٣

(٢) سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٨٦

(٣) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص٤٨

(٤) Christian Egypt. P. 187.

والحقيقة ان المصريين رحبوا بالفتح العربي الذي يقضى على الاوضاع القائمة الظالمة والدليل على ذلك تمرد بعض القواد وعصيان بعض الحاميات ورفضها قتال المسلمين. (١) ويذكر (سيلفستر شولير) (٢) ان القبط لم يرتكبوا خيانة في حق الدولة البيزنطية فقد كانوا من قبل ساخطين على فساد الادارة وسياسة الامبراطور الدينية ولذا كان من الطبيعي ان يخضع القبط ويسلمون للعرب الفاتحين تخلصا من طغيان الروم واستبداد هم ويؤكد المؤرخ رأيه برواية تذكر ان الرهبان قد تركوا أد يرتهم وانضموا الى الجند المسلمين ضد الرومان. كما انه عندما حاول البيزنطيون غزو مصر ثانية كان موقف القبط اكثر وضوحا . وقد انحازوا الى جانب المسلمين وقدموا اليهم كل مساعدة ممكنة.

ويذهب كتاب محدثون آخرون مذهبا مخالفا ، فينفون الآراء التي تذهب الى ان القبط رحبوا بالفاتحين العرب وقدموا لهم العون والمساعدة . وهؤلاء الكتاب يستندون في آرائهم على ان المسلمين اخفقوا في فتح بعض المناطق ووجدوا كثيرا من الصعوبات والعقبات في فتحها . (٣)

ويقف بعض الكتاب المحدثين موقفا وسطا فيذكرون ان القبط قد انقسموا الى فريقين متميزين في موقفهم فقد انحاز فريق منهم الى الروم بينما ابدى فريق آخر ترحيبه بالعرب . (٤)

وبعد هذا العرض لآراء الكتاب المحدثين حول موقف القبط من الفاتحين العرب يمكننا ان نقول انه مما لاشك فيه ان كثيرا من القبط قد ساعدوا العرب في تقدمهم في الاراضي المصرية وقدموا لهم كل مساعدة وكل تأييد ممكن.

---

(١) The Encyclopedia of Islam, Art Kibt, Vol.2.P.990

(٢) Sylvester Chaileur: Histoire des Coptes, PP.93-94

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٩ ومابعدها .

(٤) اسد رستم : الروم جـ١ ص ٢٥٢-٢٥٣

وكان ذلك نتيجة طبيعية لما قاسوه من الاضطهاد والعسف لمدة عشر سنوات. ونستند في ذلك على أقوال المؤرخون القدماء.

فقد كتب اسقف القبط بالاسكندرية (ابو ميامين) عند قدوم الجيش العربي الى مصر الى القبط يشير عليهم بالترحيب بالعرب فلم تكن للروم دولة كما قدم قبسط الفرما كثيرا من المساعدات للجيش العربي. (١) مما فتح الطريق امام العرب وكتاب هرقل الى المقوقس يوضح حقيقة موقف القبط وكراهيتهم للقتال. واستعدادهم لدفع الجزية وقد جاء في هذا الكتاب : " ... انما اتاك من العرب اثنا عشر ألفا. وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك من بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك اكثر من مائة ألف ". (٢)

ومن الروايات القديمة التي تثبت ترحيب القبط بالعرب وتقديم المعاونات لهم هذه الرواية : " ان عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حين امكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط . وقد اصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط اعوانا على ما أرادوا من قتال الرومان ".

وأشار بعض المؤرخين صراحة الى ان مساعدة القبط للعرب الفاتحين ظهرت بوضوح بعد فتح العرب لاقليم الفيوم. (٣)

والحقيقة ان العامل الرئيسي لنجاح الفتح العربي لمصر ولنهاية الحكم البيزنطي هو السياسة التي انتهجها الامبراطور هرقل والمعاملة التي عامل بها القبط الارثوذكس وما لقيه هؤلاء القبط من بطرك الملكانيين. وقد رأى بعض المصريين انهم لايخسرون شيئا اذا تقبلوا الحكم العربي بدلا من الحكم البيزنطي

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٣ ٥-٥٤

(٢) المصدر السابق ص٦٤

(٣) Chronique de Jean. PP. 439 - 448.

بعض التعليقات هنا غير دقيقة

فكل من الحكمين بالنسبة لهم حكم اجنبى وقد خبروا حكم الروم سنوات طويلة وعانــوا من فساده ومظالمه وتوقعوا ان يكون الحكم العربى أخف وطأة او اكثر تسامحا وخاصــة ان العرب يدينون بعقيدة تخالف عقيدة المصريين المسيحية فتنتهى بذلك الخلافـات الطائفية التى سادت دهرا وادت الى اضطهاد القبط كما كان كثيرا من القبـــط قد سمعوا بسياسة التسامح التى اتبعها العرب الفاتحون نحو المسيحيين فى بـلاد الشـــام.

كما ان الجزية التى فرضها العرب وقبلها القبط كانت تتضاءل كثيرا اذا قارنوها بالضرائب الباهظة التى كان يؤديها المصريين للدولة البيزنطية وقد اثقلت كواهلهم وادت الى كثير من المساوئ الاقتصادية ولمس قبط مصر تواضع العرب وبساطتهـم مما شجعهم على الخلاص من سياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها الروم فى حكـــم مصـــــر.

اما يهود الاسكندرية فقد كانوا قد استقروا دهرا طويلا فى هذه العاصمــة وامتزجوا باهلها من القبط المصريين • وشاركوهم ظاهريا مشاعرهم وكراهيتهـــــم للحكم البيزنطى • وهؤلاء اليهود وان كانوا فى الحقيقة يبغضون الطائفتين المسيحيتين على السواء لاختلافهم معهم فى العقيدة الا انهم آثروا اخفاء بغضهم • حرصـــا منهم على مصالحهم المادية ونشاطهم الاقتصادى•

وكان الفتح العربى مفاجأة ليهود الاسكندرية وقد جعل موقفهم حرجـــا • فقد كانوا فى الحقيقة لا يريدون اقحام انفسهم فى معارك حربية او خلاف سياسى • او نزاع طائفى ويريدون التفرغ التام لنشاطهم الاقتصادى الواسع النطاق الـــذى يمارسوه منذ سنوات طويلة فى الاسكندرية مما جعلهم يسيطرون على كثيرمـــــن المرافق الاقتصادية وقد خشوا نتائج مساعدتهم للسلطات البيزنطية الحاكمة • فقد تحقق النصر للعرب كما تحرجوا من تأييد الفتح العربى فقد يكون النصر للــــروم مما يعرضهم لسخطهم واضطهادهم • كما كان هؤلاء يكرهون اليهود ويدركـــون حقيقة مشاعر القبط العدائية نحو الروم•

ولهذه الاسباب كلها ، آثر اليهود انتهاج سياسة الحياد التام والوقـوف موقفا سلبيا تجاه الاحداث الدائرة فى داخل الاسكندرية وخارجها • وفى الحقيقـة لم يكن العرب الفاتحون فى حاجة الى معاونة هؤلاء اليهود فعددهم قليل اذا قارناهم بعدد القبط الذين يمثلون غالبية سكان مصر • كما ان اليهود لم يكونوا قوة عسكريـة بل اتجه كل اهتمامهم الى الشئون الاقتصادية • وقد قدر العرب لهؤلاء اليهـود موقفهم فسمحوا لهم بالبقاء فى الاسكندرية •

وقد كان العرب فى الحقيقة ـ على جانب كبير من الفطنة والذكاء • حينمـا اتخذوا هذا الموقف من اليهود فقد كان هؤلاء اليهود فى الاسكندرية هم عصـب النشاط الاقتصادى وكان جلاؤهـم من المدينة يوقف هذا النشاط فى وقت يريـد العرب الفاتحون تحقيق الاستقرار • ولا شك ان الاقتصاد هو اساس الاستقرار السياسى والادارى والاجتماعى • كما ان العرب أرادوا ان يثبتوا لجميع اهالى مصر انهـم يكافئون كل من لم يقف موقفا عدائيا • كما كان العرب يخشون من محاولة الـروم استعادة الاسكندرية • ولهذا رأوا ان يضمنوا حياد اليهود مرة أخرى •

وفضلا عن ذلك كانت هذه السياسة التى انتهجها العرب المسلمون نحـو اليهود هى جزء من سياسة التسامح الاسلامى نحو اهل الذمة فى كل مكان • مما شجعهم على الاقبال على الاسلام وعلى تعلم اللغة العربية ثم الاندماج فى الحياة العربيـة •

٢ـ القبائل العربية الوافدة على مصر

تم الفتح العربي لمصر في سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) وأخذ العرب المسلمون يتوافدون على مصر بعد الفتح سواء أكانوا جنودا أم مهاجرين اذ استهوتهم مصر وما سمعوا عن خيراتها وثرواتها • وبمضى السنين ازدادت هجرة القبائل العربية النازحة الى مصر وامتزج العرب بالمصريين الذين صحوا بلغتهم ودينهم لاول مرة في تاريخهم الطويل طواعية واختيارا ليصبحوا جزءا من الامة العربية الاسلامية •

قدم عمرو بن العاص الى مصر فاتحا ومعه اربعة آلاف جندى • ثم تبعه الزبير بن العوام بعدد قدر باثنى عشر ألف جندى• (١) ثم وفدت قوات اخرى مع عبدالله بن سعد بن ابى سرح • ولو تتبعنا عدد من وفدوا على مصر من العرب في ربع القرن الاول من الفتح ١٨ـ٤٣هـ) لوجدناهم بضع عشرات من الالوف •نزلوا مصر واقاموا في الفسطاط والجيزة والاسكندرية وبعض جهات الصعيد • (٢) كما ان قوات الجيش العربي لم تقم بصفة دائمة في الفسطاط التي بنيت كمعسكر لها ولكنها كانت تتحرك داخل البلاد لاسباب مختلفة تتعلق بالامن • وايضا للعناية بالخيل وتسمينها فيما يعرف بالارتباع •

ومن اجل تأمين البلاد واحكام السيطرة عليها كان لابد من اقامة قوات من الجنود في الثغور وعلى سواحل مصر بصفة دائمة وهو ما يعرف في المصطلح العسكري العربي باسم (الرباط) (٣) ونظرا لاهمية الاسكندرية واهمية موقعها • خصها عمرو بن العاص بربع قواته وجعل ربعا آخر في بقية السواحل على حين اقام النصف الباقى من قواته معه في الفسطاط• (٤) كما كانت حامية الاسكندرية تستبدل كل ستة اشهر بقوات اخرى وربما كان ذلك لتجديد نشاط وحيوية هذه الحامية ولتكون دائما على اهبة الاستعداد لصد محاولات الروم لغزو الاسكندرية•

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص٩

(٢) المقريزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب (تحقيق عبدالمجيد عابدين) ص٩٥

(٣) عبدالله خورشيد البرى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الاولى للهجرة ص٤٩

(٤) ابن عبدالحكم : فتوح مصر واخبارها ص١٩٢•

فيقول ابن عبدالحكم [١] : " وكان يصير بالاسكندرية خاصة الربع فى الصيف بقدر ستة اشهر ويعقب بعدهم شاتية ستة اشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من اصحابه واتخذوا فيه أخائذا " .

كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يرسل فى كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط فى الاسكندرية على ان العرب الذين اقاموا فى الاسكندرية لم يختطوا بها وانما سكنوا منازلها ، فمن اخذ منزلا نزل فيه هو وأهله " فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فيها فتكون له ولاهله " . [٢]

ومن اشهر القبائل العربية التى سكنت الاسكندرية (لخم) و (جزام) و (كندة) و (الازد) و (الحضرمة) و (خزاعة) و (المزاغة) وغيرها وكلها يمنية . وقد عهد اليها عمرو بن العاص بحراسة المدينة والدفاع عنها . [٣] واستمر وفود القبائل العربية على الاسكندرية كما اخذت حاميتها فى الازدياد كلما استشعر المسلمون الخطر على الاسكندرية ففى خلافة معاوية بلغت حامية الاسكندرية اثنا عشر الفا زيدت حتى وصلت الى سبعة وعشرين الفا بقيادة علقمة بن يزيد الغطيفى . [٤] ولا ريب ان اقامة هذه الاعداد الكبيرة فى الاسكندرية وفى مثل هذا الوقت المبكر من الفتح كان لها اثرها الكبير فى التعريب .

كذلك وزع عمرو بن العاص ربع قواته على السواحل فيما بين العريش ولوبية فأقامت القوات العربية فى الفرما والاشتوم ودمياط والبرلس ورشيد كما كان يقيم فى تلك الثغور فرق من المتطوعة وجماعات من اهل الديوان . [٥]

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠
(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ ــ ١٣١ ــ البلاذرى ــ فتوح البلدان ص ٢٣٠
(٣) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٧ ــ العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٦ .
(٤) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٩٢ ــ المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٠١
(٥) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢١١ ــ عبدالله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ص ٥٠

وقد صاحب انتشار القوات العربية على طول الساحل الشمالى لمصر بنساء مدينة الفسطاط واستقرار القبائل العربية بها . فلما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية اختط داره فى موضع فسطاطه وبنى بجوارها المسجد الجامع . كما بنى بجانبها دارا اخرى لابنه عبد الله عرفت باسم الدار الصغرى . (١) واقبلت عليه القبائل تتنافس فى المواضع . فولى عمرو على الخطط (اى الحارات والطرقات) معاوية بن خديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى . وعمرو بن قحزم الخولانى . وحيويل بن ناشرة المعافرى . فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل . وذلك فى سنة ٢١ هـ . (٢)

واختط حول دار عمرو والمسجد أهل الراية (٣) من قريش والانصار . وأسلم وغفار وجهينة وغيرهم ممن لم يكن لعشيرته عدد كبير عند الفتح . وحول خطة اهل الراية اختطت بقية القبائل مثل مهرة ونجيب ولخم وغافق ومذحج وغطيف والمعافر وبنى وائل وغيرها . وأخذ العرب يفدون على الفسطاط حتى كان بها فى خلافة معاوية بن ابى سفيان أربعون ألفا . (٤)

واستمرت مدينة الفسطاط فى النمو والاتساع فى الفضاء الواقع شمالى بابليون بين النيل وجبل المقطم على ضفة النيل الشرقية . وقد فضلت بعض القبائل كهمدان ومن والاها (مثل آل ذى اصبح من حمير ويافع وغيرهم) سكنى منطقة الجيزة غربى النيل . فخاف عليهم عمرو لان النهر يحول بينه وبينهم .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٢ وما بعدها ـ المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٦

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٩٦ ـ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ٤ ص ٣

(٣) اهل الراية : خليط من قبائل مختلفة شهدوا الفتح مع عمرو ولم يكن لكل منهم من العدد ما يمكنهم من الانفراد تحت اسم واحد .
(ابن عبد الحكم ص ١١٦ ـ المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٩٦).

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ ـ المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٩٧ .

فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بشأنهم فأمره بان يجمعهم عليه فان أبوا فليسن عليهم حصنا من فئ المسلمين فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا ، فبنى لهم حصنا في الجيزة سنة ٢٢ هـ .(١)

كذلك بلغ العرب الفاتحون أقصى الصعيد منذ سنوات الفتح الاولى في صحبة عبد الله بن سعد بن ابى سرح عندما كان اميرا على الصعيد .(٢) حيث اتخذ مقراما رته في أقصى الصعيد في المنطقة التي كان يسكنها نوبة مصر . واستقر معه بالطبع عدد كبير من العرب ، وكان ذلك سنة ٢١و٢٢ هـ .(٣) اما حملة عبد الله ابن سعد على النوبة سنة ٣١ هـ فقدرت بعشرين ألف مقاتل .(٤) وهو عدد كبير ولا شك وكان له تأثيره على الصعيد . ويذكر المقريزى(٥) ان بلدة القيس التي تجاور البهنسا سميت باسم رجل عربى يدعى القيس بن الحارث كان عمرو قد بعثه الى الصعيد فسار حتى أتى مدينة القيس هذه ، فنزل بها فسميت باسمه .

وهكذا انتشر العرب منذ سنوات الفتح الاولى في الاسكندرية وعلى طول الساحل الشمالى وفى الفسطاط ، كما انتشروا في الصعيد .

وهناك عامل مهم ساعد على انتشار العرب في ريف مصر في وقت مبكر ، وهو خروج العرب الى الريف في فصل الربيع وهو ما يعرف بالارتباع ، فكانوا ينطلقون الى القرى والحقول ، يشربون من لبنها ويأكلون من خيراتها ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٠٥–٢٠٦ ، ابن سعيد : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٤١

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣

(٣) المقريزى : البيان والاعراب ص ٩٦

(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٩٩

(٥) الخطط جـ١ ص ٢٠٤

ويتركون خيولهم ترعى لتسمن وتشتد • فكان اذا جاء وقت الربيع كتب الوالى لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث أحبوا وحدد لهم القرية التى يذهبون اليها وكميات اللبن والخراف التى يسمح لهم بالحصول عليها من المصريين• (١) مع التنبيه على العرب بحسن معاملة من جاورهم من القبط • (٢) فتخرج القبائل الى القرى التى حددت لها يشربون من لبنها ويأكلون خرافها ويطلقون خيولهم فى حقول البرسيم• (٣) حتى اذا انتهى فصل الربيع و " يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن • وانقطع الورد عن الشجر ". (٤) عادوا ثانية الى فسطاطهم•

وكان لكل قبيلة او بضع قبائل مرتبع خاص بها • فكانت قبائل بلى ومراد وآل ابرهة تأخذ مرتبعها من منف • وآل عمرو بن العاص •وآل عبدالله بن سعد ونجيب يأخذون فى وسيم (قرب الفسطاط) وآل فهم وآل أبرهة والمعافر فى منوف• وفى الشمال الشرقى والذى عرف فيما بعد بالحوف الشرقى • كانت قبائل غفار وأسلم ووائل تأخذ فى بسطة وقربيط وطرابية• وكانت المعافر فيى أتريب وحضرموت فى عين شمس وأتريب وطائفة من لخم وجذام فى صان وأبليل وطرابية • وفى الشمال كانت حمير وعدوان تأخذ فى بوصير ومهرة وحضرموت فى بناء والمعافر فى سخا• ومدلج فى خرتنا •

اما فى الجنوب فكانت حركة الارتباع اقل فمراد كانت تأخذ فى الفيوم •وحمير تأخذ فى اهناس• اما فى الصعيد الاوسط فكانت ترتبع قبيلة واحدة هى خولان التى كانت تأخذ فى أهناس والقيس والبهنسا • (٥) ويلاحظ ان معظم القبائل كانت تتركز حول الفسطاط شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فى شبه دائرة •بينما

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٤١
(٢) المصدر السابق ص ١٤٠
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق ص ١٤١ـ١٤٢ـ المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٦٠
(٥) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٤١ـ المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٦٠

يقل الانتشار كلما ازداد الاتجاه شمالا او جنوبا . (١) وبعض هذه القبائل كان يستقر بصفة دائمة فى منطقة الارتباع ، فقد أقامت قبيلة مدلج بخربتا واتخذتها منزلا ، وكان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها ، فهى منازلهم . (٢) كذلك استقرت بعض القبائل فى الشمال الشرقى (الحوف الشرقى فيما بعد) من لخم وجذام الذين نزلوا فى صان وأبليل وطرابية . (٣)

وهكذا كانت حركة الارتباع السنوية عاملا مهما فى اختلاط العرب بالمصريين وتعرف كل فريق على الفريق الاخر منذ سنوات الفتح الاولى مما كان له أثر كبير فى تعريب مصر ونشر الاسلام فيها فيما بعد وفى فترة وجيزة .

وبالاضافة الى الرباط والارتباع ساعدت الضيافة على الامتزاج والاختلاط بين العرب والمصريين فقد كان على المصريين ان يستضيفوا من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام يقدمون لهم فيها الطعام والمأوى . (٤) فضلا عن العلاقات اليومية من معاملات وبيع وشراء وتعامل مع الحرفيين والزراع والباعة من الاقباط مما يزيد الصلات من اجل المنفعة المتبادلة مع بساطة العرب وقيمهم الانسانية ووصايا دينهم بحسن معاملة أهل الكتاب . (٥)

والمعروف ان القبائل العربية فى مصر لم تشتغل بالزراعة فى اول الامر ، لان الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى الجند العرب عن الاشتغال بالزراعة او شراء الاراضى الزراعية حتى يكونوا على استعداد دائم للغزو والجهاد . (٦) وفى نفس الوقت ضمن لهم معاشهم وأرزاق عيالهم " وان عطاءهم قائم ، وان رزق عيالهم سائل ، فلا يزرعون ولا يزارعون . (٧) ولما طلب شريك بن

(١) البرى : القبائل العربية فى مصر ص٤٦

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٤٠

(٤) المصدر السابق ص٧٠ ـ ابن سعيد : المغرب ص٢٩

(٥) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ص٥٥

(٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٢٥٩ ـ مصطفى محمد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص١١١

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٦٢ .

سكى القطيفى من عمرو ان يأذن له بالزرع ، قال له عمرو : ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير اذن عمر ، فطلب الخليفة ارسال شريك اليه فى المدينة. وكان شريك ان يتعرض لعقاب عمر بن الخطاب لولا انه قول اخيرا توبته. (١)

وهذا يفسر لنا اصرار عمر بن الخطاب على عدم اشتغال الجند العرب بالزراعة حتى يتفرغوا للغزو والجهاد ، طالما ضمن لهم عطاءهم وأرزاق عيالهم ، علاوة على نصيبهم من غنائم الحرب. وبناء على أوامر الخليفة دون عمرو بن العاص اسماء القبائل واعطياتهم فيما يعرف بالتدوين الاول ،(٢) ونظمها فى الديوان المعد لهذا الغرض فى الفسطاط. وحرصا على تنظيم عملية العطاء فيما بعد جعل الخليفة معاوية بن ابى سفيان على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يمر كل يوم على أهلها فيقول : " هل ولد الليلة فيهم مولود ، وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية ". (٣) فيكتب اسماءهم ثم يذهب فيثبتها فى الديوان.

ويلاحظ ان القبائل العربية لم تشتغل بالزراعة طوال القرن الاول الهجرى فى مصر كما ان معظم القبائل التى وفدت على مصر فى هذه الفترة كانت من المجموعة السبئية فيما عدا جماعات قليلة من العدنانية (القيسية) سكنت الفسطاط ولم يكن لكل بطن من هذه الجماعات من العدد ماينفرد بدعوة من الديوان ، فأسكنوا هم وفئات اخرى من المجموعة السبئية خطة واحدة سميت بخطة أهل الراية. (٤)

وظلت القبائل السبئية تمثل غالبية عرب مصر حتى عهد الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان والى مصر الوليد بن رفاعة قد ولاه هشام على صلاتها سنة ١٠٩ هـ بينما كان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب (٥) فوفد ابن الحبحاب على الخليفة هشام وسأله ان ينقل الى مصر بيوتا من قيس

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢ - المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٥٩

(٢) التدوين هو تسجيل اسماء القبائل واحصاؤها ، وارجاع كل فرع الى اصله ، وكان التدوين الاول لعمرو بن العاص والثانى لعبد العزيز بن مروان (سنة ٦٥ هـ) والثالث لقرة بن شريك (سنة ٩٠ هـ) والرابع لبشر بن صفوان (١٠١ هـ) - المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٤ - ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٤٤.

(او عرب الشمال) وكانت القيسية أقلية في مصر كما كان ابن الحجاب من موالي قبيلة سلول القيسية. [(١)] فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم. وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط. [(٢)] فجاء بهم ابن الحجاب وأنزلهم بالحوف الشرقي وفرقهم فيه. وامرهم بالاشتغال بالزراعة. [(٣)] ومنحهم اموالا من صدقة العشور" فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير واكثر وأقل ثم امرهم باشتراء الخيول. فجعل الرجل منهم يشترى المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤنسة في أعلاف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم. [(٤)] فلما علم قومهم في البادية بما هم فيه من خير اخذوا يتوافدون عليهم في الحوف الشرقي حتى بلغ عددهم في ولاية محمد بن سعيد على مصر سنة ١٥٣ هـ خمسة آلاف ومائتي اهل بيت صغيرا وكبيرا. [(٥)]

ولاشك انه حدث تحول خطير نتيجة السماح لتلك القبائل بالزراعة. بعد ان كان الاشتغال بالزراعة ممنوعا. فقد ساعد اشتغال العرب بالزراعة على سرعة اختلاطهم بأهل البلاد مما عجل بانتشار الاسلام واللغة العربية في مصر وفي هذا يقول المقريزي [(٦)] : " ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من

---

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٠٢ ـ المقريزي : الخطط جا ص ٩٤
(٤) المقريزي : البيان والاعراب ص ٩٨ ـ ٩٩
(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٥ ـ ٧٦

(١) المقريزي : البيان والاعراب ص ١٠٠
(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٤٣ ـ الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٦
(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٧ ـ المقريزي : الخطط جـ١ ص ٨٠
(٤) الكندي ص ٧٧
(٥) المصدر السابق
(٦) الخطط جـ٢ ص ٢٦١

تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبدالله بن الحجاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها ".

والى جانب القبائل العربية التى كانت تفد الى مصر ، جرت عادة معظم الولاة على ان يصحبوا معهم الى مصر اعدادا من الجند العربى (١) ففى سنة ٦٤ هـ ارسل مروان بن عبد الحكم ابنه عبدالعزيز واليا على مصر فقدمها ومعه جيش. (٢) وفى بعض الاحيان كان يبلغ عدد الجند المصاحب للوالى عشرين ألفا ، فقد صحب حميد بن قحطبة والى الخليفة العباسى ابى جعفر المنصور عشرين ألفا من الجند سنة ١٤٣ هـ. (٣) اما والى هارون الرشيد مسلمة بن يحيى فقد قدم الى مصر سنة ١٧٢ هـ ومعه عشرة آلاف من الجند. (٤) واستقر كثير من هؤلاء الجند فى المدن والقرى وتزوج بعضهم من فتيات مصريات.(٥) كما ان معظم الولاة كانوا يقدمون الى مصر ومعهم آلاف من ابناء عشيرتهم ليكونوا لهم عونا وسندا ، فقد أتى الحوثرة بن سهيل الباهلى الى مصر سنة ١٢٩هـ ، ومعه آلاف من الابناء (٦)، كذلك قدم هرثمة بن اعين واليا على مصر فى عهد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ فدخل مصر ومعه ألف من الابناء أنزلهم بلبيس. (٧) والمعروف ان هؤلاء كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وابناءهم.

---

(١) كانت الجيوش فى العصر الاموى من العرب، بينما غصت فى العصر العباسى خراسانيين واتراكا .
سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ص١٣٦

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٧٧

(٣) المصدر السابق جـ١ ص ٣٠٦

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٧١

(٥) Lane-Poole : Hist. of Egypt. P. 29.

(٦) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٠٣

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص١٤٧.

وقد جرت العادة على ذلك مع أغلب الولاة العرب الذين حكموا مصره حتى عهد عنبسة بن اسحاق الضبى والى مصر فى عهد الخليفة العباس المتوكل على الله ، وهو آخر وال عربى حكم مصر فى عصر الولاة ، وبعده أخذ العباسيون يولون عناصر غير عربية. (١)

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٨٨

٣- اثر بناء الفسطاط في اتخاذهـا مركـزا للتعريـب

لم يكن الفتح العربي لمصر هو بداية الاتصال بين العرب والمصريين، فقد قامت بين الطرفين علاقات قديمة ، وكان اهم وسائل الاتصال بين العرب والمصريين قبل الاسلام عن طريق التجارة ،ففي الشمال عند شبه جزيرة سيناء كانت تلتقي الصحراء الشرقية ببلاد العرب لقاء دائما او من الجنوب حيث يشتد اقتراب جزيرة العرب من افريقية عند باب المندب فلا يفصل بينهما سوى خمسة عشر ميلا . (١)

ويبدو من اقوال (هيرودوت) ان الاقسام الشرقية من مصر ولا سيما المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية. (٢) وكان بعض الاعراب والتجار العرب يفدون الى الصعيد بطريق البحر الاحمر ووديان الصحراء الشرقية منذ أمد بعيد حتى ان المؤرخ والجغرافي الرحالة (استرابون) قال عن مدينة (قفط) بالصعيد انها مدينة مشاع بين المصريين والعرب . (٣)

وكانت بعض الهجرات العربية التي تخرج من شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام -في الجاهلية- يفد بعض منها الى مصر والشام وتشير بعض المصادر الى " ان قبائل من بلى التي امتدت ارضها الى برزخ السويس ". (٤) كان منهم عدد كبير في مصر في عهد ظهور النصرانية. وكانت منطقتهم مابين القصير وقنا وعليهم كان الاعتماد في نقل التجارة. (٥) وقد ازدادت أواصر الارتباط بين العرب والمصريين بتحقيق القرابة الدموية فقد قيل " ان ام العرب - هاجر

---

(١) حتى : تاريخ العرب جـ١ ص ٤- جولد ولسون : الحضارة العربية ص٤٢
(٢) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص١٠
(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ٢ ص ٣٤٢
(٤) الهمذاني :صفة جزيرة العرب جـ١ ص ١٣١- المقريزى : البيان والاعراب ص٨٤
(٥) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ص١٠٧

ام اسماعيل بن ابراهيم الخليل من القبط من قرية نحو الفرما واسماعيل أبو العرب كلها ". [١] ويقول (بتلر) [٢] انه في أواخر العصر البيزنطي في مصر كان يعيش بالاسكندرية كثير من العرب الى جانب غيرهم من الاغريق والقبط والسوريين واليهود .

وقبيل الفتح العربي كان التجار العرب قد اعتادوا دخول مصر " فكان عمرو بن العاص تاجرا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته وهي الادم (الجلد) والعطر الى مصر . وكان يشهد اعياد اهل الاسكندرية وألعابهم ". [٣] وربما اتاحت له ظروف قدومه الى مصر مرارا الفرص لمعرفة طرق مصر ومسالكها . وممن قدم الى مصر في العصر الجاهلي للتجارة ايضا عثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة. [٤]

وبانجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ابنه ابراهيم من مارية القبطية تأكدت الصلات الدموية والقرابة العنصرية بين العرب والمصريين. وقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بالقبط خيرا . فقد أثر عنه انه قال : " ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة ". [٥]

وقد ذكرت مصر في بعض المواضع في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم). [٦] وقوله عز وجل (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) [٧] وقد كان ذلك تأكيدا للصلات بين العرب والمصريين وتدعيما روحيا للعلاقات بينهم .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٧ ـ ٨ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٢ ـ الكندى : فضائل مصر ص٢٥

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٣ ـ الكندى : الولاة والقضاة ص٧ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١١٣

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٦

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢ ـ الكندى : فضائل مصر ص ٢٦

(٦) سورة البقرة آية ٦١

(٧) سورة يوسف آية ٩٩

وكان الفتح العربى الاسلامى لمصر وغيرها حدثا فذا فى تاريخ العلاقات الدولية تمخض عنه تغيير جذرى لامم كثيرة، فقال ولفنسون : ان الهجرة العربية الاسلامية بعد ظهور الاسلام الى جميع اطراف العالم كانت آخر حادث سامى عظيم وقع فى الجزيرة العربية واخر موجة سامية عظيمة غمرت وجه الارض وهزت العالم بأسره هزا عنيفا وصدرت عنه تموجات فكرية ونفسية عظيمة شملت اصقاع اسيا وافريقيا واوروبا • وكان من نتيجتها ان تغيرت امم كثيرة تغيرا وانقلبت منها كل جوانب الحياة من سياسية ودينية واجتماعية وعمرانية مما ادى الى نتائج خطيرة جعلت التاريخ البشرى فى كل هذه الاتجاهات يتجه اتجاها جديدا • (١)

وقد كان الفتح العربى الاسلامى لمصر حدثا عميقا فى سلسلة العلاقات العربية المصرية وله اثره الواضح فى التاريخ المصرى فقد بدأ العصر العربى الاسلامى واصبحت الفسطاط عاصمة لمصر ومركزا لاشعاع الاسلام والعروبة على مصر•

اعتاد العرب فى فتوحاتهم ان يؤسسوا فى الاقطار التى يفتحونها مدنا اسلامية عربية جديدة رمزا لانتصار الاسلام وللسيادة العربية وكانوا يتخيرون اماكن هذه المدن الجديدة •

وفى مصر اسس القائد العربى الفاتح عمرو بن العاص مدينة الفسطاط بعد فراغه من فتح الاسكندرية الفتح الاول (٢) • ويشير المقريزى الى ان انشاء مسجد عمرو بن العاص الجامع كان نواة تأسيس مدينة الفسطاط فيقول : "• • • • ولما افتتح عمرو مدينة الاسكندرية الفتح الاول نزل بجوار هذا

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص١٩٢

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٨٦

هذا الحصن ـ أى حصن بابليون ـ واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص . واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها ". (١)

وقد تعددت آراء المؤرخين حول سبب اختيار عمرو بن العاص لموقع هذه العاصمة العربية الاسلامية الجديدة كما اختلفت الاراء حول تسمية الفسطاط وسنذكر بعض هذه الاراء لنتبين ابعاد عروبة مدينة الفسطاط وعروبة تسميتها .

ومن هذه الاراء مايشير الى اختيار العرب مواقع المدن الجديدة بعيدة عن السواحل وتشير الرواية الى ان " عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها . هم ان يسكنها وقال مساكن قد كفيناها . وكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يصفها له ويستأذنه فى اتخاذها عاصمة فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل . فكتب عمر الى عمرو : انى لا احب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية الا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتى حتى اقدم عليكم قدمت فتحول سعد بن ابى وقاص من مدائن كسرى الى الكوفة وتحول عتبة ابن غزوان الى البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط ". (٢)

وهناك روايات لانميل كثيرا الى تصديقها وهى تشبه الروايات التى اعتدنا ان نجدها فى مصادرنا التاريخية ترتبط بنشأة المدن الاسلامية . فتذهب هذه الروايات الى ان عمرو بن العاص حين اراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون " امر بنزع فسطاطه ـ اى خيمته ـ وكان قد تركها بجوار الحصن اثناء حصارهم له . فاذا يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم . فامر به فاقر كما هو واوصى صاحب القصر ". فلما رجع المسلمون من فتح الاسكندرية

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٨٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ـ ابن سعيد : المغرب ص ٣٩
المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٩٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٣

عرض عمرو مسألة اختيار المكان الذى ينزلون به ، فقالوا : ننزل بالفسطاط .

هذه الروايات يشوبها الخيال وينقصها التمحيص ، لان المواقع الهامة فى انحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وان تغيرت اسماء تلك المواقع بتغير الزمان وربما تنبه العرب الى اهمية موقع تلك المدينة التى اتخذوها عاصمة لمصر اذ يمتاز موقعها بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا ، وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية ويذكر (استرابون) ان حصن بابليون الذى يقع قريبا من موقع منف كانت فيه احدى الحاميات الثلاث فى مصر. (١)

ويشير المقريزى الى موقع هذه الحامية البيزنطية فيقول : " ان هذا الحصن الذى يعرف بقصر الشمع وبالمعلقة كان ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيرة من مدينة الاسكندرية ويقيم فيه ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية ". (٢) ومما يؤكد اهمية موقع هذا المكان ان المصريين القدماء كانوا قد اتخذوا منف عاصمة لهم مدة طويلة وكانت مدينة هليوبوليس — عين شمس — التى كانت مبانيها متصلة بمبانى مدينة منف قديما عاصمة لمصر أيضا .

وتقع مدينة الفسطاط بين هاتين المدينتين القديمتين ويفصلها عن كل منهما ثلاثة فراسخ الى الجنوب والى الشمال . كما اتخذها البابليون فى القرن السادس قبل الميلاد مكانا لاستقرارهم فى مصر وبنوا فيها حصنا كبيرا وجعلها الروم عاصمة ثانية لاقليم مصر وصلوا بها بين الوجهين البحرى والقبلى . (٣)

ويصف المقريزى موضع مدينة الفسطاط حين اختطها العرب بأنه كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم . وليس

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢١٦ — ٢١٧
(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٨٦ — ٢٨٧
(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ١ ص ٣٦ — ٣٧

فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة وكان بجوار هـذا الحصن من جهته الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس للنصارى. (١)

تعددت آراء المؤرخين حول لفظ (فسطاط) الذى أطلق على العاصمة الاسلامية الجديدة . ويرى (بتلر) (٢) ان هذا اللفظ مشتق عن اللفظ الرومى (فاساتوم) وكان يطلق على حصن بيزنطى قديم كانت آثاره قائمة فى ذلك الموضع ،وكان الروم فى حصن بابليون اذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه (الفساطون) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ .

ويذكر الجواليقى ان لفظ فسطاط فارسى معرب وقال الخليل عنه " فى لغة العرب معناه ضرب من الابنية دون السرادق وقيل مجتمع اهل الكورة حول مسجد جماعتهم". وقال ابن قتيبة : " ان العرب تقول لكل مدينة فسطاط. ولذلك قيل لمصر فسطاط". (٣) وتشير معظم روايات المؤرخين الى ان لفظ الفسطاط نسبة الى فسطاط عمرو " يعنى خيمته ". (٤)

وهناك رأى اخر يذهب الى ان لفظ فسطاط مشتق من اللفظ اليونانى (فساطن) وهو ايضا مشتق من اللفظ اللاتينى (فاساتوم) الذى كان يطلقه الروم على معسكراتهم الحربية وتؤيد اوراق البردى هذا الرأى ففى أحد الاوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ ٩٠ هـ وفى اخرى مشابهة بتاريخ ٩١ هـ كان اسمكلى (باب اليون) و (الفسطاط) موجودين قبل تأسيس مدينة الفسطاط وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربى (٥)

---

(١) المقريزى : الخطط جا ص ٢٨٦

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩٤

(٣) Fassatum .....

(٤) الجواليقى : المعرب من الكلام الاعجمى ص ٢٤٩ ،ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠

(٥) ابن دقماق : الانتصار ج٢ ص ٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص ٣٢٩

ويرى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى ان كلمة فسطاط كانت شائعة فى ارجاء الامبراطورية البيزنطية بالنسبة للمعسكرات او الحصون وليس فى مصر فحسب • (١)

عروبة مدينة الفسطاط :

ومهما كانت الاراء حول اسم مدينة الفسطاط • وسواء أكان عربيا او اعجمى الاصل فقد اصبحت مدينة الفسطاط بعد انشائها فى عهد عمرو بن العاص عربية تماما • فقد قامت حول جامع عمرو بن العاص الذى اصبح مركزا اسلاميا عربيا تلتف حوله القبائل العربية• (٢)

وكانت خطط القبائل العربية قائمة حول جامع عمرو وعلى مقربة من قصر الشمع (٣) وكانت هذه الخطط تمتد من النيل غربا حتى عين الصيره شرقا ومن جبل يشكر شمالا حتى الشرق وجبل الرصد (٤) جنوبا • (٥) وكانت هذه الخطط بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة • فقيل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة• (٦) وقد اتبع فى تقسيم هذه الخطط نفس النظام الذى اتبع فى تنظيم الجيش العربى القادم مع عمرو بن العاص لفتح مصر فقد كان جيش الفتح يتكون من جنود ينسبون الى قبائل مختلفة تمثل كل قبيلة وحدة مستقلة لكل منها رايتها الخاصة وقد وزع عمرو الخطط على القبائل فكان لكل قبيلة خطة معينة مثل خطة مهره وخطة تجيب وخطة غافق وخطة المعافر•• الخ • وخصص عمرو اربعة من كبار الصحابة للاشراف على عملية توزيع الخطط وهم معاوية بن كديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى المرادى وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشره المعافرى " فكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل ". (٧)

---

(١) مصطفى العبادى : ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربى • مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم) ص٩٤

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٨٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٩٨ — ابن قتيبه : عيون الاخبار جـ٢ ص٤٤

(٤) مكانها الان اسطبل عنتر•

(٥) عبد الرحمن زكى : خطط الفسطاط — مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم) ص٥٧—٥٩

وكانت هناك جماعات قليلة لم يكن لها من العدد ما يسمح بافراد خطة خاصة لها فرأى عمرو ان يفرد لهم خطة مجتمعين ولم تسم باسم احد هم وسميت باسم (خطة أهل الراية) نسبة الى راية عمرو بن العاص. (١) ولم تكن هذه الخطط لجميع الجند العربي ذلك لان عمرو بن العاص كان قد استبقى نصف قواته للاقامة بالفسطاط بينما ارسل فريقا من قواته للمرابطة بالاسكندرية وسائر الثغور المصرية. (٢)

وعلى الشاطئ المواجه للفسطاط اختط العرب مدينة الجيزة وذلك لان " همدان ومن والاها قد استحبت الجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص حصنا بها سنة في المسلمين بامر الخليفة عمر بن الخطاب سنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين ". (٢) وقد ربطت صلات قوية من الجوار والتبادل والتزاوج ما بين سكان الجيزة والفسطاط. (٣)

ولم تقف اعداد السكان العرب بمدينة الفسطاط وغيرها عند الحد الذى كان عند انشاء هذه المدينة بل ازدادت اعداد القبائل العربية باضطراد نتيجة للهجرة او التكاثر ، وكان هناك ديوان خاص لتدوين هؤلاء الجند . فيروى ابن عبد الحكم (٤) : " كان معاوية بن ابى سفيان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا ، فكان على المعافر رجل يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال : ولد لفلان غلام ولفلان جارية . فيقول : سموهم . فيكتبه ويقال : نزل بنا رجل

---

(٦) المقريزى : الخطط ج١ ص ٢٩٦ــ٢٩٧
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ــ ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠ .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٣٨٠ــ القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص ٣٢٦ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٣
(٤) المصدر السابق ص ١٠٢

من أهل اليمن وعيالهم، فاذا فرغ من القبائل كلها اتى الى الديوان حيث يسجل اسماء الطارئين الجدد ليخصص لهم نصيب فى العطاء.

ومنذ بداية تخطيط الفسطاط اصبح لها طابع عربى فيقول المستشرق آدم ميتز : ان مدينة الفسطاط ومكة كانتا على طراز جنوبى الجزيرة العربية شمال مدينة صنعا". (١) وقد كان لبساطة المدينة الجديدة عند تخطيطها ما يبرز المسحة العربية " فقد كان مسجد عمرو بن العاص عند بنائه بسيط البناء مطأطئ السقف ولم يكن بجدرانه شئ من البياض او الزخرف وكانت ارضه مفروشة بالحصباء " (٢) ويمثل الطراز المعمارى لجامع عمرو بن العاص الطراز المشتق من عمارة المسجد النبوى الشريف وقد استوحى عمرو فى تخطيطه وفى العلاقة بينه وبين داره مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وداره بالمدينة. (٣)

وكان التأثر بالبيئة العربية له أثره الفعال فى تخطيط العرب لمدينة الفسطاط " فقد بنى عبدالله بن عمرو داره التى عند المسجد الجامع قصرا على تربيع الكعبة " . (٤) كما ان خارجة بن حذافة كان اول من بنى غرفة بها فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بهدمها حتى لا يطلع على عورات جيرانه. ويقول ابن عبدالحكم (٥) : " وكان العرب حين اختطوا المدينة تركوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لتأديب افراسهم ولم يزل الامر على ذلك حتى ولى معاوية بن ابى سفيان فأقطع هذا الفضاء فبنيت الدور به " كما جعل عمرو بن العاص امام داره الكبرى المواجهة للمسجد مرقفا لدواب الجند ". (٦)

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ٢ ص ٢٦٧
(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٩١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٦٧
(٣) حسن الباشا وآخرون : القاهرة — تاريخها ، فنونها ، آثارها ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .
(٤) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٩٧
(٥) المصدر السابق ص ١٠٠ — ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٦
(٦) ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٧

ومجمل القول ان اختيار موقع الفسطاط قد دل على نظرة صائبة من العرب فقد أثبتت الحفريات انها "قامت على كتلة عظيمة من الصخر تشمل هضابها ووهادا". (١) حتى لا يطغى عليها الماء. (٢) ومن الناحية الحربية كان وجودها على رأس الدلتا قد جعلها فى مأمن من هجمات العدو فيحمى الفسطاط من جهة الشرق جبل المقطم ضد العدو وضد فيضان النيل كما كان لها جانب يمكن ان يضطرد اتساعها منه وهو الشمال فلما احتيج الى الاتساع قامت العسكر ثم القطائع. (٣)

جامع عمرو كمركز لانتشار الاسلام والتعريب :

المسجد هو الموضع الذى يسجد فيه. قال الزجاج : كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. والجامع نعت للمسجد. وانما نعت بذلك لانه علامة الاجتماع. وماكانوا فى الصدر الاول يفردون كلمة (الجامع) وانما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد وطورا يضيفونها الى الصفة فيقولون (المسجد الجامع) او (مسجد الجامع) ويطلق هذا الاسم عادة على المسجد الكبير لانه مكان اجتماع الناس. (٤)

واصبحت المساجد الجامعة أهم مراكز انتشار الاسلام والتعريب والثقافة فى كل الامصار الاسلامية. وقد كان المسلمون يحرصون على بناء المساجد الجامعة عند انشائهم المدن فى الامصار المفتوحة وكان المسجد هو أبرز صورة للتعبير عن سيادة الدين الاسلامى وأبلغ رمز للتعبير عن وحدة المسلمين فى تلك الامصار. (٥)

---

(١) على بهجت وألبير جبرائيل : كتاب حفريات الفسطاط ص٣٩

(٢) ناصر خسرو سفر نامة ص١٤٦

(٣) عبد الرحمن زكى / الفسطاط وضاحيتاها القطائع والعسكر ص٥

(٤) المقريزى : الخطط ج٢ ص٤٠٨

(٥) الخربوطلى : العرب والحضارة ص٩٠١٥

وتقول الرواية التاريخية : " لما افتتح عمر البلدان كتب الى ابي موسى وهو على البصرة يأمره ان يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة وكتب الى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك . وكتب الى امراء اجناد الشام ان لايتبدوا الى القرى وان ينزلوا الى المدائن وان يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا وألا تتخذ القبائل مساجد فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ". (١)

وفي مدينة الفسطاط كان المسجد الذى اتخذه المسلمون للجماعة هو مسجد عمرو بن العاص ،وهو أول مسجد "اسس بديار مصر في الملة الاسلامية بعد الفتح ". (٢) وكان الفاتحون قد استقروا على انشائه بمدينة الفسطاط بعد مشاورات . وأصبح يسمى بمسجد عمرو بن العاص او المسجد الجامع . او المسجد العتيق او تاج الجوامع وكان بناؤه سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) (٣) وقد شيد على الشاطىء الشرقي للنيل من الناحية الشمالية وكان حوله حدائق وكروم . (٤) وكانت المسافة بينه وبين شاطىء النهر حوالى مائتي متر . (٥) وكان الذى حاز موضعه هو قيسبة بن كلثوم التجيبي احد بني سوم وكان قد نزله خلال حصار حصن بابليون فلما عاد العرب من فتح الاسكندرية سأل عمرو قيسبة ان يقيم المسجد مكان منزله فتصدق به قيسبة . (٦) وقد وقف على قبلته من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر ثمانون رجلا . وقد كان المسجد في بداية انشائه بسيط البناء وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . (٧) ولم يكن

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٢٤٦ ـ السيوطي : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٤٩

(٢) ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٥٩ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٢٤٦ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٦٢

(٣) ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٥٩ ـ السيوطي : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٣٢ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ١ ص ٧٢

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ـ ٩٢ ـ ابن سعيد : المغرب جـ١ ص ٤

بجدرانه شيء من الزخرف او البياض وفرشت ارضه بالحصباء وكان الطريق يطيف به من كل جهة، " فقد جعل له عمرو ستة ابواب في الجهة الشرقية المواجهة لداره بابان ومثلهما في الجهة البحرية (الشمالية) وبابان في الجهة الغربية وكان سقفه مطاطأ جدا ولاصحن له فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية ". (١)

ويمثل جامع عمرو اقدم الطرز المعمارية لبناء المساجد واهمها ـ وهو الطراز المشتق من عمارة الحرم النبوي الشريف اي طراز الجامع الذي يتألف من صحن مربع او مستطيل يحف به من جوانبه الاربعة أروقة اعمقها رواق القبلة وقد استوحى عمرو في تخطيطه رقى العلاقة بينه وبين داره مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وداره بالمدينة. (٢) وحظي جامع عمرو بعناية ورعاية الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر فقد تولوه بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف مساحة المسجد العتيق ستة عشرة مرة ، وقد ثبت تاريخيا واثريا انه لم يتبق غير قليل من عمارة المسجد العتيق وزخرفتملان معالم المسجد المعمارية والزخرفية قد اندثر معظمها. (٣)

---

(٥) المسافة الان بين الجامع والنيل حوالي خمسمائة مترا نتيجة تغيير مجرى النهر (فريد شافعي : العمارة العربية في مصر ، عصر الولاة ، جـ١ ص٣٦٣)

(٦) المقريزي : الخطط جـ١ ص٢٨٦ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٦٧

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٩١ ـ ابن سعيد : المغرب جـ١ ص٤ ـ ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٨٩٨

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٣ ص٣٤١ ـ المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢٤٧

(٢) حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، تاريخها ، وفنونها ، وآثارها ص٤٠٤

(٣) احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) جـ١ ص٧٣ ـ ٧٧

وكان لجامع عمرو اهمية كبيرة ، فقد كان ثالث مسجد اقيم فى الاسلام ، اذ ان اول المساجد هو مسجد البصرة الذى أنشىء سنة ١٤ هـ (٦٣٥م) [١] وكان مسجد الكوفة هو ثانى المساجد فى الاسلام [٢]، ونظرا لاهمية جامع عمرو بن العاص فقد كانت اصلاة الجمعة تقام به حتى بعد انشاء جامعى العسكر واحمد بن طولون . [٣]

ولم تقتصر اهمية جامع عمرو بن العاص على اداء الشعائر الدينية فحسب بل كان هذا الجامع كغيره من المساجد الجامعة فى الامصار الاسلامية دار عبادة ، ومركزا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وقام جامع عمرو بدور كبير فى التعريب ونشر الثقافة العربية وفى هذا الجامع كانت مجالس القضاء تعقد فى الجهة البحرية الشرقية وكان يخصص لقاضى القضاة بها فى كل اسبوع مرتين . [٤]

وشهد جامع عمرو بن العاص حياة علمية زاهرة ، فقد كان هذا الجامع مركزا للثقافة والمعارف الاسلامية وشهد نهضة أدبية عظيمة ، شاركت فى المسار العلمى والحركة الثقافية فى سائر الامصار الاسلامية وشهد جامع عمرو حلقات العلماء الذين اشتهروا بالاجتهاد والاستنباط فكان لكل عالم مجلسه الخاص الى جانب عمود من أعمدة المسجد حيث يلتف حوله طلابه فيلقى عليهم دروسه فينصتون اليه أو يدونون ما يسمعونه منه ، وكان مجلس العالم يتوارثه تلاميذه من بعد وفاته . [٥] وقد حدث بعد وفاة الامام الشافعى ان صارت حلقته الى تلميذه يوسف بن يحيى البويطى [٦] وكان هناك موضع مشهور فى جامع

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨
(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٤٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٣
(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٥٣
(٥) The Encycl. of Islam. (Art Masjid) Vol.3, P.365
(٦) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ٤ ص ٧

عمرو باسم مجلس ابن عبد الحكم " ومن نظر فيه رأى جميع الجامع من أوله الى آخره" (١)
وينسب المجلس الى عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكى المتوفى سنة ٢١٤هـ.

وقد تعددت الحلقات العلمية بجامع عمرو بن العاص مثل غيره من الجوامع فى سائر الامصار الاسلامية وهى الطريقة السائدة فى التعليم فى الفترة المبكرة من تاريخ الدولة الاسلامية. وقد صار للجلوس فى هذه الحلقات العلمية والتصدى للفتيا او التدريس قداسة وشروط معينة. فقال الماوردى : (٢) " وأما جلوس العلماء والفقهاء فى الجوامع والمساجد والتصدى للتدريس والفتيا ، فعلى كل واحد منهم زاجر من نفسه ان لا يتصدى لما ليس له بأهل ، فيضل به المهتدى ويزل به المسترشد. . . ".

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٧٤
(٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٨٨

٤ـ انتشار الاسلام فى مصر وأثره فى التعريب

لم يعرف المصريون من القبط واليهود وغيرهم الدين الاسلامى ولا اللغة العربية قبل الفتح العربى لبلادهم وانما جاءت معرفتهم لهما مصاحبة لاحداث الفتح نفسها . وكانت هذه الاحداث اول فرصة للمصريين ليعلموا شيئا عن الاسلام واللغة العربية . والواقع ان شأنهم فى ذلك كان شأن بقية سكان البلاد التى فتحها العرب المسلمون . ولعل ذلك هو الذى حدا ببعض الكتاب المحدثين ان يقول : " ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصين يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما فى الديانة المسيحية ولو انه كان للاسلام اناس يقوامون لسهل علينا معرفة السبب فى تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شرلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب . بعد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التى كان يصلى بها الامم حربا تجعل الولدان شيبا . ولكنا لا نعلم للاسلام مجمعا دينيا ولا رسلا واحبارا وراء الجيوش ولا رهينة بعد الفتح فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان . بل دخل القلوب عن شوق واختيار . وكان نتيجة ما أودع فى القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب . نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من اسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح وكان ذلك من اسهل الامور لبساطة الدين وكفاية المنطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين . (١)

وقد لمسنا فى دراستنا لموقف سكان مصر من الفتح العربى ان العرب لم يجبروا احدا ولم يضطروه الى ترك دينه المسيحى او اليهودى . واعتناق الاسلام ولا غرو فى ذلك فقد جاء فى القرآن الكريم (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) . (٢)

---

(١) دى كاسترو : الاسلام خواطر وسوانح ص٤٤ـ٤٥ ـ القاهرة ١٣١٥هـ = ١٨٩٨م .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

وقال سبحانه وتعالى ايضا : (ولو شاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) • (١) وغير ذلك من الايات القرآنية التى تفيد هذا المعنى وتحث على الدعوة الى الاسلام بالحسنى وعدم الاكراه عليه• وقد لاحظنا ان عمرو بن العاص وجنده المسلمين كانوا اثناء الفتح يخيرون المصريين بين امور ثلاثة : الاسلام أو الجزية أو القتال•

والحقيقة ان الاسلام وجد طريقه بسرعة الى قلوب المصريين • منذ ان وضع العرب اقدامهم فى مصر • فقد اقبل كثير من المصريين على اعتناق الاسلام وترك اديان الاباء قبل ان يتم العرب عمليات فتح مصر• وتشير بعض المصادر التاريخية المعاصرة لاحداث الفتح العربى لمصر الى اعتناق بعض المصريين الاسلام وانضمامهم الى صفوف المسلمين بل والاشتراك معهم فى اتمام فتح البلاد المصرية• كما كان هؤلاء المتحولون الى الاسلام يستولون على املاك المصريين المحتفظين بدينهم والذين كانوا يتركون ديارهم واراضيهم ويفرون من وجه العرب• ونذكر من هؤلاء الذين اسلموا يوحنا احد رهبان دير سيناء وكان ملكانى المذهب فترك الدير واعتنق الاسلام وحمل السلاح الى جانب المسلمين• بل كان يشتد على المسيحيين من الملكانيين او القبط اليعاقبة• (٢)

كما اعتنق الاسلام بعض كبار رجال القبط واستمروا يتولون مناصب بارزة فى ادارة البلاد بعد اتمام الفتح (٣) وكانت هذه فى الغالب سياسة عمرو بن العاص التى تتضمن ترك الامور فى ايدى سكان البلاد المفتوحة سواء من اعتنق منهم الاسلام او من بقى على دينه•

---

(١) سورة يونس آية ٩٩

(٢) Chronique de Jean. PP. 440 , 465.

(٣) Hardy: Christian Egypt; Church and People. P.189

ونلاحظ ان المصادر التاريخية لم تشر الى موقف اليهود القاطنين فى مصر من الدين الاسلامى اثناء الفتح العربى وبعد اتمام الفتح ونحن نرى انه قد يكون ذلك راجعا الى قلة عدد اليهود فى مصر الى جانب ان اقبالهم على ترك دينهم اليهودى والتحول الى الاسلام كان ضعيفا جدا آنذاك مما لم يسترع انتباه المؤرخين•

انتشر الاسلام فى مصر انتشارا واسعا اذ كان اقبال القبط — بصفة خاصة — على اعتناق الاسلام وترك دينهم المسيحى يتزايد تدريجيا كلما تقدم العهد بالعرب فى مصر حتى صار من بقى منهم على دينه المسيحى قليل العدد بعد ان كان لهم الاغلبية العددية بين المصريين. ونلاحظ ان الاقبال على اعتناق الدين الاسلامى كان على نطاق واسع فى عصر الولاة عنه فى عصر الدول المستقلة — اى الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية — التى اصبح القبط فيها اقلية ولكن لها اهميتها وكيانها فى المجتمع المصرى.

ونلاحظ ايضا ان المصادر التاريخية المختلفة قلما تشير الى اعتناق اليهود للدين الاسلامى وتركهم دينهم اليهودى اللهم الا فى عصر الخلفاء الفاطميين وبصفة خاصة فى عهد الخليفة الحاكم بامر الله وان كان عدد من اقبل منهم على التحول عن دينه الى الاسلام كان ضئيلا بالنسبة الى عدد القبط المتحولين الى الدين الاسلامى.

ومع ذلك نجد فترات معينة ازداد فيها التحول الى الاسلام اكثر من غيرها وكان ذلك فى الواقع نتيجة عدة اسباب وتحت تأثير ظروف معينة ناشئة عن سياسة الخلفاء او سياسة ولاتهم الذين يمثلون اتجاهات الخلفاء. ونحن نرى ان ابرز العوامل التى كانت تشجع اهل الذمة على ترك دينهم واعتناق الاسلام وكانت الاعباء الاقتصادية او بمعنى آخر ما كان يلتزم به الذمى من الاعباء المالية وفى مقدمتها الجزية.

ويبدو ان الجزية كانت موردا من اهم الموارد المالية للدولة الاسلامية فى مصر فى عصر الولاة بصفة خاصة. ومن ثم كان كثير من اهل الذمة يرغب فى الخلاص من هذا العبء المادى عن طريق ترك دينه واعتناق الاسلام اذ كان فى الغالب من يعتنق الاسلام يعفى من اداء الجزية. ويدل على ذلك تناقص مقدار جباية مصر تدريجيا مع تقدم الحكم الاسلامى فيها. (١) وان كنا فى الوقت نفسه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٥٩ ١ — ١٢٠

لا يمكننا ان نحصى عدد من كان يتحول الى الاسلام فى عصر كل والى او خليفة، تخلصا من اداء الجزية لان المصادر التاريخية كثيرا ماتذكر جباية مصر شاملة للجزية والخراج معا • وذلك الى جانب ان احصاء اسكان مصر من المسلمين او القبط او اليهود لم يكن يتم دائما فى مصر الاسلامية ولم نسمع عن احصاء كامل لسكان مصر وكل ما هنالك احصاء الرهبان فى عصر الولاة الامويين، (١) او احصاء القبط (٢) وايضا احصاء اليهود فى اواخر عصر الدولة القاطمية، (٣) ونلاحظ ان هذا الاحصاء كان يتم فى عصور مختلفة ومتباعدة •

٢

ونستدل على ذلك ايضا من ان الجزية لم تعد موردا اساسيا من الموارد المالية للبلاد فى عصر الامراء الطولونيين ومن جاء بعدهم من الحكام المسلمين وذلك لتناقص عدد من كان يؤديها آنذاك عما كانوا عليه فى عصر الولاة • فقد صار اهل الذمة أقلية قليلة فى ذلك العصر وصار اهتمام الامراء اكثر بخراج الارض وشئون الزراعة كمورد اساسى لمالية الدولة، (٤)

والى جانب الدافع الاقتصادى كانت هناك دوافع اخرى يضطر امامها اهل الذمة احيانا الى ترك دينهم واعتناق الاسلام وهى ماكان يتعرض الذميون له من المضايقات والزامهم بعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم بل والزامهم بانواع معينة من الملابس او منعهم من ممارسة بعض عاداتهم وطقوسهم الدينية وغير ذلك من سبل التضييق والعسف بهم فى بعض الفترات مما كان يؤدى الى اسلام الكثير منهم تخلصا من هذه المضايقات، وكان ذلك يحدث فى الواقع فى فترات محدودة وهى الفترات التى اشتد فيها بعض الخلفاء فى تطبيق احكام الاسلام بشأن اهل الذمة نضيف الى ذلك ان بعض الذميين كان يترك دينه المسيحى او اليهودى ويعتنق الاسلام طمعا فى بعض المناصب الرئيسية فى ادارة البلاد ـ كما سنرى ـ ولكن هناك كثير من اهل الذمة يقبلون على اعتناق الاسلام اعجابا بتعاليمه الرشيدة •

---

(١) قام بهذا الاحصاء لاول مرة الاصبغ بن عبدالعزيز، ثم قام به من بعده اسامة بن يزيد ـ انظر ابن المقفع سير الاباء البطاركة م ٢ جـ٢ ص ١٤٢ ـ ١٥١

(٢) قام به الوليد بن رفاعة فى خلافة هشام بن عبدالملك وقضى فى ذلك تسعة اشهر فوجد اكثر من عشرة الاف قرية فى كل منها خمسمائة قبطى • انظر ابو صالح الارمنى ص٣٥ السيوطى حسن المحاضرة جا ص ١٤٦ ـ ١٤٧

(٣) The Irinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, T.l. PP. 146, 147, 149, 154, 158, 159.

وتحدث سيرتوماس ارنولد (١) عن تحول الكثير من القبط الى الاسلام .
فقال ان هؤلاء القبط فى الحقيقة قد تركوا دينهم المسيحى بنفس السهولة والسرعة
التى اعتنقوه بها فى مستهل القرن الرابع الميلادى ويرى فى الوقت نفسه ان سرعة
انتشار الاسلام فى السنوات الاولى للعرب فى مصر كان من بين اسبابها عجز ديانة
كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء اكثر من ان تكون راجعة الى الجهود
الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الاهلين الى الاسلام . وان اللاهوتى
لبقاء اليعقوبيين طائفة منفصلة والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ
وقتا طويلا ودفعوا ثمنا غاليا فى هذا السبيل قد اجتمعت فى عقائد كانت
صيغتها اشد ماتكون غموضا وابهاما من الناحية الميتافيزيقية ولا شك ان كثيرا
من هؤلاء قد تحولوا وقد اخذت الحيرة منهم كل مأخذ . واستولى على نفوسهم
الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم الى عقيدة
تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد بل اننا نجد فى
داخل الكنيسة القبطية نفسها فى عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة ان لم تكن
اسلامية خالصة فقد كانت على الاقل وثيقة الصلة بها وربما ساعد عدم وجود اى نظام
كنسى مستقل . ويجد طريقه لايضاحه والتعبير عنه على زيادة الذين دخلوا
فى الاسلام . (٢)

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ — ويزيد على ذلك انه قبل هذا القرن
اى القرن ٧ م كان عدد مسيحى وادى النيل قليل . ولكن ماتعرض له
الشهداء من اضطهادات دقليانوس وماتم على يد هؤلاء الشهداء من
معجزات فى ذلك العصر والشعور القومى الذى اثارته روح المقاومة لاوامر
الحكومة الاجنبية الى جانب ما اعطوه من الضمانات بان جنة النعيم
قد فتحت ابوابها لكل شهيد مات على ايدى معذبيه . كل هذا قد
اثار فى نفوسهم حماسا ادى الى سرعة انتشار الدين المسيحى بصورة
لايكاد يصدقها العقل وبدلا من ان ينتصر المصريون عن طريق التبشير
او كغيرهم من اهالى بلاد المشرق نراهم ينتحلون المسيحية فى
غمرة من الحماسة الجامحة دون ان يتلقوا اى شئ من التبشير او التعليم
عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذى خلع حياة من السعادة
الابدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده .

(٢) سير توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٢٥ — ١٢٦ .

ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنق الاسلام عن رغبة شديدة وبدون دوافع مادية او اجتماعية وانما مالوا الى الانتماء الى هذا الدين لما لمسوه فيه من دعوته الى السلام والمساواة والعدل وغير ذلك من الخصائص السامية التي يتضمنها الدين الاسلامي .

ومما لاشك فيه ان قدوم القبائل العربية المتوالي الى مصر واستيطانهم المدن والقرى المصرية واندماجهم مع المصريين واختلاطهم بهم كان له اثره ايضا في انتشار الاسلام بين المصريين . ويجدربنا هنا ان نشير الى الفترات التي اشتد فيها التحول الى الدين الاسلامي طوال تاريخ مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية (٢٠ـ٥٦٧هـ = ٦٤١ـ١١٧١م) .

لاشك ان ما قام به الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ـ عندما عهد اليه ابوه عبد العزيز امير مصر آنذاك بولاية الخراج من احصاء الرهبان في جميع انحاء البلاد المصرية والزامهم بأداء الجزية لاول مرة في الاسلام ومنع قبول رهبان جدد والزام الاساقفة بأداء الفى دينار الى جانب خراج كنائسهم المعتاد وما كان يقوم به الى جانب ذلك من اعمال الشدة والعنف ازاء القبط . [1] كل ذلك ادى الى اعتناق كثير من القبط الدين الاسلامي حتى ينعموا بما ينعم به المسلمون ويتخلصون من سياسة الاصبغ واعوانه نحوهم . وتقول في ذلك الرواية القبطية : " واضطر جماعة الى ان اسلموا ومن جملتهم بطرس والى الصعيد واخوه تاوداوا وولده تاوفانس مقدم مريوط وجماعة كهنة وعلمانيين لايحصوا من كثرتهم ". [2]

وأسلم نفر كثير من القبط في ولاية عبد الله بن عبد الملك الذى اساء الى اهل الذمة وألزم بطرك القبط بغرامة مالية كبيرة كما ضيق على الاساقفة

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٤٣ ـ ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٨ـ٢٩ . الراهب البراموسى : حسن السلوك في تاريخ البطاركه والملوك جـ١ ص ٢٣١ ـ الانبا ايسيذورس : الخريدة النفيسة جـ٢ ص ١١١

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص ١٤٧ ـ ايضا الراهب البراموسى حسن السلوك جـ١ ص ٢٣١ ـ الانبا ايسيذورس : الخريدة النفيسة جـ٢ ص ١١١

والرهبان وزاد الخراج وعمد بصفة عامة الى ابتزاز الاموال من القبط بكل وسيلة ممكنة والحق بهم كثير من الضرر والأذى (١) ولعل الكثير منهم فضل التحول الى الاسلام حتى يتخلص من هذه المضايقات .

ومن الفترات التى اشتد فيها التحول ايضا الى الاسلام ولاية اسامة بن زيد لخراج مصر فى عهد الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك فقد اشتد هذا الوالى فى جباية الجزية والخراج وأمر عماله فى مختلف الاقاليم الا يتوانوا فى جمع الضرائب على اختلافها . (٢) ولا شك ان ذلك كله ادى الى اسلام كثير من القبط تخلصا من الاعباء المالية فى ذلك العصر يضاف الى ذلك ان هذا الوالى قد تشدد فى مراقبة حركة الهروب التى لجأ اليها القبط لعلهم يجدون الخلاص من الضرائب المختلفة بهروبهم من مكان الى اخر وهدد من يأوى غريبا فى الكنائس والاديرة والفنادق كما الزمهم بحمل جوازات سفر تسمح بانتقالهم من مكان الى آخر داخل البلاد المصرية وعمل احصاء جديدا للرهبان وامر بوسمهم ومنع الترهب لمن يرغب فيه فى ذلك الوقت. (٣) كل ذلك كان من مظاهر التشدد فى جباية الجزية والخراج وغيرهما من الضرائب. وكان طبيعيا ان ينتج عن هذه السياسة المضيقة تحول كثير من القبط عن دينهم واعتناقهم الاسلام دين الدولة.

وانتقى كثير من القبط الدين الاسلامى فى عهد الخليفة الاموى عمر بن عبد العزيز فقد اصدر اوامره فى جميع ارجاء الدولة الاسلامية بمنع استخدام اهل الذمة فى الحكم وشئون الادارة وتقول الرواية القبطية انه كتب الى عماله على مصر :

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٤٥ — و
Fowler: Christian Egypt. P. 58.

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٥١—١٥٢

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٥١—١٥٢—ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٦٩—المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣٩٥

" من اراد ان يقيم فى حالة وبلاده ، فيكون على دين محمد مثله ومن لا يريد يخرج من اعماله " . ونتج عن ذلك ان تخلى القبط عن الاعمال وحل محلهم موظفون مسلمون . ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم ... " . (١)

ولا شك ان ذلك دفع كثيراً من القبط الى ترك دينهم واعتناق الاسلام ليحتفظوا بما يتولونه من وظائف واعمال .

كذلك شجع الخليفة عمر بن عبد العزيز الذميين على التحول الى الاسلام ، حينما اعلن فى جميع الامصار الاسلامية ومنها مصر ان من يعتنق الاسلام يعفى من اداء الجزية ولا شك ان الخلاص من هذا العبء المادى أدى الى اسلام كثير من اهل الذمة مما أضر بمالية الدولة . وكتب والى مصر آنذاك حيان بن سريح الى عمر بن عبد العزيز يقول : " اما بعد ، فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار وتممت عطاء اهل الديوان ، فأن رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل " وهكذا اراد هذا الوالى الا يرفع الجزية عمن يعتنق الاسلام من اهل الذمة ولكن الخليفة منعه من ذلك ، وكتب اليه : " .. ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر احقر من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه " . (٢)

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ ج٢ ص ١٥٢ - ١٥٣
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٢ - طبعة تورى : المقريزى : الخطط ج١ ص ١٢٥ - وتشير بعض المصادر الى ان هذا الخليفة امر رسوله الى مصر بضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطا ادبا له على قوله انظر : ابن النقاش : المذمة فى استعمال اهل الذمة ورقة ٨٣ ، مخطوط .

وكان حفص بن الوليد الحضرمي من اكثر الولاة المسلمين رغبة في تشجيع اهل الذمة على اعتناق الدين الاسلامي ويقول ساويرس [(١)] : " وقد اعلن حفص ان كل من يتخلى عن دينه ويصير مسلماً لا يؤخذ منه بعد جزية لانها كانت على الناس كلهم ولاجل هذه الخصلة اضل الشيطان خلايق فتخلوا عن دينهم ومنهم من اكتتب وصار من العسكريين" و نستخلص من هذه الرواية ان الزام الذمى الذى يعتنق الاسلام بأداء الجزية قد لجأ اليه ولاة مصر بعد عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى امر باعطاء من اسلم من اهل الذمة من الجزية. فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر رأى تشجيع الذميين على التحول الى الاسلام عن طريق هذا الدافع المادى. فكان لذلك اثره الكبير واعتنق الاسلام في عصره عدد كبير من القبط اذ بلغ عددهم حوالى اربعة وعشرين الف قبطياً [(٢)]

ويبدو ان سياسة رفع الجزية عمن يعتنق الاسلام من اهل الذمة لم تستمر طويلا بعد حفص بن الوليد . والدليل على ذلك ما أعلنه الخليفة العباسى ابو العباس السفاح من اعفاء من يسلم من اداء الجزية في جميع البلاد الاسلامية ومنها مصر . وتقول في ذلك الرواية القبطية " وكتب عبد الله الملك ـ اى السفاح ـ الى جميع مملكته ان كل من يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بغير جزية . فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الفقراء والاغنياء دين المسيح وتبعوه ". [(٣)] وهكذا كان الدافع المادى في عصر الولاة الامويين والعباسيين اقوى الدوافع المشجعة على انتشار الاسلام بين اهل الذمة في مصر.

ولا شك ان الثورات العديدة التى قام بها القبط في عصر الولاة الامويين والعباسيين (في الفترة ما بين سنتى ١٠٧ ، ٢١٦ هـ) والتى كان ينجح الولاة المسلمون في القضاء عليها بسرعة كان يتبعها غالبا تحول كثير من القبط عن دينهم واعتناقهم الدين الاسلامي حتى ينعموا بالهدوء والامن وللخلاص من اداء الجزية وما قد يتعرضون له من المضايقات التى تضمنتها سياسة بعض الولاة المسلمين

---

(١) سير الاباء البطاركة م ١ جـ ٢ ص ١٧٢
(٢) نفس المصدر ص ١٧٣
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

فى ذلك العصر . وقد بلغ انتشار الاسلام مداه بعد ثورة البشموريين فى سنة ٢١٦ هـ فى عهد الخليفة العباسى المأمون . وكانت هذه الثورة اخر ثورات القبط فى عصر الولاة بل وفى عصر الدول المستقلة ايضا اذ اصبح المسلمون بعدها اغلبية بعد ان اسلم عدد كبير من القبط يقول المقريزى [1] . ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع ارض مصر ولم يقدر احد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى فرجعوا من المحاربة الى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين وعملوا كتاب الخراج ".

وتعلق السيدة تبشر [2] على اخماد ثورة البشموريين وما نتج عنها من تحول الكثيرين من القبط الى الاسلام فتقول ان انطلاق يد المسلمين فى القبط وكنائسهم يلحقون بهم الاذى ويعتدون على كنائسهم وما فيها من الاوانى والادوات كان مما اضطر كثير من القبط الى اعتناق الدين الاسلامى رغبة فى الخلاص . ومن ذلك الحين تناقص عدد القبط كثيرا وصار العرب يسكنون القرى ويعملون فى الاراضى التى كانت فى يد القبط من قبل . وزاد عدد المسلمين كثيرا وقويت شوكتهم عما كانوا عليه من قبل .

وحدث فى خلافة المأمون العباسى ان قاضى مصر محمد بن عبدالله كان يستدعى اليه غلمان البطرك القبطى انبا يوساب ويضطرهم الى ترك المسيحية واعتناق الاسلام [3] كما شهدت خلافة المتوكل العباسى اسلام كثير

---

(١) الخطط جـ٤ ص ٣٩٦

(٢) تاريخ الامة القبطية م ٢ ص ٢٢٤ — الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٤٧٩

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ . وقال للبطرك لا يجوز لك ان تقاوم امر الملوك وتدوس اوامرهم . ولا يجوز ان تستبق هؤلاء الصبيان وتنصرهم " فاجابه انبا يوساب : انا ما اقاوم امر الملك ولا اقاوم كلمة صالحة بل ماكان من كلام الظلم . ثم قال له " انت عارف بان كل من يقدمك ماكان يلزم مثل هؤلاء الذين هم نصارى باسلام لانهم يقدموا للبيع هدايا وهؤلاء من عند الملك الحبشة والنوبة والروم جاءونى هدية " ولكن القاضى لم يستجب لذلك وارغم الغلمان على اعتناق الاسلام واعلم البطرك بذلك وانه لم يعد له صلة بهم ".

من أهل الذمة وخاصة من القبط لان عمر هذا الخليفة وكان حافلا بالتضييق على الذميين والزامهم ببعض الاحكام فقد اضطر هذا الخليفة اهل الذمة الى عدم التشبه بالمسلمين في لباسهم وان يلتزموا بملابسهم الخاصة بهم كما حرم عليهم ارتداء اللون الابيض بل امر ان تكون ثيابهم مصبوغة بألوان مختلفة كما أمر ان يعلق كل من القبط واليهود صورا مفزعة على ابواب دورهم حتى يسهل التمييز بينهما وبين دور المسلمين. (١) كما امر ولاته على الاقاليم المختلفة بعدم استخدام غير المسلمين في شئون الادارة والحكم الا من يترك دينه ويعتنق الاسلام. (٢) وانزال نائبه في مصر عبد المسيح بن اسحق كثيرا من الاذى بالقبط واضطرهم الى اخفاء علامة الصليب بل امر بكسر جميع الصلبان في الكنائس والاديرة. ومنع القبط من اظهار الصليب اثناء سيرهم في الطرقات كما امر القبط بألا يجهروا بصلواتهم كما حرم عليهم الصلاة على موتاهم ومنعهم من ضرب النواقيس كما منع بيع النبيذ في جميع البلاد المصرية حتى صار لا يوجد خمر يرفع به القداس. (٣)

وقد ادت هذه المضايقات كلها في الملبس والمسكن وفي اداء الطقوس الدينية الى تحول كثير من القبط الى الدين الاسلامي. وتقول بعض المصادر القبطية " ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى انهم انكروا السيد المسيح فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحبتهم فيه واخرين لما لحقهم من الفقر ". (٤) ويعزو ابن المقفع (٥) الى هذه السياسة اسلام من اسلم من القبط في ذلك العصر. فنراه يقول " بهذه الاسباب يخرجون من اديانهم قوما كثيرا ماصبروا ولاتوكلوا على الههم وانكروا اسم المخلص في تلك الايام الشديدة ونسوا ما قاله في الانجيل المقدس والذى يصبر الى التمام فهو يخلص ويكرز بهذا الانجيل ".

---

(١) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص٢٣ — ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ جـ١ ص ٤ — ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص ٢٨٥

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ١ ص ٤ — ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص٢٨٥ وقد اشرنا الى هذه المضايقات بالتفصيل فيما سبق.

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ١ ص ٤—٥

(٤) نفس المصدر ص٤

(٥) نفس المصدر ص٤

نذكر ممن اسلم فى ذلك العصر اصطفن بن اندونه واولاده . وقد اخذ هؤلاء بعد اسلامهم يرمون القبط بكل سوء ويقولون عنهم مايحط من شأنهم . وكان اصطفن بن اندونة كثيرا مايقول ـ بغرض اضعاف روح القبط المعنوية ودفعهم الى الاسلام " ان النصارى قبل هذا اليوم لايلبسوا ثيابا لها اكمام بل يلبسوا ثيابا بغير اكمام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعوهم اباؤهم فاذا كان الاباء تلبس هذا اللباس بالاحرى ان تكون اولادهم مثلهم .. (١) وهكذا كان انتشار الاسلام بين القبط يتزايد تدريجيا ويقل عدد القبط من عصر الى آخر كما نلاحظ ان من كان يمتنق الاسلام منهم قد انحاز الى جانب المسلمين وعمل على اضعاف معنويات القبط . والحط من شأنهم .

ومن العصور التى كثر فيها اقبال القبط على التحول الى الدين الاسلامى عهد والى خراج مصر احمد بن محمد بن مدبر . ذلك لانه تشدد كثيرا فى جباية الجزية والخراج وفرض ضرائب كثيرة على المصريين وضاعف عليهم الجزية والخراج وقد تعرضنا لذلك فى الفصل الخاص بالجزية والخراج وغيرها من الضرائب التى التزم بأدائها اهل الذمة فى مصر الاسلامية ـ فبعد ان كانت جزية قبط مصر الف دينار زاد عليها حتى صارت ستة الاف دينار . حتى ان الانسان الفقير الذى يعجز قوته يأخذ منه فى كل سنة خمسين درهما حتى ضجت اهل مصر واعمالها من عظيم هذا العذاب وجحد كثير من النصارى لاجل قلة ما بأيديهم من الدراهم ". (٢)

وهكذا تتابعت موجات الداخلين فى الاسلام من القبط وشهد النصف الاول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) انتشارا واسعا للاسلام فى مصر حتى اذا كانت امارة احمد بن طولون على مصر فى سنة ٢٥٤ هـ كان اكثر مسيحى مصر قد تحولوا الى الاسلام وصار المسلمون يكونون الاغلبية العظمى بين سكان مصر وصار اهل الذمة اقلية قليلة . ومن ثم اخذت الصبغة الاسلامية نتيجة

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ١ ص ٢
(٢) نفس المصدر ص ٢٧ ـ ٤٤

لذلك تشكل المجتمع المصرى وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد وفى الحياة الاجتماعية بصفة عامة. (١) واكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك تضاؤل حصيلة الجزية فلم تعد بابا اساسيا من ابواب الدخل فى مصر منذ العصر الطولونى الى جانب اختفاء ثورات القبط التى كانت من مميزات عصر الولاة الامويين والعباسيين.

ويؤكد ذلك ما أشار اليه المقريزى (٢) من انحطاط جباية مصر فبعد ان كانت فى امارة عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار وفى ولاية خلفه عبد الله بن سعد بن ابى سرح اربعة عشر مليون دينار انحطت كثيرا عن هذا المقدار حتى وصلت الى ما يتراوح بين ثلاثة واربعة مليون دينار فى القرن الثالث الهجرى وكان ذلك دليلا على تناقص عدد اهل الذمة الذين يؤدون الجزية وصارت موارد البلاد تعتمد الى حد كبير على خراج الارض الذى كان يؤديه الذمى المحتفظ بدينه والذمى الذى اعتنق الاسلام ايضا. وتطور نظام جباية الخراج فى مصر واتبع نظام قبالات الاراضى وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحول كثير من اهل الذمة الى الاسلام وانتشار المسلمين فى القرى المصرية واشتغالهم بالزراعة الى جانب القبط المحتفظين بدينهم وما حدث نتيجة لذلك من اختلاط العرب بالقبط وما كان يتم بينهم من تزاوج. (٣)

ولا يعنى ذلك توقف تحول من بقى من اهل الذمة الى اعتناق الاسلام فى العصور المتتالية. ومما لاشك فيه ان العصرين الاخشيدى والفاطمى قد شاهدا اعتناق كثير من اهل الذمة الدين الاسلامى. ففى عهد الامراء الاخشيد بين تحول

---

(١) حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية " العصر الطولونى " ص ٥٤ و

Zaki Hassan: Les Tulunides. P.216

(٢) الخطط جـ١ ص ١٥٩

(٣) الخطط جـ١ ص ٢٣١

عدد من اهل الذمة الى الاسلام وترك دينه اليهودى او المسيحى طمعا فى تولى بعض الوظائف الكبرى وخاصة الوزارة. ونذكر ان اشهر هؤلاء هو ابو الفرج يعقوب ابن يوسف بن ابراهيم بن كاس وكان يهوديا . ولد ببغداد . ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب ،ثم سافر مع ابيه الى بلاد الشام ومنها رحل الى مصر فى سنة ٣٣٠ هـ وفى مصر تطور امر ابن كلس ولمع نجمه واتصل بخواص كافور الاخشيدي وما لبث كافور ان قربه اليه . لنجابته وحسن سياسته واجلسه فى ديوانه الخاص . وبدأ مركز ابن كلس يسمو يوما بعد يوم حتى صار له الامر والنهى . (١)

وأراد كافوران يعهد الى ابن كلس بالوزارة الا ان دينه اليهودى حال بينه وبين تحقيق ذلك فبادر ابن كلس الى ترك دينه اليهودى واعتناق الدين الاسلامى وتولى الوزارة فى سنة ٣٥٦ هـ. وقرأ القرآن وصلى فى المسجد الجامع ورتب رجلا من اهل العلم بالقرآن وعلوم اللغة العربية ليتتلمذ على يديه ولكن ما لبث ان دب الخلاف بين ابن كلس وبين الوزير القائم آنذاك ابى الفضل جعفر بن الفرات فأسرع ابن كلس الى الفرار الى بلاد المغرب حيث يحكم الخلفاء الفاطميين قبل فتحهم لمصر. (٢)

ثم عاد ابن كلس الى مصر بعد الفتح الفاطمى وقد لعب ابن كلس دورا له شأنه فى سياسة البلاد فى هذا العصر ونحن نرى ان كثيرا من اهل الذمة قد اعتنقوا الاسلام فى ذلك العصر — اى عصر الامراء الاخشيديين طواعية بدون ضغط او ارهاب او دافع اقتصادى او طمعا فى السلطان . وان كانت المصادر التاريخية لم تشر الى ذلك صراحة.

---

(١) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى ص ٧٤. ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ — ٢٠ . المقريزى : الخطط ج٣ ص٧

(٢) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى ص٧٦ . ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص٢١ . المقريزى :الخطط ج٣ ص٧ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٧١

كان عصر الخلفاء الفاطميين اكثر العصور التاريخية ـ منذ منتصف القرن الثالث الهجرى ـ التى شهدت تحول كثيرين من القبط واليهود الى الدين الاسلامى ·
وان كنا نلاحظ ان تحول بعضهم الى الاسلام كان نتيجة لما تعرضوا له من المضايقات والعسف فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بصفة خاصة او رغبة منهم فى الحصول على العطايا والهبات من الخلفاء وتولى بعض المناصب الرئيسية فى البلاد بعد عصر الحاكم بأمر الله·

لقد حظى كل من اليهود والقبط بتسامح الخلفاء الفاطميين وحسن معاملتهم لهم ويتجلى ذلك فى استخدام الخلفاء الفاطميين لهم فى مختلف الوظائف على نطاق واسع والاشتراك معهم فى الاحتفالات بأعيادهم الدينية والسماح لهم ببناء الكنائس والاديرة الجديدة وتعمير القديم منها · ذلك الى جانب منادمتهم ومصادقة الكثير منهم وخاصة الرهبان فى الاديرة واتخاذهم الاديرة متنزهات لهم ·

وبالرغم من ذلك نجد احد هؤلاء الخلفاء وهو الحاكم بامر الله يشتد فى معاملته لاهل الذمة من القبط واليهود ويكثر من مضايقتهم فنراه يلزمهم بلبس الغيار وعدم التشبه بالمسلمين فى لباسهم وضرورة شد الزنار فى اوساطهم ومنعهم من الاحتفال بكثير من اعيادهم الدينية كما الزم القبط منهم بحمل صلبان من الخشب · بينما يحمل اليهود قرامى من الخشب ايضا كما افرد لكل منهم حمامات خاصة مميزة حتى لا يدخلوا حمامات المسلمين ولم يكتف الحاكم بأمر الله بهذه المضايقات بل نراه يأمر ايضا بهدم الكنائس والاديرة وتحويل الكثير منها الى مساجد والاستيلاء على مافيها من الاوانى والادوات الذهبية والفضية· (١)

ومما لاشك فيه ان هذه المضايقات قد ادت الى اعتناق كثير من القبط واليهود الدين الاسلامى ·

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ ج٢ ص ١٢٣ـ١٢٤ـ١٢٥ـ١٢٦ـ ١٢٨·
ابن سعيد الانطاكى ص ١٨٧ـ١٩٥ـ٢٠٠ـ٢٠٢· ابن الراهب ص ٨٢
القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص ٣٥٩ـ٣٦٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٧٧ـ١٧٨ ـ المقريزى : الخطط ج٤ ص ٣٩٨ـ٣٩٩

وذكر المقريزى (١) انه كان من نتائج هذه الاحداث المختلفة التى قاسى منها اهل الذمة فى مصر فى عصر الحاكم بامر الله ان اسلم كثير من القبط حتى يأمنوا جانب هذا الخليفة المتقلب ويقول ابن المقفع (٢) : " فجحد كثير من النصارى واليهود من رؤسائهم وادناهم لاجل هذا ولم يصبروا على هذا الهوان والعذاب ".

وهكذا حذا اليهود حذو القبط فى هذا العصر فى اعتناق الاسلام وان كان كثيرا من هؤلاء اليهود كانوا يتظاهرون بتحولهم الى الاسلام ولكنهم فى سرائرهم ظلوا مؤمنين بدينهم اليهودى. (٣) والدليل على ذلك عودة كثير منهم الى اليهودية بعد ان اذن لهم الخليفة الحاكم بامر الله بذلك فى سنة ٤١١هـ .

اما ابن سعيد الانطاكى (٤) فيقول بشأن اسلام اهل الذمة فى هذا العصر ان الخليفة الحاكم بأمر الله قد تهدد النصارى وفزعهم وكثرت الاراجيف والشفاعات فيهم ، وأسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين من القبط وتبعهم خلق كثير من العامة كما اعتنق جماعة من اليهود الاسلام — وهكذا استمر اسلام القبط واليهود نتيجة مضايقات هذا الخليفة حتى انه لم يعد يرى فى الطرقات قبطى لمدة ايام. بينما كان اليهود اكثر تمسكا بدينهم ولم يتحول الى الاسلام منهم الا نفرا قليلا.

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان الحاكم بامر الله كان يحاول جاهدا ارغام بعض القبط على اعتناق الدين الاسلامى . ومما لاشك فيه ان ذلك كان يحدث ايضا بالنسبة لليهود . (٥) ونجد بعض الروايات التاريخية القبطية التى تتضمن احداثا تؤيد هذه الحقيقة ذلك ان كثيرا من القبط قد برز فى الدولة الفاطمية

---

(١) الخطط جـ٤ ص٤٠٠ ، تاريخ ابن الراهب ص٨٢ — ٨٣

(٢) سير الاباء البطاركة م٢ جـ٢ ص١٢٦

(٣) Mann : The Jews, T.1. PP. 34, 37.

(٤) تاريخ ابن سعيد الانطاكى ص٢٠٣ — ٢٠٤

(٥) Mann : The Jews, T.1. P. 37.

وبلغ فيها اعلى المراتب حتى ضجت عامة المسلمين من تسلط هؤلاء الذميين عليهم ، وذلك الى جانب ما عرف عن الحاكم من سرعة التقلب والرغبة فى تحويل جميع اهل الذمة الى الاسلام ، واعتناق المذهب الشيعى بصفة خاصة ،الى جانب جذب المسلمين السنيين الى هذا المذهب ايضا .

ويدلنا على ذلك ان الخليفة الحاكم بأمر الله قد استدعى اليه عشرة من كبار رجال القبط المستخدمين فى الدواوين والحكومة نذكر منهم الشيخ ابو نجاح والرئيس فهد ابن ابراهيم . وقد عرض عليهم جميعا ترك الدين المسيحى واعتناق الاسلام ووعدهم بهلوغ اعظم المقاصد وأبلغ المآرب . وقد استجاب اربعة من هؤلاء العشرة الى طلبه تخلصا مما قاسوه من العذاب والارهاب . وقد مات احدهم فى نفس الليلة التى اعتنق فيها الاسلام . اما الثلاثة الاخرون الذين تحولوا الى الاسلام فقد عادوا الى دينهم المسيحى عندما انتهى ضرب السياط والعذاب الشديد الذى امر الحاكم بانزاله عليهم لتمسكهم بدينهم المسيحى . (١)

وكان من بين من أراد الحاكم بأمر الله اجباره على اعتناق الاسلام ايضا الكاتب بقيرة الرشيدى الذى ترك الخدمة فى الديوان واعلن صراحة امام الحاكم بامر الله تمسكه الشديد بالمسيحية ورفضه الاسلام . فأمر الحاكم بأمر الله باعتقاله وانزال مختلف الوان العذاب والارهاب به . ولكن بقيرة صبر على كل ذلك . فلما ادرك الحاكم ما يتميز به هذا القبطى من الايمان والصبر الشديد امر بالافراج عنه فكتب له سجلا يتضمن الا يعترضه احد فى بيع ولا شراء ولا فى أى أمر آخر . (٢)

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان وفودا من القبط واليهود سعت الى مقابلة الحاكم واستأذنته فى الكلام والتعبير عما يجيش بنفوسهم من الحزن والعذاب فأذن لهم بالكلام وأمنهم على انفسهم . فقالوا له : ان سلوكه وسياسته معهم تختلف تماما عما كانت عليه سياسة النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء المسلمين من بعده .

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ جـ ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٣
(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ ـ ١٢٩

كما ان ذلك مناقض لما يتضمنه العهد الذى منحه المسلمون الفاتحون لاهل الذمة وأرادوا منه الاستفسار عن اسباب تغيير هذه السياسة ، فأجابهم الحاكم بأن السياسة التى التزمها النبى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه كان الغرض منها الترغيب فى التحول الى الاسلام الا ان هذه السياسة لم تؤت الثمرة المرجوة منها وقد مضى عليها اربعة قرون وبالرغم من ذلك ما زال يوجد كثير من غير المسلمين فى البلاد المصرية او غيرها ثم قال لهم : " فليس لكم الان عندى الا اختيار واحدة من اثنتين ، اما اعتناق الاسلام ، بعد كل هذا التأخير واما العقوبة العاجلة اذا ابيتم الدخول فيه ". (١)

ولما عدل الحاكم عن سياسة العسف والارهاب ازاء أهل الذمة فى سنة ٤١١هـ واذن لهم باعادة بناء الكنائس والاديرة كما امنهم على انفسهم ، عاد كثير ممن اسلم من القبط واليهود الى دينهم القديم . وتذكر بعض الروايات القبطية ان جماعة من القبط الذين كانوا قد اسلموا وقفوا فى طريق الحاكم وسألوه ان يأذن لهم فى العودة الى دينهم المسيحى ، فسمح لهم بذلك وتبع هؤلاء جماعات اخرى من الذين تحولوا الى الاسلام فى ذلك العصر تحت تأثير الضغط والارهاب. (٢)

وكان ذلك هو شأن اليهود ايضا . فقد عاد الكثير منهم الى دينهم اليهودى بعد تسامح الحاكم معهم . (٣) ويقول ابن زولاق انه قد ارتد عن الاسلام اكثر من سبعة آلاف يهودى وعادوا الى دينهم القديم فى يوم واحد . (٤)

ونذكر من الامثلة لهؤلاء الذين اسلموا فى ذلك العصر ثم ارتدوا عن الاسلام وعادوا الى دينهم القديم ، الراهب " يمين " الذى سأل الحاكم ان يأذن له ببناء

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٨-٢٠٩
(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ ج٢ ص ١٣٥ - ابن سعيد الانطاكى ص ٢٢١.
(٣) Mann : The Jews, T.I. P. 35.
(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٩

دير على اسم الشهيد مرقوريوس ، وهو دير شهران فأذن له الحاكم بذلك .
وقد سكن بمين هذا الدير هو وجماعة من الرهبان ، وكان الحاكم بامر الله يتردد
عليه كثيرا فيه . وقد استغل هذا الراهب حسن علاقته بالحاكم في تحسين أحوال
القبط وتوفير الامن لهم جميعا . (١)

وكان ذلك في الواقع مخالفا لحكم الاسلام بشأن المرتد ، اذ كان الاسلام
يقضي بقتل المرتد ولكن ذلك لم يحدث مطلقا في عهد الخليفة الحاكم . وتسوق
لنا بعض المصادر القبطية قصة القديس ديسقورس الذي كان من سكان مدينة
الاسكندرية واعتنق الاسلام وكتب الى اخته في مدينة الفيوم يعلمها بترك المسيحية ،
واعتناق دين الاسلام فأرسلت اليه تقول : " لقد كنت اشتهى ان يأتيني خبر موتك
وانت مسيحي فكنت افرح بذلك ولا يأتيني خبرك بانك تركت المسيح الهك .. وأعلم
ان هذا الكتاب آخر صلة بيني وبينك فمن الان لاتعد تريني وجهك ولاتكاتبني " .
فكان لهذا الكلام أثره الشديد في نفسه ، فأسرع بارتداء ملابس القبط وشد الزنار
في وسطه ووشم نفسه بعلامة الصليب فلما بلغ خبره والى مصر — لم تحدد الرواية
تاريخ هذا الحدث — أمر بالقبض عليه وسأله عن سبب ارتداده عن الاسلام فأجابه
ديسقورس " انا ولدت مسيحيا ، وأموت مسيحيا ، ولا اعرف دينا غير هذا " . فهدده
الوالى وألحق به كثيرا من ألوان التعذيب وسجنه ولكنه أصر على تمسكه بالمسيحية
فأمر الوالى بقتله حرقا . (٢)

وقد حدث مايشبه ذلك في اوائل عهد الفاطميين في مصر اذ علم القاضي
محمد ابن النعمان — في القرن الرابع الهجري — ان احد القبط كان قد اعتنق
الاسلام ثم ارتد عنه وكان قد جاوز الثمانين من عمره . وقد أمر الخليفة الفاطمي

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ٢ ص ١٣٥ — ابو صالح الارمني ص ٢
(٢) السنكسار : جـ٢ ص ١٣ — ١٤

العزيز بالله بتسليمه الى والى الشرطة وطلب من القاضى ان يرسل اليه اربعة شهود ليتوب امامهم ، فان تاب منحه مائة دينار وان أصر على ارتداده عن الاسلام يقتل . ولكن هذا المرتد أصر على موقفه فقتل وألقى به فى النيل. (١)

ولما توفى الخليفة الحاكم بأمر الله ولى الخلافة الفاطمية بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله فى سنة ٤١١ هـ . وأصدر الظاهر سجلا قرئ على جميع سكان مصر ،وقد جاء فيه " انه انتهى اليه استشعار جماعة اهل الذمة من النصارى واليهود انهم يستكرهون على الانتقال الى شريعة الاسلام وامتعاضهم من ذلك إذ كان لا اكراه فى الدين ،وان يزيلوا من انفسهم ماتخيلوه ويتحققوا انهم يحملون على حكم الصيانة والرعاية وينزلون منزلة اهل الحياطة والحماية ،ومن آثر منهم الدخول فى دين الاسلام اختيارا من قلبه ، وهداية من ربه ، ولم يكن غرضه التعزز والاستطالة فليدخل فيه مقبولا مبرورا . ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته وعلى جميع اهل الملة حفظه وصيانته ". (٢)

ونلمس من دراستنا لتاريخ اهل الذمة فى خلافة المستنصر بالله انه قد اسلم فى عهده نفر من القبط واليهود ، رغبة فى الاستمرار فى مناصبهم وارضاء لشعور المسلمين الذين كثيرا ماكانوا يستنكرون تسلط اهل الذمة على شئون الحكم . نذكر من هؤلاء ابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحى وكان يهودى الاصل ، ثم أعتنق الاسلام ، وقد ولى الوزارة للمستنصر فى سنة ٤٣٦ هـ . (٣)

---

(١) الكندى : الولاة والقضاء ص٥٩٣
آدم متز : الحضارة الاسلامية ج١ حاشية ص ٥٨

(٢) ابن سعيد الانطاكى ص٢٣٥ــ٢٣٦

(٣) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص٣٧ ــ ٣٨

ونذكر منهم ايضا ابا على الحسن بن ابى سعد ابراهيم بن سهل التستري ، الذى تخلى عن اليهودية وتولى الوزارة للخليفة المستنصر، (١) وأبا سعد منصور المعروف بابن زنبور، وكان قبطيا ثم اعتنق الاسلام ، لما عهد اليه بالوزارة ، فى عهد الخليفة المستنصر ايضا . (٢)

---

(١) ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٥٢
(٢) نفس المصدر ص ٥٤

٥ — موقف اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية

كان انتشار اللغة العربية فى مصر مصاحبا ايضا للفتح العربى ومقترنا الى حد كبير بانتشار الاسلام لانه كان يجب على من يعتنق الاسلام ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن واداء الصلاة • ويجدر بنا ان نشير الى ما كان سائدا فى مصر قبل الفتح العربى من اللغات •

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى هى اللغة الرسمية فى الحكومة والمعاملات التجارية والكنيسة والعلاقات السياسية • اما لغة المصريين الدارجة التى يتحدث بها عامة القبط فهى اللغة القبطية ويبدو ان استخدامها كان بين ابناء المجتمع القبطى وفى شرح العلوم والدروس الدينية التى كانت تلقى باليونانية ثم تشرح للقبط بلغتهم القبطية• (١)

وهكذا كانت اللغة اليونانية هى لغة الثقافة والحكومة بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى ان احد القصص قال: " اذا اراد يونانى ان يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له ان يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع ان يتفاهم معهم اما اذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه "• وذلك يؤكد عدم انتشار اللغة اليونانية بين جميع المصريين• وان اللغة اليونانية كانت تسير جنبا الى جنب مع اللغة القبطية حتى الفتح العربى للبلاد المصرية• (٢)

وكانت اللغة القبطية تكتب بالحروف اليونانية ثم اضاف لها القبط سبعة حروف من الخط الديموطيقى Demotiv وهى حروف تعبير عن اصوات ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية وهى : شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ) وهورى

---

(١) Meinardus : Christian Egypt. P. 107.
ومحمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص٢٨

(٢) محمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص٢٧

(هـ) وجنجا (جـ) وتشيما (تش) وتى (ت) .[(١)]

وكانت اللغة القبطية مقسمة الى عدة لهجات او لغات رئيسية. يقول احمد اساقفة مصر الاسلامية (فى القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى ويدعى انتناس Athanase ـ وكان اسقفا لمدينة قوص) " نعلم ان اللغة القبطية مقسومة على ثلاث اقاليم منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحيرى المعروف بالبحيرة ومنها القبطى البشمورى المستعمل ببلاد البشمور . والمستعمل الان ـ اى فى عصر هذا الاسقف ـ القبطى البحيرى والقبطى الصعيدى والاصل فيهما لغة واحدة ".[(٢)]

وكانت هذه الاقسام الرئيسية للغة القبطية تنقسم بدورها الى لهجات فرعية نذكر منها الفيومية وكان استخدامها قاصرا على اقليم الفيوم والاخميمية وكانت لهجة سكان اخميم . والاخميمية الفرعية او الاسيوطية ويتكلم بها الاهالى فى المنطقة مابين البهنسا واسيوط.[(٣)]

كانت اللهجة البحيرية Bohairic هى المستعملة فى الطقوس الدينية فى الكنيسة القبطية بينما كانت اللهجة الصعيدية Sa'îdic هى لهجة الادب . وكانت اكثر اللهجات انتشارا فى مصر اما اللهجات الاخرى فكان كل منها خاصا بالاقليم الذى يحمل اسمه وبالرغم من ان اللهجة الصعيدية كانت هى اللهجة العامة القبطية حتى القرن التاسع الميلادى فان اللهجة البحيرية قد حلت محلها لما اكتسبته من الاهمية الدينية والكنسية وايضا لان كثيرا من الادب الصعيدى قد ترجم الى اللهجة البحيرية.[(٤)]

---

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص٢٦ـ٢٧ ـ يس عبد المسيح : اللهجات القبطية وآثارها الادبية ص٣٩ (رسالة طارمينا سنة ١٩٥٤م)
و Meinardus: Christian Egypt. P. 107.

(٢) Quatramére: Recherches Critique et Histoire sur la longue et le literature de l'Egypte,PP.20-21

(٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص٢٧ـ٢٨ يس عبد المسيح : اللهجات القبطية وآثارها الادبية ص ٤١ ـ ٤٢
و Meinardus : Christian Egypt. P. 107.

(٤) Meinardus : Op. Cit. PP. 107 - 108.

ساعد الفتح العربى لمصر على انتعاش اللغة القبطية (١) وكان ذلك فى الغالب على حساب اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية منذ عهد البطالمة فبعد ان كانت الدروس الدينية فى كثير من الاحيان تقرأ باليونانية • ثم تشرح للقبط باللغة القبطية الدارجة اصبحت بعد الفتح العربى لاتقرأ الا باللغة القبطية وتشرح بها ايضا • والى جانب ذلك نجد البلاد والاقاليم التى كانت تغلب عليها الاسماء باليونانية اصبحت تعرف باسمائها القبطية التى ترجع الى الاسماء المصرية القديمة ونذكر من الامثلة على ذلك اخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis واهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracleo-polis والاشمونيين بدلا من هرموبوليس Hermo-polis وكان ذلك فى الواقع بعثا لقديم لم يندثر تماما • فان اللغة القبطية او الاسماء المصرية القديمة كانت قد غلبت على امرها لفترة من الزمن ثم اخذت تستعيد مكانتها عقد الفتح العربى لمصر • (٢) بعد ان تخلصت البلاد من الحكم الرومانى وماكان يرمى اليه الحكام الرومان من القضاء على اللغة القبطية وان يحل محلها اللغة اليونانية فى جميع الامور والاحوال • فتظل لهم بذلك السيطرة والحكم على البلاد سياسيا ولغويا •

ونحن نرى انه كان امرا طبيعيا ان تنتشر لغة العرب الفاتحين بين المصريين وان يتطور الامر فتصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة اليونانية وكان ذلك فى الواقع نتيجة حتمية لسيادة العرب على البلاد المصرية بدلا من الرومان•

وكان انتشار اللغة العربية فى مصر مصاحبا لانتشار الاسلام حتى صارت اللغة العربية لغة التخاطب ولغة الكتابة والعلم• ونلاحظ ان انتشار اللغة العربية بين المصريين كان يسير ببطء بعكس ماكان عليه الحال فى انتشار الاسلام•

---

(١) Quatrémere: Recherches Critique et historique sur la langue et le literature d'Egypte, P.32.

(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane.., PP. 137 - 138.

وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٩٠ـ١٩١

كما اننا نلاحظ ان المصادر التاريخية المختلفة لم تشر الى متى بدأ القبط يستخدمون اللغة العربية لغة للتخاطب فيما بينهم • ومهما كان الامر فاننا يمكن ان نقول ان القبط او المصريين بصفة عامة قد عرفوا اللغة العربية منذ السنوات الاولى للفتح العربي لمصر• ذلك لان من اعتنق منهم الدين الاسلامي كان لزاما عليه ان يتعلم اللغة العربية حتى يتمكن من تفهم دينه الجديد ومعرفة شرائعه الى جانب قراءة القرآن•

كذلك يبدو انه قد حدث ان تعلم اللغة العربية ـ في القرن الاول للعرب في مصر ـ بعض القبط المحتفظين بدينهم المسيحي حتى يتقربوا الى الحكام واولى الامر في البلاد نذكر من هؤلاء الشماس بنيامين الذى تقرب الى الاصبغ بن عبدالعزيز• فقد عهد اليه ابوه عبدالعزيز بن مروان بكثير من امور مصر • وكان هذا الشماس يطلع الاصبغ على كثير من اسرار القبط • كما قام بترجمة الانجيل من اللغة القبطية الى اللغة العربية بناء على طلب الاصبغ كما ترجم له كتبا دينية اخرى وكان الاصبغ يرمى من وراء ذلك ان يعلم هو والمسلمون ما في هذه الكتب مما يمس الدين الاسلامي • (١) ولاشك ان هذا الشماس كان يتقن اللغة العربية ويتفهمها جيدا حتى انه امكنه القيام بهذه الترجمة• ونرى ايضا ان ما قام به الاصبغ من ترجمة هذه الكتب الى اللغة العربية كان مقدمة لتعريب الدواوين واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد •

وحدث ايضا في امارة عبدالعزيز بن مروان على مصر ان امر الخليفة عبدالملك بن مروان بترجمة النصوص التى اعتاد ان يكتبها صناع اوراق البردى في مصر على ما يقومون بصناعته من هذه الاوراق• فلما تبين معناها قال : " ما أغلظ هذا في امر الدين والاسلام " • وكتب الى اخيه عبدالعزيز بن مروان في مصر بأبطال هذه الكتابات وان يستبدلها باحدى الشهادتين • فقام عبدالعزيز بن

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ ج٢ ص١٤٣

مروان بذلك • (١) وميهد ذلك كله فيما بعد لتكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية بدلا من اللغة اليونانية وان تكون ايضا لغة التخاطب بين القبط وفى المعاملات الاجتماعية•

استمرت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى الدواوين حتى عهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) ويؤيد ذلك اوراق البردى ذات الصبغة الرسمية والتى يرجع تاريخها الى عهد الوليد والتى دونت باللغتين اليونانية والعربية معا • وذلك لان اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية التى تدون بها الاعمال فى تلك الدواوين اما اللغة العربية فكانت لغة الحكام العرب •

ونذكر من الامثلة على ذلك بردية يرجع تاريخها الى سنة ٨٦ هـ • وتتضمن مرسوما صادرا من والى مصر عبد الله بن عبد الملك (٢) • وهذه البردية

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ١ ص ٤٤٩ • ويقول انه لما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم وعلم امبراطورهم بها استشاط غضبا واستنكر ما فيها وكتب الى عبد الملك يقول : " ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبت فقد اخطأوا فاختر احدى الحالتين وارسل اليه هدية يغريه بها حتى يعيد القراطيس الى ما كانت عليه فردها اليه عبد الملك ولم يعطيها اى اهتمام ولم يجب الامبراطور الرومانى الى رغبته• عند ذلك هدده الامبراطور بنقش سب النبى عليه الصلاة والسلام على النقود ه مما ادى الى ضرب النقود الاسلامية آنذاك • نفس المصدر السابق•

تدل فى الواقع على ان اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فى دواوين الحكومة حتى ذلك العصر • فلما كانت سنة ٨٧ هـ نقل عبدالله بن عبدالملك دواوين مصر الى اللغة العربية • وبذلك صارت اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تدون بها الاعمال بدلا من اللغة اليونانية • (١)

---

(٢) جروهمان : اوراق البردى السفر ١ ص ٢٥-٢٦ طراز رقم ٥٩ ويقول جاستون فييت انه بدراسة اوراق البردى التى ترجع الى العصر العربى فى مصر يمكن ان نستخلص ان الاوراق البردية التى دونت باللغتين العربية واليونانية اقدمها يرجع الى سنة ٢٢ هـ(٦٤٣م) واحدثها يرجع الى سنة ١٠١هـ ٧١٩م وهناك برديات باللغة اليونانية فقط اخرها مؤرخ فى سنة ١٦٤ هـ(٧٨٠م) اما اوراق البردى المدونة بالعربية فقط فأقدمها يرجع الى سنة ٩٠ هـ(٧٠٩م)
انظر : G. Wiet: L'Egypte Musulmane, P.138, et Zaki Hassan : Les Tulunides, P.217.

ولفظ طراز فارسى الاصل معناه التطريز ثم صار يطلق على الثوب الموشى • ثم اطلق هذا اللفظ اخيرا على الدار التى كان يصنع فيها الثياب او على المادة التى تستعمل فى التطريز ثم تطور استعمال هذا اللفظ وصار يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة او مكتوبة واطلق لفظ طراز اخيرا على الكتابة التى كانت تكتب على درج البردى • فى الدار التى كان يصنع بها اوراق البردى ويطلق عليها اسم " الطراز " •

وكان درج البردى يتكون من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الاولى من هذه الاوراق باليونانية Protocol اى اللصق الاول وكانت تشتمل على الكتابة الرسمية التى تسمى الان الطراز• انظر جروهمان: اوراق البردى السفر الاول ص٣-٤

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٥٨ـ وكانت دواوين الخراج والجبايات وغيرها من الدواوين فى البلاد الاسلامية شأنها شأن مصر على ماكانت عليه قبيل الفتح العربى لها فديوان العراق كان باللغة الفارسية وديوان الشام بالرومية• وكتاب الديوان من اهل العهد من الفريقين فلما كانت خلافة عبدالملك بن مروان يقول ابن خلدون فى المقدمة ص٢٤٣ استحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتابة والحسبان• ومن ثم فكر عبدالملك فى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الدواوين واعمال الحكومة وامر سليمان ابن سعد ان ينقل ديوان الشام الى اللغة العربية فكان ذلك وجعل عليه سرجون بن منصور كاتب عبدالملك فقال للكتاب الروم اطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم اما ديوان العراق فقد امر الحجاج ابن يوسف الثقفى كاتبه صالح بن عبدالرحمن الذى كان يعلم الكتابة بالعربية والفارسية بتعريب ديوان العراق فكان ذلك انظر المقريزى : الخطط جـ١ ص١٥٨-١٥٩ مقدمة ابن خلدون ص٢٤٣-٢٤٤

وقد ادت عملية تعريب الدواوين في مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية الى اللغة العربية • ومن ثم صار للعرب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية • وبدأت تنتشر اللغة العربية فى جميع المدن والقرى المصرية وأصبحت لغة الادارة والحكم وبالتدريج صارت بعد ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب •فضلا عن انها لغة السياسة والدين • (١)

ونلاحظ ان تعريب الدواوين فى سنة ٨٧ هـ لم يقض نهائيا على استخدام اللغة اليونانية فى كتابة الوثائق الرسمية • فكان من الضرورى ان يكون هناك مرحلة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية فى الاعمال الرسمية • فقد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب اللغة العربية طوال عهد الامير عبدالله ابن عبدالملك وفى عهد خلفه قرة بن شريك • ويؤيد ذلك كثير من الاوراق البردية (التى ترجع الى الفترة مابين سنتى ٨٦ ، ٩٦ هـ) • (٢)

كما تشير احدى اوراق البردى العربية الى استعمال اللغة اليونانية فى بعض الوثائق فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ولا شك ان ذلك يدلنا على ان بعض المصريين كان لا يزال يلم باللغة اليونانية حتى ذلك الوقت • ويتحدث بها • وتتضمن هذه البردية تظلم بعض القرى المصرية من عمال الضرائب وهى مؤرخة فى سنة ١٣٧ ــ ١٤٠ هـ (٧٥٤ ــ ٧٥٧ م) وتتكون هذه الوثيقة من واحد ومائة سطر كتبت الثمانون اسطر الاولى منها باللغة القبطية والاثنى عشر سطر التالية باللغة اليونانية اما باقى الاسطر فقد كتبت باللغة العربية • والاسطر القبطية تحتوى على نص الاخطار الاصلى • (٣) وذلك يدلنا ــ بدون شك ــ على ان رؤساء

---

(١) سيدة كاشف : عبدالعزيز بن مروان ص١٤٥

(٢) جروهمان : اوراق البردى جـ١ طراز ٦ ص١١ ــ طراز ٦١ ص١٣ طراز ٢٢ ص١٤ ــ طراز ٣١ ص١٦ ــ طراز ١٨ ص١٧ ــ طراز ٥٠ ص١٨ ــ طراز ٥١ ص١٩ ــ طراز ٢١ ص٢٠ ــ الى غير ذلك من البرديات المتعددة حتى ص٤٩ •

(٣) جروهمان : اوراق البردى جـ٣ ص٦٧ ــ ٧٠

القرى كان جلهم تقريبا من القبط فى ذلك العصر • الى جانب ان اللغة القبطية كانت هى اللغة المستعملة فى القرى المصرية فى حياة القبط وفى تعاملهم فى المجتمع المصرى • ولم تكن اللغة العربية حتى ذلك العصر قد صارت لغة التخاطب والمعاملات الكلية فى جميع المدن والقرى المصرية • اما النص اليونانى فى هذه البردية فكان عبارة عن وصف دقيق لبعض محتويات النص مثل اسماء الجماعات التى كتبت الاخطار بينما كان النص العربى اكثر اختصارا • [1]

ويرى بعض الكتاب المحدثين [2] ان استخدام اللغتين اليونانية والعربية فى مصر فى التخاطب والمعاملات بين الروم والقبط وغيرهم كان سائدا بين سكان مصر ويدلنا على ذلك ما جاء فى بعض اوراق البردى حيث يوجد ثبتا عبارة عن احد عشر سطرا ويضم اسماء لبعض القبط ويرجع خطه اليونانى المنمق الى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) • [3]

ونستخلص من دراسة اوراق البردى العربية ان اللغة القبطية كانت تستخدم فى كتابة بعض الوثائق فى مصر الاسلامية ــ كما رأينا فى البردية المتضمنة ظلامة بعض القرى ــ وان كان من العسير ان نقول ان اللغة القبطية قد اصبحت لغة رسمية فى المعاملات الحكومية وانما كانت فى المرتبة الثالثة بعد اللغتين العربية واليونانية [4] ونستدل على ذلك ببعض اوراق البردى التى كان يكتب فيها النص القبطى فى نهاية الوثيقة • [5] او فى ظهورها [6] ويضاف الى ذلك

---

(١) جروهمان : اوراق البردى جـ٣ ص ٧٠

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ١ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢

(٣) جروهمان : اوراق البردى جـ١ ص ٥٤

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ١ ص ٤٥١

(٥) ويقول جروهمان فى وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ فى سنتى ٨٦ ــ ٩٦ (جـ١ ص ١١) وفى اسفل الطراز فراغ عرضه ١ر٥ سم وفى اسفله نص قبطى عشرة اسطر وايضا الطراز رقم ٦١ ص ١٣ وفيه نجد بين نص الوثيقة اليونانى وبين نص الصك القبطى ٥ سم • وكذلك البردية رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطى ومتن الطراز ١ر٥ سم •

ان النص القبطى كان — فى الغالب — يكتب بحبر يختلف لونه عن لون الحبر الـــذى يكتب به نص الوثيقة العربى او اليونانى • (١)

وبالرغم من ان اللغة العربية قد اصبحت اللغة الرسمية فى البلاد المصريـــة او بمعنى اخر لغة السياسة والحكم فانه من الواضح ان القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى — انها لم تصبح لغة التخاطب بين سكان مصر جميعا • وانه كان لا يزال يجهلها كثير من القبط ونرى ذلك واضحا حينما قبض مروان — اخر الخلفاء الامويين — على البطرك انبا خائيال وبعض الاساقفة وكان هؤلاء القبط لا يفهمون العربية ولا يمكنهم الحديث بها • وكان مروان بن محمد يصحب معه بعض التراجمة الذين تولوا ترجمـــة الحديث الذى دار بين مروان وبين البطرك القبطى لعدم فهم كل منهما للغـــــة الاخـــر • (٢)

وتشير بعض المصادر القبطية الحديثة الى ان اللغة العربية بدأت تنافـــس اللغة القبطية فى التعليم والدراسة وفى مختلف الميادين منذ القرن الثالــــث الهجرى التاسع الميلادى • ولا غرو فان حلول اللغة العربية محل اللغة القبطيـــة فى الكتابة سبقه انتشار اللغة العربية كلغة للتخاطب بين افراد الشعب فقـــد اصبحت اللغة العربية لغة الدواوين ثم صارت لغة التعليم والدراسة • وقد اصبـــح القبط انفسهم فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) يؤلف علماؤهـــم

= (٦) جروهمان اوراق البردى جا الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ به سطريـــن على متن قبطى كتبا فى ظهر الطراز والطراز رقم ٧ ص ٤٢ وظهره اربعة عشر سطر من صك قبطى — وكذلك الطراز رقم ٤ ص ٤٦ اربعة اسطر قبطية فى ظهر الاصل •

(١) انظر وصف جروهمان (جا ص ١١) للطراز رقم ٦ فان الصك مكتوب بحبر بنى مائل للسواد على حين كتبت السطور القبطية بحبر اسود • وكذلك الحال فى الطراز ٦١ ص ١٣ والطراز ٦٦ ص ٢٣ والطراز ٧ ص ٤٢ وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فان لون الحبر فى نصه الاصلى اسود ولونه فى النص القبطى بنى " •

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨

فى العلوم اللاهوتية باللغة العربية مما يدل على انها صارت لغة العلم وكان يفهمها اغلب سكان مصر.(١)

ونرى ان تحول كثير من الذميين الى اعتناق الدين الاسلامى كان من اهم العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فصارت لغة التخاطب ثم لغة العلم والدراسة. اذ كان لزاما على هؤلاء المتحولين الى الاسلام ان يدرسوا اللغة العربية ويتفهموا فيها حتى يتمكنوا من قراءة القرآن وفهم شرائع الاسلام. ومن ثم صارت اللغة العربية بالتدريج على مر العصور التاريخية — ضرورية فى عمليات البيع والشراء فى المدن. كما اقبل القبط فى القرى على تعلم اللغة العربية واستعمالها فى حياتهم اليومية.(٢)

وبالرغم من انتشار اللغة العربية فى بداية القرن الثالث الهجرى وفهم كثير من القبط لها فان ذلك لم يقض نهائيا على اللغة القبطية، اذ يبدو ان بعض القبط استمر محافظا على لغته القبطية دون محاولة لمعرفة غيرها. ويؤكد ذلك ان الخليفة المأمون لما زار مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى كان يصحب معه المترجمين عند زيارته لبعض المدن والقرى التى مر بها فى طريقه.

فيقول المقريزى(٣) ان الخليفة المأمون مر فى طريقه بقرية طاء النمل فلم يدخلها وكانت ملكا لعجوز قبطية تسمى مارية. فخرجت هذه المرأة تنادى

---

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ٧١—٧٢.
يحى عبد المسيح اللهجات القبطية وآثارها الادبية ص ٤٩ (رسالة ماجستير سنة ١٩٥٤م).

(٢) G. Wiet : L'Egypte Musulmane. P. 138.

(٣) الخطط جـ١ ص ١٣٠—١٣١

على الخليفة فظنها المأمون مستغيثة متظلمة ، فوقف لها وكان لا يمشى ابدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له ان القبطية قالت : يا أمير المؤمنين نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك وانا أسأل امير المؤمنين ان يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ولا تشمت به الاعداء".

وحدث فى عصر هذا الخليفة ايضا ان البطرك كثيرا ما كان يخاطب اساقفته باللغة القبطية مع علمهم جميعا باللغة العربية. فقد حدث ان قاضى مصر آنذاك محمد ابن عبدالله استدعى البطرك انبا يوساب وبعض الاساقفة الذين سعوا به لدى هذا القاضى وتعمد القاضى المذكور اهانة البطرك انبا يوساب امام هؤلاء الاساقفة. فوجه البطرك بعض الكلام الى هؤلاء الاساقفة الخارجين عليه باللغة القبطية وكان فى هذا المجلس جماعة من الفقهاء المسلمين الذين يعلمون القبطية فترجموا للقاضى ما قاله البطرك بالقبطية الى اللغة العربية. (١)

ويؤكد ذلك بعض اوراق البردى التى ترجع الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فهناك بردية مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ تتضمن عقد بيع وتشير الى ان احد القبط قد ادلى بشهادته على هذا العقد وكتب شهادته واسمه باللغة القبطية. (٢) ومع ذلك فان ما قام به الخليفة العباسى المعتصم من اسقاط العرب من الديوان قد أدى الى اختلاط العرب بالمصريين فى القرى والمدن المصرية ، مما كان له اثره الواضح فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضائها على اللغة القبطية. (٣)

اخذت اللغة العربية تجد طريقها بين اهل الذمة حتى صارت الاغلبية منهم تجيدها قراءة وفهما وتتحدث بها فى العصر الطولونى ويدلنا على ذلك ما جاء

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ ج٢ ص ٢٩١

(٢) جروهمان : اوراق البردى ج١ ص ١٤٦-١٥٢

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٥٧-٢٥٨

فى بعض الاوراق البردية فهناك بردية مؤرخة فى سنة ٢٧٤ هـ وفيها ان احد القبط قد ادلى بشهادته وجاء فى هذه البردية " اقرار دانيال بجميع مافى هذا الكتاب بعد ان قرئ عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه ". (١)

وبلغ الامر ان صارت جميع وثائق اهل الذمة سواء كانت تتضمن عقد بيع او شراء او عقود الزواج تكتب باللغة العربية ومن الامثلة على ذلك بردية تتضمن عقد زواج تم فى الاشمونين بين يحنس بن شنودة وبين زوجته القبطية. (٢)

ونحن نرجح ان اللغة القبطية كانت مازالت متداولة بين بعض القبط حتى عهد الامراء الاخشيديين واستمر ذلك حتى اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فيقول المقدسى (٣) عن سكان مصر " لغتهم عربية.. وذمتهم يتحدثون القبطية " اى ان اللغة التى كانت سائدة فى البلاد وفى المعاملات المختلفة وشئون السياسة والحكم بل والعلم والدراسة كانت هى اللغة العربية. بينما كان اهل الذمة حتى ذلك العصر لا يزال كثير منهم يتكلم القبطية وقد يكون ذلك الى جانب فهمهم والمامهم باللغة العربية.

ونستدل على ذلك بان سعيد بن بطريق البطرك الملكانى قد ألف كتابا فى التاريخ باللغة العربية وذلك فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى. ثم جاء بعده الاسقف ساويرس بن المقفع ـ اسقف مدينة الاشمونين ـ فكتب كتابه المشهور " سير الاباء البطاركة " فى اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله باللغة العربية. وكان ساويرس (٤) يقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى اللغة العربية مما يؤكد لنا ان اللغة العربية قد اصبحت آنذاك لغة التخاطب بين المصريين عامة.

---

(١) جروهمان : اوراق البردى جـ٢ ص ١٧٠
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٨٥ـ٨٦
(٣) احسن التقاسيم : ص٢٠٢ و The Oxford Dictionary of the Christian Church, Art. Coptic. P.342.
(٤) سير الاباء البطاركة م ١ جـ١ ص ٦

ويقول ساويرس فى مقدمة كتابه المذكور " ٠٠ فاستعنت بمن اعلم استحقاقهم من الاخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ماوجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى الى القلم العربى الذى هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من اكثرهم " ٠

ويتهم بعض كتاب القبط المحدثين بعض حكام مصر الاسلامية بمحاولتهم اقتلاع اللغة القبطية ومنع المصريين من التحدث بها ومن ثم القضاء عليها تماما ويوجه هذا الاتهام بصفة خاصة الى الخليفة الفاطمى الحاكم بامر الله٠ فنراه يقول ان الحاكم بامر الله لم يقتصر على مصادرة الاقباط فى كنائسهم ومنازلهم واملاكهم ودياراتهم ومقتنياتهم ولا باستبدال لغتهم القبطية فى دواوين الحكومة ومصالحها واعمالها الكتابية والحسابية باللغة العربية من ايام الامير عبدالله (سنة ٧٠٤م) بل زاد الطين بله٠ فأمر بمحو هذه اللغة محوا تاما وازالة كل اثر لها وذلك بابطال التحدث بها فى البيوت والطرق ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه واقتدى بالحاكم فى محاربة اللغة القبطية كثيرون من خلفائه٠ (١)

ونحن نرى انه لم يوجد فى المصادر التاريخية المختلفة مايشير الى ذلك صراحة فى عصر الحاكم بامر الله او عصر غيره من حكام مصر المسلمين٠ ولعل هذا الكاتب القبطى اعتمد فى اتهامه هذا على موقف الحاكم بامر الله الشديد من القبط والزامهم ببعض الاحكام القاسية فى عصره٠ وايضا لعله بنى رأيه هذا على مانسبه بعض المؤرخين القبط الى هذا الخليفة من انه عرض على بعض القبط الاسلام وانه الحق بهم كثيرا من صنوف العذاب والارهاب فى سبيل ذلك فرأى انه لابد انه قام بمثل ذلك فى سبيل ترك القبط لغتهم وسيادة اللغة العربية بينهم فى الحديث والدراسة وغيرها ٠

---

(١) بانوب حبشى : اللغة القبطية بين الكنائس والاديرة ص١٧ (رسالة طرميثا سنة ١٩٤٧م)٠

ويشير بعض الكتاب المحدثين ايضا الى انه فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلادى) ظهر نشاط قوى بين القبط ذلك انهم ارادوا ان يحتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فى دير سنت مقار الا ان حركتهم هذه باءت بالفشل فى القرن التالى — اى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لان اللغة القبطية كانت تتقهقر امام اللغة العربية وكثر اقبال الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية الى اللغة العربية. كما انه بعد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كان رجال الكنيسة يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت الكتب الدينية باللغة العربية. (١)

وعليه يبدو ان مقدرة القبط على فهم اللغة العربية وتعلمها وهى لغة حكامهم المسلمين واهمالهم اللغة القبطية قد ادى تدريجيا وبمرور الوقت الى فقدان اللغة القبطية لاهميتها كما ان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمون اللغة القبطية فى حديثهم ولا فى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية مما أدى الى نقص اهمية اللغة القبطية ثم اختفائها تماما فى مصر. (٢)

وتطور الامر بعد ذلك الى ان صار القبط يستخدمون اللغة العربية الى جانب اللغة القبطية فى الكنيسة فقد قرئ تقليد القس انبا مقارة بطركا ففى كنيسة المعلقة فى عهد الخليفة الفاطمى الامر باحكام الله. باللغات اليونانية والقبطية والعربية. (٣) وفى القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) امر البطرك انبا غبريال القس بقراءة الصلوات والمزامير الدينية باللغة العربية السائدة انذاك . كما عنى ايضا بترجمة جميع الكتب والطقوس الدينية الى اللغة العربية حتى يفهمها عامة الشعب جميعا . (٤)

---

(١) محمد كامل حسنين : ادب فى عصر الاسلامية ص٣٢ — ٣٣

(٢) Quatremere: Recherches Critique et Historique sur la langue... P.37.

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ ج١ ص٤ و Synaxaire Arabe Jacobite, T.1. P.16.

(٤) Chronique de Michel le Syrien, T.3, fasc.2.P.235, et Meinardua: Christian Egypt. P.108, and Butler: Ancient Churches, T.2. P.252.

ومع ذلك استمرت اللغة القبطية معروفة لدى بعض القبط حتى عصر المؤرخ ابو صالح الارمنى (فى القرن السادس الهجرى) فكان من عادة سكان اسنا ان يحدثوا الى القبط بالغناء فى افراحهم باللغة القبطية الصعيدية.(١) ويؤكد ذلك ايضا ان ابا الفخر بن ازهر الذى ترك دينه اليهودى واعتنق المسيحية (فى القرن السادس الهجرى) قد تعلم اللغة القبطية بطلاقة. فكان يجادل اليهود باللغة العبرية ويفسره للقبط باللغة القبطية.(٢) وذلك يدلنا على بقاء اللغة القبطية بين القبط يتحدثون بها ويتدارسون بها ايضا حتى ذلك العصر وما بعده.

وتم فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ترجمة كتب الطقوس الدينية الى اللغة العربية لتكون بجانب النسخ القبطية لها.(٣) وحتى عصر المؤرخ المقريزى (القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر الميلادى) كان القبط مازالوا يتكلمون القبطية فى الاديرة حول اسيوط.(٤)

والواضح ان المصادر التاريخية المصرية قلما تشير الى انتشار اللغة العبرية بين اليهود — وذلك بعكس ما لمسناه بالنسبة للقبط — ولعل ذلك

---

(١) ابو صالح الارمنى ص ١٢٩ و Butler: Op. Cit., P. 252.

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٣ جـ١ ص ٥٣.

(٣) Meinardus: Christian Egypt. P. 108, and Butler: Op. Cit., P.252.

(٤) المقريزى الخطط جـ١ ص ٤١٦.
ويقول ان نصارى قرية ادرنكة كانوا فى عصره يتقنون القبطية ويفسرون بها أمور دينهم.

كان راجعا كما ذكرنا مرارا الى قلة عدد اليهود فى مصر بالنسبة لعدد القبط، ويقول المقدسى (١) عن سكان مصر واهل الذمة بها خاصة " وعامة ذمته نصارى ، يقال لهم القبط ، ويهود قليل ... ".

وبالرغم من ذلك نجد اشارات فى بعض المصادر الحديثة المعتمدة على الوثائق العبرية (وخاصة الـ Cairo Geniza) تؤكد ان اللغة العربية قد انتشرت بين اليهود ايضا شأنهم فى ذلك شأن القبط كما انها اصبحت لغة الدراسة والعلم بينهم . ويؤكد ذلك ان سعيد بن يوسف الفيومى Saadia B.Youssif. ويقال له ايضا Saadia Hagoun الذى عاش فى الفترة ما بين سنتى ٨٩٢ ـ ٩٤٢م (اى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين) كان اول من نبغ فى الدراسات العلمية والادبية من بين اليهود ووضع هذا العالم اليهودى كثيرا من المؤلفات باللغة العربية بل انه ترجم التوراه الى اللغة العربية مع التعليقات والشرح حتى يسهل فهم عامة اليهود لها . (٢)

ولاشك ان ذلك يدل على ان عامة اليهود كانوا فى ذلك العصر يتحدثون بالعربية بحيث اصبح يصعب عليهم فهم العبرية . فقام هذا العالم اليهودى بترجمة التوراه وشرحه بالعربية لغة عصره . ولم يقتصر الامر على ذلك بل نراه يعمل معجما لقواعد اللغة العبرية وجعل فيه مايقابل العبرى باللغة العربية . (٣) حتى يكون فى متناول الجميع .

وقد عاصر هذا العالم اليهودى عالم يهودى آخر يسمى اسحق بن سليمان الاسرائيلى وقد نبغ فى الطب والفلسفة ، وألف كتبه فى هذه الميادين باللغة العربية ايضا ثم رحل من مصر الى المغرب ليعمل فى خدمة الخلفاء الفاطميين هناك . (٤)

---

(١) احسن التقاسيم ص٢٠٢

(٢) Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115.

(٣) Ibid. P. 115, et The Itinerary of Benjamin, T.2. P. 244.

(٤) Maurice Fargon : Op. Cit., P. 115.

وهكذا انتشر الاسلام بسرعة عظيمة فى مصر وصار دين الاغلبية العظمى بين سكانها ، كما انتشرت اللغة العربية وصار لها السيادة اللغوية ثم اصبحت لغة جميع سكان البلاد المصرية ، فى المعاملات السياسية والتجارية وفى الحياة الاجتماعية . كما استخدمها القبط فى كنائسهم بدلا من اللغة القبطية ومن ثم اندثرت اللغة القبطية حتى صار يعجز عن فهمها عامة القبط ولاشك فى ان ذلك كما تذهب بعض المصادر الحديثة كان ميزة من مميزات العربية على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل الفتح العربى لها لم تستطع القضاء على لغة المصريين كما حدث بالنسبة للعرب (١)

الشاهنامة للفردوسى

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٦٠
واذا قارنا ما حدث فى مصر بما حدث فى غيرها من البلاد المفتوحة نجد ان فتح العرب لايران مثلا والهند لم يقض على لغتها القومية ولم يقض على العقائد الدينية فيها عند الفتح قضاء تاما ولم يمنع اعتناق الاتراك الدين الاسلامى من احتفاظهم بلغتهم القومية والاندلس التى كانت تزدهر فيها الحضارة الاسلامية بعد فتح العرب لها تغلب على امرها فى اواخر العصور الوسطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين بعيدة عن اللغة العربية . انظر نفس المصدر ص ٢٦١ - ٢٦٢

٦ـ أثر سياسة الضرائب فى انتشار الاسلام والتعريب

يأتى فى مقدمة الضرائب الجزية والخراج • وقبل ان نخوض فى البحث فى هاتين الضريبتين وغيرهما ، يجدر بنا ان نعرف كلا من اللفظين فالجزية هى ضريبة الرؤوس اما الخراج فهو الضريبة العقارية المفروضة على الارض• (١) وقد كان لهاتين الضريبتين اثرهما فى ابعاد انتشار الاسلام والتعريب فى مصر•

ويرى فان برشم Van Berchem ان كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية وايضا جزية الرؤوس وانها احيانا تطلق على ضرائب اخرى تختلف فى طبيعتها عن هاتين الضريبتين • (٢) بينما يرى فلهاوزن ان لفظى خراج وجزية كانا لفظين مترادفين ولم يتعد مدلولهما معنى اتاوة Tribute وان العرب لم يميزوا بين ضريبة الارض وضريبة الرأس الا منذ سنة ١٢١ هـ• وكان من اشد المتحمسين لرأى فلهاوزن ، بكر G.H.Becker ويذهب بكر الى ان العرب فى مصر طلبوا اتاوة نقدية ، يحسب مقدارها بمعدل دينارين عن كل فرد من الرجال الى جانب اتاوة عينية تضاهى ضريبة القمح Embolé فى عهد الرومان وكانت هذه الاتاوات تجمع بواسطة المصريين طبقا للنظم البيزنطية — التى ابقى عليها عمرو بن العاص دون تغيير يذكر — ويضيف بكر الى ذلك ، ان جزءا من هذه الاتاوة كان يأتى عن طريق ضريبة الرأس البيزنطية القديمة • (٣)

ثم يقول بكر انه لما كان العرب هم الذين يتسلمون الضرائب دون القيام بجمعها او تقديرها فهم لهذا لم يميزوا باى شكل من الاشكال بين ضريبة الارض وضريبة الرأس وانه قد حدث اول تحول عن هذا النظام فى ولاية عبد العزيز بن مروان عندما فرض ضريبة رأس على الرهبان بمعدل دينار على كل منهم وذلك الى

(١) واسم الجزية مشتق من الجزاء اما جزاء على كفرهم لاخذها منهم صغارا لهم واما جزاء على امان المسلمين لهم لاخذها منهم رفقا • اما الخراج فهو كراء الارض وليس فيه صغار ولا ذلة لاهل الذمة كالجزية وكانت كل من الجزية والخراج حسب طاقة اهل الذمة • انظر فى ذلك الماوردى الاحكام السلطانية ص١٢٧ـ١٢٩ ابن الفراء : الاحكام السلطانية ص١٣٧ ـ ابو عبيد : الاموال ص٤١ ، ٧٢• الشافعى : الام جـ٧ ص٣٠ ـ ٣٢ وغيرها من كتب الفقه والخراج •

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٣٧

(٣) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص٣٠ـ٣٢

جانب ماكان يجمعه الموظفون المصريون • ويعد احصاء المكان الذى قام به عبيد الله بن الحبحاب ادخل عند ذلك النظام الحقيقى لضريبة الارض وضريبة الرأس • أى الخراج والجزية • ويستند فى ذلك الى ان كلمة خراج لم تذكر فى اية بردية يرجع تاريخها الى القرن الاول الهجرى فى مصر • (١)

والحقيقة اننا كثيرا مانجد خلطا فى المصادر التاريخية فى استعمال لفظى الخراج والجزية • فنرى احيانا لفظ الجزية يعنى ضريبة الارض وضريبة الرأس معا • كما اننا نجد احيانا لفظ الخراج بمعنى الضريبتين معا • او جميع مايجبى من اهل الذمة من الضرائب نذكر من الامثلة على ذلك ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى المسلم فهو يستعمل لفظ الجزية احيانا بمعناه الدقيق فيقصد به ضريبة الرأس واحيانا يستعمله للدلالة على كل الضرائب المفروضة على الذميين • كما انه يستعمله ايضا احيانا للدلالة على الخراج دون غيره من الضرائب • كما يستخدم لفظ خراج بمعنى ضريبة الرأس • (٢)

بينما نجد المؤرخ القبطى ساويرس يقصد احيانا بلفظ الخراج الضرائب عامة وكثيرا ما استعمله بمعناه الدقيق — اى ضريبة الارض — اما لفظ الجزية فلم يستخدمه على الاطلاق الا بمعناه الخاص وهو ضريبة الرأس • (٣)

نحو تسع صفحات حتى ص ١٠٢ ما علاقتها بالبحث ؟

الجزيـــة :

أما عن الجزية • وهى ضريبة الرأس • فنجد المصادر التاريخية العربية المختلفة تجمع على وجودها فى مصر الاسلامية حيث يلتزم بدفعها اهل الذمة • ويناقش دانيل دانيت بعض آراء الكتاب المحدثين فى ذلك فيشير الى ان المؤرخ كايتانى يرفض وجود مثل هذه الضريبة بينما يصفها بكريانتها حقيقة تاريخية وان كان يرى ان ضريبة الدينارين على كل فرد معدل نظرى استعمله عمرو بن العاص ليحسب به ما أراد ان

---

(١) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص٣٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٩ — ٢١٠

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ ج٢ ص١٢٦ — ١٤٣ — ١٤٥ م٢ ج١ ص٣

يحصل عليه من ايراد • وان الدخل الذى يؤدى منه الافراد ضريبتهم كان يأتى من اوجه نشاط مختلفة حسب عمل كل فرد منهم ولكن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعمل فى الزراعة وذلك كان ما يدفعه القبط من ضرائب من ايراداتهم من فلاحة الارض وعليه فان ضريبة الدينارين كانت اتاوة شملت الضرائب من جميع الانواع التى كانت تجبى من المصريين وان ضريبة الرأس كانت جزءًا من الاتاوة وانها ضريبة ضئيلة لا اثر لها تقريبا فى حصيلة الايراد • (١)

ونحن نرى انه من العسير قبول ما ذهب اليه بكر بشأن الجزية فى مصر ونقول ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب وانها تتضمن نسبة كبيرة لها شأنها فى مالية البلاد المصرية — كما سنرى — ونستدل على رأينا هذا بما جاء فى النصوص المختلفة بشأن الجزية او ضريبة الرأى والتى جاء فيها ان الجزية او بمعنى اخر معدل الدينارين لم يكن شاملا لجميع الضرائب التى التزم الذميون فى مصر بأدائها للعرب • ويؤيد ذلك ايضا كثير من اوراق البردى ويجدر بنا الاشارة الى النصوص والعهود المختلفة التى تضمنت فرض الجزية وغيرها من الضرائب على المصريين •

" فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر اعلاها واسفلها من القبط دينارين دينارين • عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم • ولا على النساء شئ • وعلى ان للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم •

---

(١) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٢٦ — ١٢٧ •
ويشير الى ان كل من قبلها وزن وبكرا ان ضريبة الرأس او معدل الدينارين عبارة عن اتاوة وليست جزية رأس والواقع انها ضريبة تجبى على الفرد تبدو وكأنها ضريبة رأس ولكنها شبيهة بها ويفسر بكر ذلك بان العرب لم يكن لهم شأن بالارض وان علاقاتهم كانت بالناس الذين يؤدون الضريبة الا ان هذا يؤدى الى الارتباك والحيرة ولنأخذ على سبيل القياس مثلا من حياتنا الحاضرة فنقول ان رسم الانتاج على الطباق او التعريفة الجمركية على السكر شبيهان بضريبة الرأى بمعنى ان الفرد يدفع نقودا بالفعل فى الاجراءات العملية لفرض الضرائب • نفس المصدر ص١٢٧

وان لهم ارضهم وأموالهم • لا يتعرض لهم فى شىء منها • فشرط هذا كلــه على ـ القبط خاصة واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية •وفرض عليهــم الدينارين• رفع ذلك عرفاؤهم (١) بالايمان المؤكدة فكان جميع من احصى يومئـذ بمصر اعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصوا وكتبو ورفعوا اكثر من ستة الاف الف نفس• وكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر الف الف دينار فى كل سنة• (٢)

ويذكر البلاذرى (٣) ان عمرو بن العاص لما عقد صلح نابليون فرض على كــل بالغ من القبط دينارين الا ان يكون فقيرا وان يدفع ملاك الاراضى منهم الى جانـب الدينارين ثلاث اراد ب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل • رزقــا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم بينهم• وان يقدموا لكل مسلم جبة صــوف وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين فى كل عام • ويجوز لهم ان يستبدلوا الجبة الصـوف بثوب قبطى • وفى مقابل ذلك يكون لهم الامان على اموالهم واملاكهم ولا تسبى نساؤهم واولادهــم•

كما جاء فى الامان الذى منحه عمرو بن العاص لقبط مصر "••وعلى اهل مصـر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ما جنى لصوتهم فان ابى احدا منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهـم • وذمتنا ممن ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك•" (٤)

---

(١) العريف هو العالم بالشىء ومن يعرف اصحابه ويذكر دى ساسى De Sacy ان العريف معناه الكاتب وهى مقابلة للكلمة اليونانية جرافسيان كاتب • انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام حاشية ص٣٧

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٢٣ــ٢٤ اما تكرار كلمة دينارين فلعل ذلك يعنى ان كل رجل من القبط سيدفع اربعة دنانير لان عمرو بن العاص قد اعفى القبط من دفع الجزية سنة الفتح على ان يؤدونها فى السنة التالية• ويؤيد ذلك رواية الواقدى (فتوح الشام جـ٢ ص٨٤) وتتضمن ان عمرا قــال للقبط عندما تسلم الحصن "••امناكم على انفسكم اولادكم وحريمكن منه منا عليكم وقد وضعت عنكم الجزية هذه السنة وفى السنة الاتية نأخذ منكم من كل محتلم اربعة دنانير••"•

(٣) فتوح البلدان ص٢١٦

ويقول ابو صالح الارمنى (١) " ملك عمرو الحصن وفتحه عنوة واستباع مافيـــــه وأمن اهله على انهم ذمة ووضع عليهم الجزية والخراج فى ارضهم • وان صاحب البونيـــة اى الفسطاط قرر على كل حالم دينارين وهى سبعة وعشرون درهما الا ثلثه الا ان يكون الحالم فقيرا • والتزم كل غنى موسر فى كل سنة بدينارين وثلاث ارادب حنطة • • وكان عدد القبط بمصر دون الشيخ الكبير العاجز والفتى الذى لم يبلغ الحلم • ستة الاف الف نفس وكان المحمول من جهتهم اثنا عشر الف الف دينار خارجا عن جزية اليهود بمصـــر واعمالها وحمل الى عمر بن الخطاب وهو اول مال حمل اليه من مصر " •

كذلك جاء فى عهود الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع بعض المدن المصرية مثل اخنا ورشيد والبرلس ان يفرض على كل قبطى جزية دينارين الى جانــــــــــب ارزاق المسلمين • (٢)

نستخلص من هذه الروايات المختلفة التى نصت على اداء المصريين الجزيـــــة ان الجزية كانت ضريبة مستقلة عن غيرها من الضرائب التى فرضها العرب على المصريين وان معدلها الذى اشارت اليه هذه الروايات لم يكن شاملا لجميع الضرائب • وان هذه الضريبة ضريبة رأس كالتى كانت فى العصر البيزنطى من قبل وتسمــــــــــى : Andrismos or diagraphon • (٣)

والى جانب ذلك كان لا يدفع الجزية الا الرجال البالغين القادرين بينمـــا يعفى منها الفقراء والشيوخ العجزة والنساء والاطفال ويؤيد ذلك ماكتبه الخليفـــة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص " • • ولا يضربوا الجزيـــة الا على من جـــرت

= (٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٤ — ٢٥ • القلقشندى : صبح الاعشى ج١٣ ص ٣٢٤ • تحصيل الاستيفاء فى مغازى المصطفى ورقة ١٠٩ أ • ب

(١) تاريخ ابو صالح ص ٢٨ — ٢٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٧٧ — ابو عبيد : الاموال ص ١٤١ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٥ ص ٣٦٤

(٣) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٩

عليها المواسى (١) ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ...» (٢).

نستخلص من الروايات التاريخية السابقة أيضا أن مقدار الجزية الذى التزم به المصريون كان متساويا بين الجميع وهو دينارين. والواقع كما يقول بعض الكتاب المحدثين انه لو كان العرب عاملوا اهل الذمة فى مصر على هذا الاساس لاشار المصريون عليهم منذ السنوات الاولى للفتح ولكان العرب قد عادوا بذلك الى ظلم الرومان وعسفهم وكانت حكومتهم – اى الحكومة الرومانية تعفى ذوى النفوذ والثراء من الاعباء المالية او على الاقل من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان كما أن هذا لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة التى كانت ترمى الى التقرب الى اهل البلاد المفتوحة والى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف، وانما بحسن السياسة. (٣)

والواقع أن مقدار الجزية الذى الزم به اهل الذمة فى مصر كان يتناسب وثروة الذمى وماله من دخل وانه لم يكن واحد بالنسبة لجميع الذميين وذلك أسوة باهل الذمة فى البلاد الاسلامية الاخرى. ونرى الفقهاء يجمعون على ان الجزية كانت تتناسب وثروة الذمى وسواء كان من القبط او اليهود وكانت الجزية على ثلاث مستويات الموسر يؤدى ثمانية واربعين درهما ويؤدى المتوسط الحال اربعة وعشرين درهما اما من دون هؤلاء فسيدفع اثنا عشر درهما كجزية رأس". (٤)

---

(١) المواسى : جمع موسى والمراد هنا من بلغ الحلم من الرجال
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥
وكان ذلك هو حكم الجزية فى الاسلام فى البلاد المفتوحة كلها.
انظر ايضا : ادم القرشى : كتاب الخراج ص ٧٣
(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٨
(٤) ابو يوسف : الخراج ص ١٢٢ – ١٢٤ – ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص ٢٦ – ٢٧ ابن الفراء : الاحكام السلطانية ص ١٣٩ – الشعرانى : الميزان جـ ٢ ص ١٤٥ – الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ١ ص ١١٢

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ومن نزل منهم على الجزية • ولم يسم شيئا نظر عمر فى امره فاذا احتاجوا خفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم ". (١)

ويبدو من بعض الاحداث التاريخية ان العرب عند فتحهم لمصر لم يحددوا الجزية تحديدا نهائيا وانما اهتموا بفرضها وتركوا تحديدها للوالى او الخليفة• كما يتضح ذلك ايضا من نص معاهدة بابليون• فقد حدث ان جاء الى عمرو بن العاص عقب الفتح طلما صاحب اخنا وسأله عما عليهم من جزية حتى ينظموا شئونهم• فأجابه عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : " لو اعطيتنى من الارض الى السقف ما اخبرتك ما عليك انما انتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم•وان خفف عنا خففنا عنكم ". (٢) • اى ان عمرو بن العاص لم يحدد مقدار الجزية المقررة على المصريين عند الفتح ويمكن القول ان مقدار الدينارين التى اشارت اليه بعض النصوص التاريخية انما كان عقب الفتح وليس عند عقد الصلح كما ان معدل الدينارين لم يستمر طوال تاريخ مصر الاسلامية كما سنرى•

وتؤكد اوراق البردى المختلفة ان الجزية فى مصر كانت تتناسب فى الواقع مع ثروة الذمى وان مقدار الجزية المفروض على اهل الذمة لم يكن متساويا بين الجميع ففى كتاب من قرة بن شريك الى صاحب كورة اشقوه نجده يأمره فيه بان يرسل كشفا بالاماكن المختلفة بعدد الرجال فى كل مكان وما عليهم من جزية واملاك كل منهم من الارض وما يباشرونه من الاعمال ويطلب ايضا من صاحب الكورة الا يوجد اى مجال للشكوى او للاستياء منه •ويذكره بانه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل• (٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧

(٣) H.I. Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum. PP.272-273

وبناء على ماجاء فى هذا الكتاب فانه لو كان كل ذمى يدفع جزية مساوية لما يدفعه الاخر لما استدعى الامر ان يطلب والى مصر من صاحب هذه الكورة كشفا بما يملكه كل شخص ومايقوم به من عمل وما عليه من جزية • ولما طلب من صاحب الكورة ان يكون عادلا فى عمله ولما هدده اذا هو لم يتبع طريق الحق ، او اوجد اى مجال للشكوى او الاستياء من جانب اهل كورته • وانه لو كانت الجزية متساوية بالنسبة لجميع الذميين لاكتفى الوالى بمعرفة عدد الرجال ، وبذلك يتمكن من معرفة مقدار الجزية الواجبة عليهم • (١)

يدلنا على ذلك ايضا كتاب آخر لقرة بن شريك يطلب فيه من صاحب الكورة ، ان يعدل فى تقرير الضرائب الواجبة على كل فرد وان يسهل عليهم الاتصال به كى يسمع مايقولون • (٢) كما حفظت لنا اوراق البردى ايضا كشوفا دونت فيها اسماء اشخاص مختلفين ترجع هذه الكشوف الى القرن الثالث الهجرى • وقد ذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل منهم • ونلاحظ فيها اختلاف مايؤديه كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا وثلث وثالث يؤدى ربع وثمن دينار وهكذا • (٣)

وتؤكد اوراق البردى اليونانية ان ضريبة الرأس كانت تتفق ومدى يسار دافع الضريبة وانه لتسهيل عملية التقدير كان العرب المسلمون يحسبون دافع اقل او اكثر من رجل كامل • وان المعدل الذى تقرر لضريبة الرأس كان دينارا لمتوسط دفع الضريبة وهو الرقم الذى ذكره المؤرخون المسلمون •

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام •

(٢) Bell : Op. Cit. PP. 280 - 282.

(٣) جروهمان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٩٢ــ١٩٩

وهكذا اجبر العرب المسلمون بعض الرجال انهم اقل من رجل كامل او اكثر وذلك حتى يمكنهم ان يعدوا بين الغنى والفقير فى اداء ضريبة الرأس على اســاس معدل الدينارين للرجل الموسر منهم • وعليه اجبر دافع الضريبة فى السطر الثالث ثلثى رجل فادى ضريبة رأس مقدارها دينار وثلثه ذلك لان متوسط الضريبة دينارين للرجل الكامل • وفى السطر العاشر اجبر دافع الضريبة نصف رجل ولذلك ادى نصف المعدل اى دينار واحد • وفى السطر الاخير اجبر دافع الضريبة خمسة اسداس رجل وعليه ادى دينار وثلث دينار • وهكذا • • •

كما تشير اوراق البردى الى ان كثيرا من الولاة فى مصر كانوا يميلون الى توخى العدل فى جباية الجزية وعدم مطالبة شخص دون اخر او التساهل مع احدهم وعدم التساهل مع الاخرين ويدلنا على ذلك ما جاء فى احدى البرديات اليونانية المحفوظة فى المتحف البريطانى :

"خوفا من الله • وحفظا للعدالة والحق فى توزيع القدر المفروض عليهم رتب ناظرا يعاونه اربعة من البارزين فى كورتك لمساعدتهم فى جمع الضرائب فاذا فرغوا من ذلك فابعث الينا بكلفه شاملة للتفاصيل المتعلقة بالمبلغ المطلوب من كل واحد منهم مبينا فى هذه الكلفة اسماء الاشخاص الذين جمعت منهم هذه الجزية المقررة ومكان اقامتهم ولاتجعلنا نعرف انك قد خدعت اهل كورتك باى صورة من الصور فى مسألة الضريبة التى كلفت بها • او انك حابيت او ظلمت احدا ما فى جمعها • لاننا نعرف ان الاشخاص المكلفين بدفعها لابد وان لايطيعوا بعضا وامرك • فاذا وجدت انهم قد عاملوا احداما بلين زائد نتيجة محاباتهم اياه او اثقلوا عليه غاية الاثقال لكراهيتهم اياه فاننا ينتقص منهم فى اشخاصهم واملاكهم تنفيذا للشرع • ومن انذرهم وحذرهم واخبرهم ان لايرهقوا عاملا والا يحملوه ما لايطيق حتى ولو كان بعيدا عنهم او ليس من زمرتهم فى جمع الضرائب ولكن يجب معاملة الجميع بالعدل واخذ الشىء من كل منهم بقدر طاقته ومر جباة هذه الضريبة بان يبدأوا باتفاق ســدون يبينون فيه انه اذا ثبت بعد التحصيل انهم كلفوا احدا فوق قدرته وخففوا عن احد تماما فانهم يتحملون جميعا سد النقص فيما بينهم بالتساوى وسيكونون عرضة — الى جانب ذلك للعقاب الشديد جزاء عدم انصاعهم لامرنا ويجب ان يرسل الاتفــاق

المذكـور الينا بوفقة المكلفة المشتملة على ماقرر على كل شخص ". (١)

والواضح من اوراق البردى ومن الروايات التاريخية المختلفة ان الجزية فى مصر كانت تدفع نقدا بالدنانير وكسور الدنانير وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ماورد فى قطع الاوستراكا (٢) وفى اوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية باسم دمزيا اما فى اوراق البردى العربية فتعرف باسم الجزية. (٣)

الخـــراج :

اما ضريبة الخراج فاننا نتساءل من قبل الحديث عن هذه الضريبة وماكـــان من شروطها ومقدارها وكيف كانت تجبى ـ هل مصر فتحت صلحا أم عنوة ؟؟ (٤)

---

(١) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٢) قطع من الفخار والاحجار كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ولاسيما الاغريق والفراعنة والقبط واستنبط منها علماء الاثار كثيرا من الحقائق التاريخية. انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام حاشية ص ٢٧.

(٣) نفس المصدر ص ٤١

(٤) ولهذا التساؤل اهمية عظيمة لان حكم البلاد المفتوحة صلحا يختلف عن حكم البلاد المفتوحة عنوة اى بالقوة والقهر. ذلك ان الاراضى التى يتم فتحها صلحا بعقد العهد والامان تكون فيئا للمسلمين. والفيء هو ماصولح عليه المسلمون من الجزية والخراج . فاذا كانت مصر فتحت صلحا وعقـــد بين المسلمين والمصريين عقد بدون قتال يتفق المصريون مع العـــــرب على مقدار الجزية والخراج التى تدفع للمسلمين دون التعرض لاراضى المصريين او اخذها منهم قهرا او عنوة. اما الاراضى التى تفتح عنوة فتصير غنيمـــة تقسم بين الفاتحين وذلك عملا بالاية الكريمة ـ سورة الانفال اية ٤١.
(واعلموا ان ماغنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) وعلى هذا فان خمس ماغنم الفاتحون يكون لمن سماهم الله سبحانه وتعالى لايكون لسواهم ويكون للامام تقسيمه فيمن حضر منهم بعد ان يجتهد رأيه ويتحرى العدل. اما الاربعة اخماس الاخرى فتكون للمسلمين الغالبين وتقسم بينهم بالتساوى وعلى هـــذا الاساس اذا كانت مصر فتحت عنوة فانها تصبح غنيمة للعرب وتصير اراضـــى مصر ملكا للمسلمين. انظر يحيى بن آدم القرشى : الخراج ص ١٧ ـ ١٨ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٤٢

نلاحظ اختلاف الروايات التاريخية بشأن الاجابة عن هذا التساؤل• واختلط الامر على المؤرخين انفسهم مثل ابن عبد الحكم (١) والمقريزى (٢) وابو المحاسن (٣) والسيوطى (٤) فنجد كل مؤرخ من هؤلاء يذكر بعض الروايات التى يذهب اصحابها الى مصر قد فتحت جميعها صلحا الا مدينة الاسكندرية وبعض المدن والقرى المجاورة لها بينما يشير الى روايات اخرى تتضمن ان مصر قد فتحت عنوة•

اما المجموعة الاولى من الروايات فقد جاء فى احدها : "ان عمرا لما فتح الاسكندرية بقى من الاسارى بها من بلغ الخراج • وأحصى يومئذ ست مائة الف • سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو فى قسمهم • فكان اكثر المسلمين يريدون قسمها فقال عمرو : لا اقدر على قسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين• فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها وان المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر : لاتقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم • فأقرها عمرو وأحصى اهلها وفرض عليهم الخراج • ففتحت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين على كل رجل لايزاد على احد منهم فى جزية رأسه اكثر من دينارين الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع الا اهل الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلحا ولا ذمة "• (٥)

ونحن نرى ان فتح الاسكندرية عنوة كان فى المرة الثانية عندما حاول الرومان استردادها من ايدى المسلمين فى سنة ٢٥ هـ بينما كان قد تم فتحها صلحا فى بادئ الامر كما جاء فى كتاب حنا النقيوسى• (٦) وعقد عمرو بن العاص مع سكان المدينة الصلح •

---

(١) فتوح مصر واخبارها ص٧٤ـ٨٢
(٢) الخطط جـ٢ ص ٧٢ـ٧٤
(٣) النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٩ـ٢٠
(٤) حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٥ـ١٢٩
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٧٦
(٦) Chronique de Jean. P. 455.

كما تشير بعض الروايات من هذه المجموعة الى عقود صلح مع كثير من المدن المصرية — وهى المدن التى صالح عمرو اهلها على صلح شبيه بصلح بابليون ومن هذه المدن اخنا ورشيد والبرلس . (١) والفيوم واخميم والبشرودات وقرى الصعيد وسائر مدن الوجه البحرى فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت ارضها ارض خراج ". (٢) وكان لهم فى عهدهم ستة شروط " ان يؤخذ من ارضهم شىء ولا يزاد عليهم ولا يكلفون غير طاقتهم ولا يؤخذ دراريهم وان يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم ". (٣)

اما المجموعة الثانية من الروايات التى يرى فيها رواتها ان مصر فتحت عنوة فتستند فى ذلك الى عدم وجود اى عقد او عهد بين المسلمين الفاتحين وبين المصريين سكان البلاد وقد جاء فى بعض هذه الروايات ان عمرو بن العاص كان يقول : " لقد قعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد ان شئت قتلت وان شئت بعت وان شئت خمست . (٤)

ومهما اختلفت هذه الروايات التى ضمنها المؤرخون كتبهم فقد اجمع هؤلاء المؤرخين على ان مصر قد عوملت معاملة البلاد المفتوحة صلحا ففرض العرب الفاتحون الجزية على الرؤس والخراج على الارض وقد حدد صلح بابليون مصير مصر السياسى — كما ذكرنا من قبل — وهكذا كما تذهب بعض المصادر الحديثة — بالرغم من ان مصر قد فتحت عنوة فان العرب فى نفس الوقت قبلوا عقد الصلح مع المصريين لانهم اعتبروا انفسهم محاربين للرومان لا المصريين . كما انه عند ما فتح العرب الاسكندرية فى سنة ٢٥هـ عنوة كان انتصارا على الرومان وعلى امبراطورهم قسطنطين الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى اعطاه العرب للمصريين . (٥)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٧٧

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٨

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٧٨ — وبناء على ذلك رفض وردان عامل الخراج فى مصر فى عهد الخليفة الاموى معاوية بن ابى سفيان — ان يزيد على كل رجل من القبط قيراطا كما امره الخليفة وقال : كيف تزيد عليهم وفى عهدهم ان لا يزاد عليهم شىء .

(٤) ابو عبيد : الاموال ص١٤٠ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٨٠

(٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٤

ويؤيدنا فى ذلك ما ذكره البلاذرى [١] فى رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقال : " اشتبه على الناس امر مصر ، فقال قوم : فتحت عنوة ، وقال آخرون : فتحت صلحا ، والثلج [٢] وفى امرها ان ابى قدمها فقاتله اهل اليونة [٣] ففتحها قهرا وادخلها المسلمين ، وكان الزبير اول من علا حصنها ، فقال صاحبها لعمرو : انه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود واقراركم الارض فى ايدى اهلها يعمرونها ويؤدون خراجها ، فان فعلتم بنا مثل ذلك كان ارد عليكم من قتلنا وسبينا واجلائنا ، قال : فاستشار ابى المسلمين فاشاروا عليه بان يفعل ذلك الا نفر منهم ، سألوا ان يقسم الارض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية الا ان يكون فقيرا والزم كل ذى ارض مع الدينارين ثلاثة ارادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمين فألزم جميع اهل مصر لكل رجل منهم ، جبة صوف وبرنسا [٤] او عمامة وسراويل [٥] وخفين فى كل عام او عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا ، [٦] وكتب عليهم بذلك كتابا وشرط لهم اذا وفوا بذلك ان لاتباع نساؤهم وابناؤهم ولا يسبوا ، وان تقر اموالهم وكنوزهم فى ايديهم فكتب بذلك الى امير المؤمنين عمر فاجازه وصارت الارض ارض خراج الا انه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس انها فتحت صلحا ، قال : ولما فرغ ملك اليونة من امر نفسه ومن معه فى مدينته صالح من جميع اهل مصر على مثل صلح اليونة فرضوا به ، وقالوا : هؤلاء الممتنعون [٧] قد

---

(١) فتوح البلدان ص٢١٦ - ٢١٧

(٢) الثلج ماتطمئن اليه النفس وترتاح له وتشربه — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام — حاشية ص٤٤

(٣) المقصود بها بابليون

(٤) البرنس : هو كل ثوب غطاء الرأس جزء منه كما يعنى القلنسوة الطويلة او رداء ذو كمين يلبس بعد الحمام والمقصود هنا القلنسوة التى كان يرتديها المسلمون فى صدر الاسلام ، انظر الوسيط جـ١ ص٥٢

(٥) السروال : لباس يغطى الجزء الاسفل من الجسم ، الوسيط جـ١ ص٤٣٠

(٦) كانت الثياب القبطية ذائعة الصيت مشهورة بدقة صناعتها وارتفاع ثمنها ،

(٧) امتنع عن الشئ يعنى كف عنه وامتنع بالامر اى تقوى واحتمى به ، والمنيع اى القوى الشديد ، انظر الوسيط جـ٢ ص٨٩٥ والممتنعون هنا بمعنى الاقوياء .

قد رضوا وقنعوا بهذا ، فنحن به أشح لانا فرش (١) لامتعة لنا . ووضع الخراج على ارض مصر فجعل كل جريب (٢) دينارا وثلاث ارادب طعاما ، وعلى رأس كل حالم دينارين . وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وهكذا ترك العرب الاراضى فى ايدى اصحابها المصريين دون التعرض لها وتقسيمها بين الفاتحين . ويؤكد ذلك ايضا ماجاء فى نص العهد او الامان الذى منحه عمرو بن العاص للمصريين عقب الفتح مباشرة . " هذا ما أعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص . " (٣) وفى رواية اخرى ، ان من الشروط التى اشترطها عمرو بن العاص للمصريين ايضا ان تكون لهم ارضهم واموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها . (٤)

ويتضح لنا من رواية البلاذرى ان ضريبة الخراج فى مصر كانت قسمين : قسم يؤخذ نقدا بالدنانير . والقسم الثانى يؤخذ عينا من الحنطة والزيت والعسل والخل وغير ذلك من الوان الطعام ، يؤكد ذلك لنا ماتضمنته كثير من اوراق البردى مما يشير الى ان ضريبة الخراج كان المصريون يدفعونها نقدا وعينا .

---

(١) الفرش : تعنى فرش البيت او الفضاء الواسع من الارض او صغار الانعام . قال تعالى : " ومن الانعام حمولة وفرشا " . الوسيط جـ٢ ص ٦٨٩ . والمقصود هنا المعنى الثانى .

(٢) الجريب : وحدة تقاس بها الارض . وهو عبارة عن عشر قصبات فى عشر قصبات . الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٤٧ ـ ويقول الاب انستاس الكرملى فى كتابه النقود العربية وعلم النميات ان اهل البصرة يعرفون الجريب الى يومنا هذا . وهو عندهم نحو مائة نخلة ومن غير النخيل ارض مساحتها هكتار والهكتار يساوى عشرة آلاف متر مربع .
سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام حاشية ص٤٥

(٣) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٩٩ او مايليها ــ ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٤ ــ ومايليها . القلقشندى : صبح الاعشى جـ١٣ ص ٣٢٤

(٤) ابن عبدالحكم : فتوح مصر واخبارها ص٦٤

فهناك بردية تتضمن كتابا من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ الى اهل شبـرا بسيرو من كورة اشقوه يطلب فيه منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قمحا . وقد جاء فى هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من قرة بن شريك لاهل شبرا بسيرو من كوره اشقوه انه اصابكم من جزية سنة ٨٨هـ مائة دينار واربعة دينار وثلثى دينار عددا . ومن جزية الطعام احد عشر اردب وثلث اردب قمح . وكتب راشدة فى صفر من سنة ٩١ هـ " . (١) وفى بردية اخرى نجد كتاب قرة بن شريك الى اهل باكونيس من كورة افروديتى (اشقوه) يعلمهم ما اصابهم من الجزية سنة ٨٨ هـ اى من ضريبة الرأى وما اصابهم ايضا من ضريبة الطعام اى الخراج فى هذه السنة . (٢)

وهكذا نجد ان ضريبة الطعام فى هذه البرديات وغيرها لابد وانها تعنى ضريبة الارض او بمعنى اخر الخراج . او جزءا منه وهو ما يدفع عينا ويسمى ترتون (٣) هذا الجزء من ضريبة الخراج بضريبة الغلة . اما فى اوراق البردى اليونانية فتسمى امبولا - Embola (٤) بينما فى اوراق البردى العربية تسمى كما رأينا . ضريبة الطعام . ويؤكد ذلك بردية اخرى تتضمن كتابا خاصا بضريبة الطعام مرسل الى الوالى قره بن شريك من عاملين هما : بقطر بن شيود وسيوس وابا قيرس بن اندرياس . (٥)

ونجد فى اوراق البردى ايضا ما يؤكد ان جزءا من ضريبة الخراج كان يدفع نقدا . فهناك بردية تتضمن كتاب من قرة بن شريك لصاحب كورة اشقوة .

---

(١) جروهمان : اوراق البردى — السفر ٣ ص ٤٧ — ٤٩
(٢) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٥
(٣) اهل الذمة فى الاسلام ص ٢١٣
(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodite Papyri, P.271.
(٥) جروهمان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ٦٠

يطلب فيه منه ان يرسل اليه القمح المفروض على اهل كورته ويخبره انه اذا وجد الاهالى صعوبة فى دفع الجزية غلة فلا بأس من دفعها نقدا . ويحدد له مايعادل عددا معينا من الاراداب نقدا ولكنه يطلب منه ان يحصل على ارسال القمح لا النقود . (١)
وكذلك حفظت لنا اوراق البردى ايصالات عن خراج سنة ٢٧٨ هـ وسنة ٢٨٧ هـ ، سنة ٢٩٣ هـ ، سنة ٣١٢هـ ، سنة ٣١٣هـ . لبعض الاشخاص وتتبين منها ان الخراج دفع نقدا . (٢)

ويجدر بنا الاشارة الى ان اهم ماكان يجبى فى ضريبة الطعام هو القمح الى جانب انواع اخرى من الطعام . وكانت الغلال ترسل منذ السنوات الاولى للحكم العربى فى مصر الى العاصمة الاسلامية ، المدينة ، ثم انقطع ارسالها فى فتنة عثمان بن عفان ثم اعيد حملها الى المدينة فى عهدى معاوية وابنه يزيد ، ثم انقطع فى خلافة عبدالملك بن مروان . واستمر بعد ذلك حمل الغلال الى المدينة حتى عهد الخليفة العباسى جعفر المنصور . (٣) ولعل هذا الامر هو الذى جعل الاب لامانس(٤) Lammans يقول : ان مصر لم تكن لها سوى اهمية اقتصادية اذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب

---

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P.24

(٢) جروهمان : اوراق البردى — السفر ٣ ص ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢١٧—٢١٨
ويذكر ان اهل مصر صولحوا بعد صلحهم الاول على ان يؤدوا مكان الحنطة والزيت والعسل والخل دينارين . فألزم كل رجل ذمى باداء اربعة دنانير بينما يقول اليعقوبى ان عمرا جبى مصر ١٤ مليون دينار من خراج رؤسهم اى الجزية لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة اردب اردبين .
انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٤٩—٥٠ . وتقول ان الغلال كانت ترسل بطريق البحر حتى خلافة المنصور الذى امر بضم خليج امير المؤمنين الذى كان يصل مصر ببلاد العرب بحرا . وكانت الغلال ترسل الى المدينة فى بادئ الامر باعتبارها مقر الخلافة الاسلامية . ولم يبطل ارسالها اليها بالرغم من انه قد حل محلها عواصم اسلامية اخرى . وبالرغم من التغيرات السياسية التى حدثت بمصر وفى الخلافة نفسها . انظر ص٥٢

(٤) Un Gouverneur Omaiyade d'Egypte, P. 102.

ويتضح لنا من الروايات التاريخية المختلفة ان ضريبة الخراج كانت تجبى من المصريين على اساس مساحة الارض التي يملكها الشخص. كما انه كان يراعى فى ذلك حالة فيضان النيل فى كل سنة لارتباطه بالزراعة. وقد لمسنا ذلك من نص العهد الذى اعطاه عمرو بن العاص للمصريين. [(١)] ويتضح لنا ذلك ايضا من روايات ساويرس عن مدى اهتمام المصريين بل والولاة ايضا بفيضان النيل حتى يتمكنوا من جباية الخراج وماكان يحدث - كما رأينا - من اشتراك الجميع فى الدعاء والصلاة من اجل زيادته.

ويقول ابن مماتى [(٢)] " وفى كتب المصريين ، اذا أوفى النيل ستة عشر ذراعا فقد وجب الخراج واذا زاد عن ذلك ذراعا زاد الخراج مائة الف دينار ، فان نقص ذراعا نقص الخراج مائة الف دينار. ولا يبعد ان يكون ذلك فيما تقدم من السنين عند بلوغ العمارة الى حد احتمل به هذا القدر. فأما الان فقد تغيرت الاحوال واختلفت احكام الاعمال " كذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجه الارض وحالة الاراضى اذا كانت عامرة أو غامرة.

وقد كتب الماوردى [(٣)] فى هذا المعنى فقال : ان الارض تختلف من ثلاثة اوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه " احدها مايختص بالارض من جودة يزكو بها زرعها ، او رداءة يقل بها ريعها. والثانى مايختص بالزرع من اختلاف انواعه من الحبوب والثمار فمنها مايكثر ثمنه ومنها مايقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه. والثالث مايختص بالسقى والشرب لان ما التزم المؤنة فى سقيه بالنواضح [(٤)] والدوالى [(٥)] لايحتمل من الخراج مايحتمله سقى السيح [(٦)] والامطار ".

---

(١) تاريخ البطريرك جـ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٤ - ٢٥ وقد ذكرنا نص هذا العهد.

(٢) قوانين الدواوين ص ٢٧

(٣) الاحكام السلطانية ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الناضح اى الدابة التى تحمل الماء من البئر او النهر لسقى الزرع والجمع نواضح. الوسيط جـ٢ ص ٩٣٦

(٥) المفرد دالية وهى الساقية او الناعورة او الدلو ويثبت برأسه خشبه على شكل صليب ثم يشد بها طرف حبل وطرفه الاخر بجذع قائم على رأس البئر ويستقى بها. الوسيط جـ١ ص ٢٩٥.

(٦) الماء الجارى الظاهر على سطح الارض. الوسيط جـ١ ص ٤٦٩

ومن الناس لمن اجبر شرطا رابعا وهو قربها من البلدان والاسواق ز وبعدهـــا لزيادة اثمانها ونقصانها ، وهذا انما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا • [١] ولا يعتبر فيما يكون خراجه حبا • [٢] ، وتلك الشروط تعتبر فى الحب والورق •

وهناك نوعان من الخراج ، خراج الجزية ، وهو الخراج الذى يفرض على الارض التى صلوح اهلها على ان تكون لهم • اما النوع الثانى فيسمى خراج اجرة ويفـــرض على الارض التى صولح اهلها عليها على ان تصير وقفا ولا يسقط عنها باسلامهم او بانتقالها الى غيرهم من المسلمين• [٣] وكان الخراج فى مصر من نوع خراج الجزية لان الاراضى المصرية تركت فى ايدى اصحابها يزرعونها ويؤدون الخراج عنها •

ضرائب اخرى :

كان على المصريين الى جانب الجزية والخراج ، ضرائب اخرى متعددة الانواع ، وان كنا لانجد اشارة لكثير منها فى كتب الفقه والتشريع الاسلامى • ويقول ترتون [٤] لمعتمد على ماوصل اليه من اوراق البردى اليونانية والقبطية والعربية انه كان هناك ضرائب متعددة فكانت ضريبة الارض تدفع نقدا او عينا ، اما الضريبة الثلاثية - Tetartia فكانـــت تدفع نقدا ، وأما المحاتيد [٥] فالظاهر ان المادة جرت على دفعها نقدا • وهنـــاك محاتيد معينة من اللبن والعسل والجزية• ولم يكن يدفع المسلمون شيئا من هــــذه الضرائب بمعنى ان عبء الضرائب كله كان يقع على عاتق اهل الذمة فى مصر• ويقـــول فى موضع اخر ان الضريبة الثلاثية كانت تبلغ على وجه التقريب جزء من مائة من الخـــراج • وانه من الجدير بالملاحظة ان هناك قائمة واردة فى مجموعة رينيه• تحتوى على ثـــلاث ضرائب نقدية كما يشير احد المؤرخين السريان الى الضرائب والجزية والخراج •

---

(١) الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة وجمعها اوراق ووراق • الوسيط جـ٢ ص١٠٢٨ وهنا بمعنى النقود •

(٢) اى الغلال•

(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٤٢

(٤) اهل الذمة فى الاسلام ص٢١١ـ٢١٢، ٢١٧

(٥) المحاتيد ترجمة لكلمة Requisitions والمحاتيد اصطلاح عراقى للطلبـــات المالية التى تقتضيها المصلحة العامة من الافراد لاسيما بين العشائر• المصدر السابق حاشية ص٢١١

بينما نرى دانيل دينيت [١] يقسم الضرائب التى كان يؤديها اهل الذمــة فى مصر بناء على ماجاء فى الاوراق البردية ــ الى سبع فئات هى :

١ـ الضريبة النقدية Demosia

٢ـ ضريبة الـ Tetartia وقدرها واحد فى المائة من الضريبة النقدية ويرجــع انها كانت لتغطية نفقات جميع الضرائب.

٣ـ مايسمى Aparurismos dianamon aneu-timesos وهو مقدار من المال مخصص لامدادات خاصة ، يطلبها العرب وتشترى حسب سعر السوق وقد ذكر تحــت هذا البند الاغنام والدواجن الزبيب والنبيذ والاوتاد الخشبية وجذوع النخــل وغير ذلك .

٤ـ Apargurismos dianamon tetimései

وهو حساب شراء ادوات وامدادات تطلبها الحكومة حسب تعريفة محددة او جدول اسعار وقد ذكر من بينها الحصر والحبال والخيش اللازم لعمل الاجولة.

٥ـ ضريبة لبن لصنع الزبد وتسمى Apargurismos galaktus

٦ـ ضريبة على عسل النحل Apargurismos melitos

وهذه الضريبة لايؤديها سوى افروديتى نفسها وبوكانيس .

٧ـ Logismia وتتضمن مقدارا من المال يستقطع خصيصا من جميع الحصــص الضريبية ما عدا الضريبة الثلاثية وضريبة العسل وكانت هذه الضريبة محـــددة بعناية ويؤخذ منها المبالغ اللازمة لجميع الاغراض الاعتيادية لتغطية نفقـــات العمال وبناء السفن وشراء المسامير والحبال والقوارب وغير ذلك .

وتحفظ بعض اوراق البردى اليونانية كشوفا بالضرائب المفروضة على بعض الاديرة ، نذكر منها القائمة التالية : [٢]

---

(١) الجزية والاسلام ص١٥٣ ــ ١٥٤

(٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص٢١٧ــ٢١٨

وجه الصرف	ابا ارمانوس	بربروسة	مريم المقدسة
لامير المؤمنين	—	—	—
بضائع للسفن	٢/٣	—	٢/٣
قماش لخيمة من الشعر	٥/١٢	١/١٢	٥/١٢
غرامة	٢٨ ١/٣	—	٣٣ ١/٢
لبحارة الاسطول ومصاريف وقسطان خل للمهاجرين	١/٢	١/٢	١/٢
قسطان من خل لمهاجرى الاسطول	—	١/٢	٣/٤
حرية بضائع عند القلزم	١/٣	١/٦	١/٦
اكوام للوصف	—	—	١/٦
مصاريف للوالى	٥/٦	—	٥/٦
العناية بالاكوام	—	—	١/٤
بضائع الى القلزم	١/٤	١/٤	—
بحارة للاسطول الاناضولى ومصاريف اخرى	١/٤	—	—
اربعون عاملا لجامع دمشق	١/٢	—	—
للعناية بالاكوام والسلال	—	٢٠	٥٠
المجموع	٣١ ٢/٣	٢٢ ١/٤	٣٦ ١١/١٢

ويعقب ترتون [١] على هذه القائمة التي جاءت في احدى البرديات مستشهدا ببردية اخرى جاء فيها ان الوالي كان يحتاج الى مواد مختلفة " لاطالتنا وللعمال الذين معنا من العرب والنصارى على السواء ولغيرهم " كما ان الاساطيل كانت في حاجة الى كثير من البحارة الذين يلتزم لهم دافعوا الضرائب باجورهم وكذلك الحال ازاء العمال الذين كان لابد من انفاذهم للعمل في بيت المقدس ودمشق ويضف الى ذلك فرار كثير من الفلاحين المصريين من قراهم وتخليهم عن اراضيهم . وقد لانكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا ان فداحة الضرائب كانت احدى الدوافع لهم على ذلك وان هذا الموقف من جانب الحكومة العربية ادى الى حمل كثير من الفلاحين المصريين احيانا على ترك اراضيهم . ومن الجلي ان هناك تناقض واضح بين مايراه الفقهاء والمشرعون وبين الوقائع الواردة في اوراق البردي اذ تبرهن البرديات على وجود ضرائب لم تتضمنها احكام الاسلام نحو اهل الذمة .

ويقول دانيل دينيت [٢] : انه من المؤكد انه كان " هناك حصة من المال لم تكن تسدد للعرب وانه كان في استطاعتهم ان يرسلوا اوامر خاصة في طلب اشياء بعينها او خدمات تؤدى قيمتها من هذه الحصة حتى تستنفد . وبهذا نعرف تماما ان جميع المطلوبات الخاصة والاوامر التي تظهر دائما في خطابات الوالي الى الباجارك لاتمثل اعباء اضافية وانما هي امدادات قد دخل حسابها ضمن ميزانية قائمة بذاتها نشأت من استقطاع مقدار معين من كل الضرائب العادية .. " .

ونستخلص من الروايات التاريخية التي تضمنتها المصادر العربية ان عمرو بن العاص عند فتحه البلاد المصرية ألزم المصريين ببعض الالتزامات العادية او بمعنى آخر بضرائب عينية يأتي في مقدمتها ارزاق المسلمين التي تجمع وتوزع على الجند المسلمين وتتكون من الحنطة والزيت والعسل والخل . وتحفظ لنا المصادر العربية نصين بشأن هذه الارزاق .

---

(١) اهل الذمة في الاسلام ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٢) الجزية والاسلام ص ١٥٤

فيشير ابن عبد الحكم (١) الى ان عمر بن الخطاب كان قد كتب الى امـــراء الاجناد لتحديد الجزية على الذين بلغوا من سكان البلاد المفتوحة الى جانب ارزاق المسلمين ومن بين هذه البلاد مصر . وقد جعل على المصريين لكل مسلم اردبا فـى كل شهر ومقدارا معينا من الودك والعسل وايضا بعض الثياب .

بينما يقول البلاذري (٢) "... والزم كل ذى ارض مع الدينارين ثـــلاث ارادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم .. والزم جميع اهل مصر ان يقدم لكل رجل منهم ـ اى من المسلمين ـ جبة صوف وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين فى كل عام او بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا ".

والى جانب ارزاق المسلمين وكسوتهم ، اشترط على المصريين ضيافة من نـــزل عندهم من المسلمين ثلاث ليال . تقول الرواية العربية "... وعلى ان للمسلمين النـزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهـم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم .. ". (٣)

كانت الاسباب التى دفعت العرب الى اشتراط واجب الضيافة على المصريـيــن هو ان العرب فى بداية الامر كانت اقامتهم قاصرة على العاصمة والثغور المصرية لحمايتها والدفاع عنها وواجب الضيافة اخذه العرب عن الرومان والبيزنطيين فى مصر . (٤)

وتؤكد اوراق البردى ما تشير اليه المصادر العربية من التزامات مادية ـ غير الجزية والخراج ـ التزم المصريون بها عند الفتح العربى لمصر . فهناك بردية يرجـع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢م) جاء فيها : "بسم الله الرحمن الرحيم . انـــا الامير عبد الله اكتب اليكما خريستوفوروس وثيودوراكيوس باجاركى هيراكليوبولس ـ اخذنا قد حصلت منكما فى هيراكليوبولس لصالح من معى من العرب خمسا وستين من الغنـم ولا اكثر من ذلك وللعلم قد حررنا لكم هذا البيان ". (٥)

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص٢٠٥
(٢) فتوح البلدان ص٢١٦
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٤٢
(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٥٧
(٥) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٢٦

كما ان ضيافة المسلمين ثلاثة ايام • تؤيده البردية (رقم PERF 555) (١)
وتقديم مد من القمح لكل مسلم تشير اليه البردية رقم 555 و 556 من نفس المجموعة اما البردية رقم 557 فتتضمن تقديم الزيت للمسلمين• وهكذا تؤكد اوراق البردى الصادرة الاسلامية فى وصفها للضرائب الاضافية• وتدل فى الوقت نفسه على ان الباجارك كان فى مصر الاسلامية الموظف الرئيسى فى الادارة المحلية •• (٢)

وجاء فى بعض اوراق البردى اليونانية مايشير الى وجود ضرائب غير عادية كان على اهل الذمة آداءها فى مصر الاسلامية • فنرى مثلا قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة اشقوة جمع تلك الضرائب الغير عادية والعادية مع مراعاة العدل بين الدافعين لهما • (٣)

وهكذا ادخلت ضرائب جديدة فى مصر الاسلامية فى بعض العصور • ويبدو ان الولاة المسلمين كانوا يلجأون الى فرض الضرائب الجديدة عندما تزداد مصروفات الدولة عن ايراداتها او رغبة منهم فى جمع اكبر مقدار ممكن من الاموال من مصر• ففى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى (١٦٧ــ١٦٨هـ) فرضت ضرائب على الحوانيت وعلى الاسواق والدواب• (٤) ولما ولى احمد بن محمد بن مدبر خراج مصر • ابتدع ضرائب جديدة • تقول الرواية القبطية انه فرض ضرائب على الحشيش والنخل والشجر المثمرة • المغروسة فى بيوت الرهبان فى جميع انحاء البلاد المصرية • (٥)

---

(١) هذه الحروف اختصار لمجموعة J. Karabaeek; "Papyrus Erzherzog Fuhrer Dutch die Austellung".

(٢) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٢٦

(٣) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri. PP. 272-281-283.

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص١٢٥ ــ وكان ذلك تقليدا لابى جعفر المنصور الذى وضع الضرائب على حوانيت بغداد ــ انظر : المقريزى : الخطط جـ١ ص١٦٧

(٥) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ جـ١ ص٢٤

بينما تذهب الرواية العربية الى انه اول من أدخل فى مصر ضرائب سوى مـال الخراج فكان من " دهاة الناس وشياطين الكتاب " . وابتدع فى مصر بدعا استمرت سائدة من بعده ، فحجر على النطرون ، بعد ان كان مباحا لجميع الناس ، وفرض ضرائب على الكلأ التى ترعاه الماشية وسماها المراعى ، كما فرض ضرائب على الاسماك وسماها المصايد ، وغير ذلك من الضرائب التى عرفت انذاك باسم المرافق والمعاون . فانقسم مال مصر حينذاك الى خراجى وهلالى ، والهلالى هو ما عرف باسم المرافق والمعاون وقد ألغاها احمد بن طولون عندما ولى امارة مصر ، وقد بلغت هذه الضرائب فى مصر مائة الف دينار فى كل سنة ، وقد اعيدت الاموال الهلالية فى عهد الفاطميين وصارت تعرف باسم المكوس ، فلما استبد صلاح الدين بأمور البلاد ، أمر باسقـاط مكوس مصر والقاهرة . (١)

الضرائب على التجارة :

والى جانب ما تقدم ، نجد انه كانت هناك ضرائب على التجارة وتسمى المكوس (٢) منذ مطلع الفتح العربى لمصر ، واول من ولى امر هذه الضرائب فى عهد عمرو بن العاص ربيعة بن شرحبيل بن حسنة ، وكان ممن ساهم فى فتح مصر من الصحابة (٣) ، ويبدو ان هذه الضرائب كانت تؤخذ عن التجارة الداخلية فى البلاد المصرية وكان مقـر صاحب المكس الذى يباشر منه مهام منصبه هو ام دنين التى عرفت باسم المكس او المقس نسبة الى صاحب المكس الذى يقيم فيها . (٤)

---

(١) المقريزى : الخطط جا ص ١٦٧ .
ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ٢٤٤ و Zaki Hassan: Les Tulunides pp 244-246
والمال الخراجى هو ما يؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية ، والمال الهلالى عدة ابواب استحدثهـا ولاة السوء شيئا بعد شىء ، انظر : المقريزى : الخطط جا ص ١٦٦

(٢) المكوس نوع من الضرائب فرض على التجار فى الجاهلية وكلمة مكس مشتقه من اللفظ السريانى ماكسو ـ انظر جروهمان : اوراق البردى المسفر ٣ ص ٩ والماكس هـو العشار ويقول له صاحب المكس ، والمكس ايضا انتقاص الثمن فى البياعة ، انظـر الخطط ج٣ ص ١٩٧ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ـ حاشية ص ٥٥

ويقول جروهمان (١) ليس من الغريب ان نجد نظام المكس منذ بداية الادارة العربية فى مصر اذا لاحظنا ان ثمة نظام مماثل تماما كان قائما فى العهدين اليونانى والرومانى وانه مما لاشك فيه كان يوجد مركز تجارى للغلال فى الفسطاط عرف باسم ميدان القمح او ميدان الغلة. وكان يحده غربا المكان الذى يلى باب القنطرة حتى المقس ويصل الى خليج القاهرة من ناحية الشرق.

ونجد فى اوراق البردى العربية ما يؤكد وجود المكوس على التجارة الداخلية فى البلاد فهناك وثيقة خاصة بارسال القمح الى الفسطاط واطلاق المكس لتجارة القمح. ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى ربيع الاول سنة ٩١ هـ (٧١٠م) وقد جاء فيها " .. الى الفسطاط فانى وضعت عنهم مكسه فليبيعوه بالفسطاط. وعجل ذلك فانى قد خفت غلاء الطعام بالفسطاط وانى اذا وضعت للتجار مكسهم اصابوا ربحا حسنا. وانما الحصاد ان شاء الله فى اربعين ليلة او قريب من ذلك فعجل ما كنت تساعد به من لذلك. واكتب الى كيف فعلت فى ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام. والسلام على من اتبع الهدى .. ". (٢)

وقد ولى مكس مصر فى عهد الخلفاء الامويين الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمرو بن عبد العزيز وزريق بن حيان . وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب اليه ان: " انظر من مر بك من المسلمين فخذ مما ظهر من اموالهم ، مما يديرون للتجارات ، من كل اربعين دينارا دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينار ، فان نقص عن عشرين دينار بثلاث دينار فدعها ولاتأخذ منها شيئا . ومن مر بك من اهل

= (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣١ طبعة ليدن.
بينما رفض ولاية المكس انذاك خالد بن ثابت الفهمى وقال ان كعب بن ضنة قال : " لاتقرب المكس فان صاحبه فى النار " واثر عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال : " لا يدخل صاحب المكس الجنة " وقال ايضا " اذا لقيتم عشارا فاقتلوه "

(٤) جروهمان : اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٥

(١) اوراق البردى : السفر ٣ ص ١٠

(٢) نفس المصدر ص ٨ ـ ٩

المصدر ؟

الذمة ، فخذ مما يديرون من التجارات من اموالهم من كل عشرين دينار دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرة دنانير ، فان نقصت ثلاثة دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، واكتب لهم بما تأخذ منهم كتابا الى مثله من الحول ". (١)

ونستخلص من هذا النص ان المكس كان يؤخذ من التجار المسلمين بنسبة اثنين ونصف فى المائة من تجارتهم بينما كان يؤخذ من الذميين ضعف ذلك ، اى بنسبة خمسة فى المائة من تجارتهم وان المكس كان يؤخذ من التجار مرة واحدة فى السنة، ويعطون ايصالا بذلك حتى لايدفعون على نفس التجارة مكسا ثانيا . بينما يرى بعض الفقهاء وجوب اخذ المكس على التجارة فى كل مرة يمر بها صاحبها . (٢)

وكما اهتمت الحكومة العربية فى مصر بفرض الضرائب على التجارة الداخلية ، فقد اهتمت ايضا بفرض الضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها بين الشرق والغرب وكذلك على التجارة الصادرة والواردة . فكانت هناك ضرائب مقررة على التجار فى الثغور المصرية . دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب واسوان والاسكندرية . فالمكس قبل الاسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الاسواق او حق فرض الضرائب التى تجبى فى الموانى والبلاد التى على الحدود المصرية . وقد حفظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الذكاة والعشور . (٣)

هذه هى الضرائب التى التزم اهل الذمة فى مصر بدفعها . ويمكن القول بصفة عامة ان النظام المالى المصرى كان مأخوذا — الى حد كبير — من النظام البيزنطى

---

(١) الشافعى : الام جـ٧ ص٢٢٨
ابو عبيد : الاموال ص٥٣٤

(٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ٢٤٢ — ويقول ان انس بن مالك رفض ولاية المكس " لانصدام ماكان من التقوى عند السلف " . وربما كان الرفض من جانبه قائما على اساس تغيير مدلول كلمة المكس اذ كانت فى البداية بسيطة يقصد بها الخراج ثم تبدل مفهومها بمضى الزمن ، فأصبحت تطلق على ضرائب معينة لم يرد ذكرها فى القرآن ولا فى الحديث . واصبح جميع المسلمين الخيرين ينظرون اليها نظرة ملوءها الشك والريبة .

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٥٧

ولم يكن أخف منه وطأة الا انه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشيء عن سالفه. فقد ابطل العرب خاصة فى اول عهدهم بعض الضرائب التافهة التى استحدثها البيزنطيون . وقد زادت وطأة النظام الضرائبى خاصة فى عهد اصحاب الاقطاع فى مصر الاسلامية من الترك ، كما يتبين من اوراق البردى . (١)

طرق جباية الضرائب :

وننتقل الى دراسة طرق جباية الضرائب فى مصر الاسلامية. والواقع ان العرب بعد فتحهم لمصر ، أبقوا على نظام الجباية الذى كان سائدا فى مصر البيزنطية ، اذ كانت كل كورة او قرية مسئولة بالتضامن عن دفع ما على سكانها من الضرائب ويؤيد ذلك الرواية العربية واوراق البردى العربية واليونانية.

يقول ابن عبد الحكم (٢) انه لما استوثق الامر لعمرو بن العاص فى مصر ، اقر قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم وان قل اهلها وخربت نقصوا . فيجتمع عرفاء كل قرية وماروتها (٣) ورؤساء اهلها فيتناظروا فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبذرون فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم ، من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تكون الا الرجل المناب او المتزوج . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع على قدر طاقتهم فان عجز احد وشكى ضعفا من زرع ارضه. وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة اعطى ما عجز عنه اهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط والدينار اربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك ".

---

(١) نفس المصدر ص ٥٩ Zaky Hassan: Les Tulunides, P.244

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦ — ٢٠٧

(٣) الماروت لفظ سريانى الاصل معناه كبير الوجهاء. انظر المصدر السابق حاشية ص ٢٠٦

نرى من هذا النص ان رؤساء القرى وذوى النفوذ بها هم الذين كانوا يقدرون الضرائب تحت اشراف صاحب الكورة ، الذى كان عليه الاتصال بالوالى او عامل الخراج لتأدية الضرائب المقررة على كورته وعلى الذى تدخل فى دائرة نفوذه .

ويؤيد ذلك كثير من اوراق البردى ، ففى كتاب من قرة بن شريك الى صاحب قرية شبرا بسيرو فى سنة ٩١ هـ نجده يطلب منه ما على قريته من جزية سنة ٨٨هـ ، وقدرها مائة واربعة وثلثى دينار ، ومن ضريبة الطعام احدى عشر وثلث اردب من القمح (١) وهناك بردية اخرى تتضمن ايضا كتابا من قرة بن شريك فى نفس السنة الى اهل قرية شبرا اجية نبوتية من كورة اشقوة يذكر لهم فيه ان اصابهم من جزية سنة ٨٨ سبعة وثلاثين دينار . (٢) ونجد بردية ثالثة فيها كتاب لنفس الوالى وفى نفس السنة الى اهالى قرية اروس ـ من قرى الشرقية ـ يعلمهم فيه ما أصابهم من جزية سنة ٨٨ ايضا ومبلغها ثلاثين وستة دينار . (٣) وفى بردية رابعة كتاب من قرة بن شريك ايضا فى نفس السنة الى اهالى هروس ابيرميوطس من كورة اشقوة ـ يذكر لهم فيه ما عليهم من جزية وقدرها ثمان وعشرين وستة دينار . (٤)

وكما كان الحاكم العام فى مصر البيزنطية يقدر الضرائب التى تفرض على نواحى البلاد المختلفة على اساس المعلومات والقوائم التى يقدمها اليه حكام الاقاليم نجد الوضع كذلك فى مصر الاسلامية اذ يتبع العرب نفس النظام . وتشير بعض اوراق البردى الى ذلك فهناك بردية فيها ان قرة بن شريك قد ارسل الى صاحب كورة اشقوة تعليمات خاصة بجباية الضرائب ويأمره فيها بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا امناء اذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم وبعد ان يقوموا بمهمتهم هذه تحت اشراف صاحب الكورة ويطلب منهم ان يرسل اليه نتيجة عملهم بعد ان يحتفظ بنسخة لنفسه ويطلب منه ايضا ان يكتب اسماء والقاب .

---

(١) جروهمان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٤٧ ـ ٤٩
(٢) نفس المصدر ص ٥١ ـ ٥٢
(٣) نفس المصدر ص ٥٣ ـ ٥٤
(٤) نفس المصدر ص ٥٥

ومحل اقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وينذره بأنه اذا وجد ان قرية حملت اكثر مما تحتمل من الضرائب او اقل فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة ايضا أشد عقاب . (١)

ويشرح بعض الكتاب المحدثين الاجراءات الضريبية او بمعنى آخر الخطوات المتبعة في جمع الضرائب في مصر الاسلامية معتمدا في ذلك على ماجاء في اوراق بردى افروديتى ( ) كما انه يذكر ارقام بعض هذه البرديات مستشهدا بها . ونذكر فيما يلى بعض هذه الخطوات .

تتضمن الخطوة الاولى عند جمع الضرائب اعداد قائمة لايعدها الحاكم نفسه وانما افراد احسن اختيارهم ويكونون من رؤساء القرى ومن كبار ملاك الاراضى وكانت هذه القوائد تشمل جميع السكان من الرجال وفيها ضريبة الرأس التى قدرت على كل منهم والارض التى يملكها والضريبة المقدرة عليها وكذلك الخدمات الخاصة التى قام بها كل واحد منهم . ثم ترسل هذه القوائم بعد الانتهاء من اعدادها الى موظفى ديوان الخراج بالفسطاط وكثيرا ماكان يطلب من مقدرى الضرائب ان يصحبوا قوائمهم الى العاصمة الاسلامية . (٣) ويتضح ذلك من احدى البرديات وقد جاء فيها :

" واحضروا معكم رجال اقليمكم الذين ذكرنا اسماءهم فى خطاباتنا السابقة وكذلك قائمة بالاماكن فى كل منها اسماء الذكور من السكان وضريبة الرأس التى قدرت على كل منهم ومساحة الارض التى يمتلكها كل رجل من ارض الكروم والارض الزراعية والخدمات التى قام بها سواء بناء على تعليمات بذلك او بغير تعليمات . وقائمة باسماء الابقين وألقابهم

---

(١) Bell: Translation of the Greek Aphrodito Papyri, P.282

(٢) بردى افروديتى The Aphrodito Papyri نسبة الى مدينة افروديتى او كوم اشقاو الحالية فى مصر العليا جنوب طما . والبردى فى ثلاث لغات اليونانية والقبطية والعربية ويشمل مكاتبات رسمية وقوائم ضرائب وغير ذلك من النصوص الادارية والقانونية ومعظمها ينتمى الى عصر قره بن شريك (٩٠-٩٢ هـ = ٧٠٩-٧١٤ م) انظر : دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٣١

(٣) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٤٩ - ١٥٠

فى كل مكان وباختصار اوضحوا لنا فى قائمتكم كل ماتعرفون .. على ان تخبروا اولئك الذين سيصحبونكم فى كل مكان فى اقليمكم ان يحضروا معهم قوائم املاكهم حتى اذا احتاج الامر ان نستقى منهم المعلومات عن موضوع ما كانوا على استعداد لكى يزودونا بكل ما يعلمون وان يقدموا لنا كل مايستطيعون ". (١)

ثم تأتى الخطوة الثانية فى جمع الضرائب ذلك انه بعد ان تصل القوائم المختلفة من الكور المصرية يقوم موظفى بيت المال فى العاصمة • بتقدير حصص الضرائب على كل اقليم وكل قرية تدخل فى سلطة حاكم الاقليم (الباجارك) وبعد ذلك يأتى دور الوالى فى اعلان النتائج المختلفة لكل قسم من اقسام الاقليم فى "امر طلب" مقررا فيه مقدار الضرائب النقدية ـ وخاصة الجزية والخراج ـ التى كان على هذا القسم من الاقليم ان يؤديها ويؤكد وجود هذه الخطوة وحوالى احدى عشر بردية نشرها بكر • وهذا نص ماجاء فى واحدة منها : " بسم الله الرحمن الرحيم ه هذا كتاب من قرة بن شريك لاهل باكونيس من كورة افروديتى انه اصابكم من جزية سنة ٨٨ اربعمائة دينار وثمانية وتسعون ومن ضريبة الطعام مائة وثمانيةوعشرون اردب قمح ونصف اردب ونصف ويبة ". (٢) وعندما يصل هذا الامر الى اقسام الاقليم كان يختار اشخاص ليقوموا بجمع الضرائب بعد تقديرها على افراد السكان وكان جامعوا الضرائب يقومون بعمل قوائم للتقدير توضح مايجمعون ويطلق عليها اسم Merismois • (٣)

وهكذا نجد انه كانت هناك عمليتان منفصلتان لتقدير الحصة الضريبية الاولى عند اعداد القائمة التى ترسل الى الفسطاط والتى تقدر الحصة على اساسها • اما العملية الثانية فهى اعداد قوائم التقدير التى توضح مايجمع من الضرائب وتسمى - Merismoi - وكانت تعد لجمع الضرائب عندما يصل امر الطلب من الوالى • وهذه الخطوات فى الواقع كانت بشأن الضرائب الاعتيادية • اما الضرائب الاخرى الغير اعتيادية فكانت حصصها تعد بالفسطاط بنفس الطريقة • (٤)

---

(١) Bell : Op. Cit. P. 273.

(٢) الويبة مكيال معين وكانت ويبة عمر بن الخطاب ستة امداد والمد ربع صاع • انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٦٠ ـ وحاشية نفس الصفحة

(٣) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٥٠ ـ ١٥١

(٤) نفس المصدر ص ١٥١

ونحن نرى انه من العسير قبول ماذهب اليه بل Bell من انه لما كانت الضرائب فى السنوات الاولى للحكم العربى فى مصر كما كانت فى العهد البيزنطى تفرضها الحكومة فى شكل اجمالى على القرى لا على الفرد . فان اساس النظام المالى كان دائما مبدأ الضرائب الجماعية التى تفرض على الجماعة لا الفرد . وان علاقة هذا الاخير كوحدة لفرض الضريبة كانت بالجماعة التى ينتمى اليها لا بالحكومة. (١) ذلك لان نظام الضرائب كان اساسه الفرد فى المحل الاول . الفرد وما يؤديه من عمل وما يفلحه من ارض فكانت الخطوة الاولى لجمع الضرائب المقررة اعداد قائمة التقدير لكل فرد يلى ذلك جمع المبالغ الفردية كما تظهر فى القائمة بعضها الى بعض . اما الخطوة الثالثة فكانت تتضمن ان يؤخذ من كل فرد مافرض عليه. يلى ذلك الخطوة الرابعة والاخيرة ـ وكان يتمثل فيها المظهر الجماعى ـ اذ كان التسديد بواسطة القرية لكل الحصة المجموعة . (٢)

(٣) ثم ظهر فى مصر فى العصر العباسى نظام اخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات الاراضى . وقد بدأ العمل به خاصة بعد ان انتشر الاسلام بين القبط ونزل العرب الى القرى المصرية بعد ان كانت اقامتهم قاصرة على العاصمة والثغور المصرية. يقول المقريزى : " وكان من خبر اراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها . واستيطانهم (٤)

---

(١) نفس المصدر ص ١٥١ ـ ١٥٢

(٢) نفس المصدر ص ١٥٢

(٣) يقول دى ساسى ان لفظ قبالة معناه ضمان الاشخاص دفع ضريبة معينة او التزامه بتنفيذ عهد او ارتباط . انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ـ حاشية ص ٦١.

وتشير بعض المصادر الى رغبة الخليفة ابو جعفر المنصور فى ان يجعل والى مصر ضامنا لخراجها فقد حدث ان ارسل هذا الخليفة الى واليه على مصر محمد بن الاشعث (١٤١ ـ ١٤٣ هـ) يعرض عليه ضمان خراج مصر بمعنى انه اراد ان يلزمه بدفع مبلغ معين عن مصر كلها ـ الا ان ابن الاشعث رفض ذلك ـ والواقع انه لا يمكن ان يرفض احد ولاية خراج مصر بينما من الجائز بل من المعقول ان يرفض الشخص ضمان خراجها كما فعل محمد ابن الاشعث.

(٤) الخطط جـ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢

واهاليهم فيها . واتخاذهم الزروع معاشا وكسبا . وانقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام واختلاط انسابهم بانساب المسلمين لنكاحهم المسلمات. ان متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الاراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن. فيقوم رجل ينادى على البلاد : صفقات . صفقات . وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين. لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك. فاذا نقض هذا الامر خرج كل من كان تقبل ارضا وضمنها الى ناحيته فتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعماله بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضى . وما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها . وحفر خلجها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج (١) ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين.

---

(١) يقوم ديوان الخراج مقام خزينة الدولة او وزارة المالية بها وتحمل اليه جباية الاقاليم وينفق منها على رواتب الموظفين واعطيات الجند وغيرها من النفقات المحلية ثم يحمل ما تبقى الى بيت المال العام فى عاصمة الخلافة المدينة ثم دمشق ثم بغداد — واخيرا استقلت مصر عن الخلافة العباسية فى العصر الفاطمى كما حدث من قبل فى عصر الطولونيين والاخشيديين ويقول ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤٣ — المكتبة التجارية بمصر — عن ديوان الخراج والجبايات " اعلم ان هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على اعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم فى اباناتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من اهل تلك الاعمال " .

ولقد ابقى عمرو بن العاص ومن جاء بعده من ولاة مصر على ديوان الخراج الذى كان فى مصر البيزنطية وكانت اللغة المستعملة فيه اليونانية والقبطية واستمر على ذلك حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فجعل عبد الله بن عبد الملك اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى البلاد بدلا من اللغتين اليونانية والقبطية وصرف عن ديوان الخراج اثناس القبطى وجعل عليه احد المسلمين وهو ابن يربوع الفزارى سنة ٨٧ — انظر : المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٥٨

وتذهب بعض المصادر الحديثة الى ان عبد الله بن سعد بن ابى سرح — والى مصر بعد عمرو بن العاص حاول هو ومن جاء بعده ادخال بعض التعديلات على النظام المالى فى مصر جاهدين وذلك بتدارك بعض عيوبه ونقائصه وقسموا ديوان الخراج فى مصر الى ادارتين . انظر دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٢٥ ، ١٢٦

ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقى • وكانت الولاة تتشدد فى طلب ذلك مــــرة، وتسامح به مرة ،فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة ، حولو السنة (١) وراكوا (٢) البــلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة غير الضمان للبلاد ونقـــص فيما يحتاج الى التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص الا ان عمر احمد بن طولون جامعه وصار العسكر (٣) منزل لامراء مصر ، فنقل الديوان الـى جامع احمد بن طولون• ثم نقل ايام العزيز بالله نزار الى دار الوزير يعقوب بـــــن كلس، فلما مات الوزير نقل الديوان الى القصر بالقاهرة واستمر به مدة الدولـــة الفاطميـــة•

وهكذا كان يقام فى جامع عمرو بن العاص فثم فى جامع احمد بن طولون ثم فـــى قصر يعقوب بن كلس فى العصر الفاطمى ومن بعد وفاته فى قصر الخلافة مزاد علـــى لتقبل الارض او بمعنى اخر ضمان خراجها • وكان تقبل الارض لمدة اربع سنوات حـــتى تتمادت سنوات المحصول الطيب مع سنوات المحصول الضعيفه كما كان الشخـــص المتقبل للارض يخصم من الاموال المقرر عليه دفعها مايصرفه فى رى الترع واصلاح الجسور وما الى ذلك كما نفهم من هذا النص ايضا ان الخراج كان يتم دفعه على اقســـاط ولا يدفع مرة واحدة كل سنة وان ماتبقى منه كان يسمى البواقى •

---

(١) تحويل السنة : يعنى تحويل السنين القمرية او الهلالية الى السنين الشمسية او الخراجية التى يرتبط بها الزراعة وجباية الخراج ذلك لانه اذا جمع الخـــراج حسب السنين الهلالية فكأننا نجمع الخراج فى اثنين وثلاثين سنة شمسية ثلاث وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الاشياء • ولذلك تحذف كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية خراج سنة وهذا مايسمى بالتحويل• ويسمى ايضا الازدلاق لان لكل ثلاثة وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية• انظر : المقريزى : الخـــطط جـ٢ ص ٣٩ ــ ادم متز: الحضارة الاسلامية جـ١ ص ١٩٠ــ١٩١ • سيـــدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ــ حاشية ص٦٢

(٢) راك : يعنى تقويم الاراضى ومسحها • مصر فى فجر الاسلام حاشية ص٦٢

(٣) لاشك ان المقصود القطائع وليست العسكر التى بناها العباسيون بعد غلبتهم على الامويين •

ويؤكد ابن حوقل (١) الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى فى عهد الفاطميين ـ ان الخراج كان يتم دفعه فى مصر على اقساط وانه كان لا يجرى جمعه دفعة واحدة بل يبقى منه ما يسمى بالبواقى وان ذلك قد اصبح عادة متبعة بين المصريين. فيقول "... وبهاتور يطالب الناس بافتتاح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول والمعقود ، وبأمشير يؤخذ الناس فيه باتمام ربع الخراج من السجلات وببرمهات يطالب الناس فيه بالربع الثانى والثمن من الخراج وببرمودة تقع المساحة على اهل الاعمال ويطالب الناس باغلاق نصف الخراج عن سجلاتهم .. وببشنس تقرر المساحة ويطالب الناس بما يضاف الى المساحة من ابواب وجوه الاموال كالصرف والجهبذة وحق المراعى والقرط والكتاب على رسوم كل ناحية. ويستخرج منذ اتمام الربع ما تقررت عليه العقود والمساحة ويطلق الحصاد لجميع الناس وبؤونة يستخرج فيه بتمام نصف الخراج ما بقى ولم يوزن بعد المساحة ، وبأبيب يستتم فيه ثلاثة ارباع الخراج وهو اصل زيادة ماء النيل ويكون ضعيفا . وبمسرى ويغلق فيه الخراج وفيه جمهور زيادة ماء النيل . وفى ذى المبشهرين تتأخر البقايا على دق الكتان لانه يعمل فى توت ويدق بابه ... ".

ويؤكد وجود نظام الالتزام او القبالة فى جباية الضرائب المختلفة فى مصر الاسلامية ما جاء فى الاوراق البردية وخاصة فى العصر العباسى فهناك برديات تشير الى ذلك ويرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى. (٢) ، وبرديات اخرى يرجع تاريخها الى القرن الرابع الهجرى. (٣)

---

(١) كتاب صورة الارض ص ١٢٩ـ١٣٠

(٢) جروهمان : اوراق البردى العربى السفر ٣ ص ١٣٦ ـ ١٤٠ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٥٩ ـ ١٦٠

والواضح ايضا من الروايات التاريخية ان نظام الالتزام فى جباية مصر ظل سائدا حتى عصر الفاطميين. فقد عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى سنة ٣٦٣ هـ الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، بولاية الخراج ووجوه الاموال والحسبة والسواحل والاعشار. (١) والجوالى (٢)، والاحباس والمواريث والشرطتين ، وجميع ما يرتبط بذلك فى مصر وسائر الاعمال. وكتب المعز لهما سجلا بذلك ، قرئ على منبر جامع احمد بن طولون. وقد باشر هذان الرجلان مهامهم بحزم وسياسة حسنة. فكانا يقوسان بالمزاد على الناس لتقبل الاراضى وغيرها من وجوه الاموال. كما كانا يتشددان فى المطالبة بالبواقى .

تقول الرواية التاريخية : " وجلسا غد هذا اليوم ـ اى اليوم الذى اعلن فيه توليهما الخراج ـ فى دار الامارة فى جامع احمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال. وحضر الناس للقبالات وطالبوا بالبقايا من الاموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال. واستقصيا فى الطلب ونظرا فى المظالم ". (٣)

---

(١) اول من وضع الاعشار فى الاسلام عمر بن الخطاب ففرض على التجار المسلمين أن يدفعوا عشر ما معهم اما اهل الذمة فيدفعون نصف العشر على تجاراتهم . انظر : حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله ـ حاشية ص ١٧٧

(٢) الجوالى هى ما يؤخذ من اهل الذمة من جزية مقررة على رؤسهم فى كل سنة. وهى قسمين ماهو حاضرة الديار المصرية ـ الفسطاط او القاهرة ـ وما هو خارج عن ذلك . اما فى حاضرة الديار المصرية فيوجد ناظر يتبعه مباشرون من شاد وعامل وشهود ، وتحت يديه حاشر لليهود واخير للقبط ويعرف ارباب الاسماء الواردة فى الدواوين ومن ينضم اليهم ممن يبلغ كل سنة من الصغار ، ومن يقدم الى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبر عنه بالطارئ ومن يعتنق الاسلام او يموت ويطلع على كتاب الديوان ما يتجدد من ذلك. اما ما هو خارج الحاضرة من سائر الاقاليم فان جزية الاقليم تكون لضامن او متقبل. انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣١٧ـ٣١٩ ـ القلقشندى : صبح الاعشى جـ٣ ص ٤٦٢ـ٤٦٣.

(٣) ابن ميسر : اخبار مصر جـ٢ ص ٤٥ ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٤ـ١٤٥، الخطط جـ١ ص ١٣٢.

وكما كان بعض الولاة يتشددون فى حمل المتقبلين على اداء ماعليهم من البواقى كان هناك من يتساهل فى ذلك بل كان بعضهم احيانا يتسامحون فى ترك هذه البواقى دون المطالبة بها . وقد حدث مثل ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر ووزيره الافضل ابن امير الجيوش وذلك فى سنة ٥١٥هـ حين كتبت سجلات تضمنت ترك البواقى التى على المتقبلين والضامنين فى هذا العام وارسلت الى جميع انحاء البلاد لقراءتها على الناس . (١)

وكان يحدث بعد انخفاض النيل وبذر البذور المختلفة ان يرسل من العاصمة المصرية الفسطاط ثم القاهرة بعض الاشخاص المشهورين بالثقة والعدل والنباهة ممن يكون لهم معرفة بالخراج . وكان يصحب هؤلاء فى العادة كاتب من القبط ويخرجون الى كل ناحية من نواحى البلاد فيحررون مساحة ما شمله الرى من الاراضى مما لعله بار او شرق . ويكتب بذلك فى سجلات واضحة — تسمى مكلفات — بالافدنة والقطائع وماتتضمنه من الاصناف المزروعة . وفى الشهر الرابع من السنة القبطية يعين من العاصمة ايضا بعض الرجال المعروفين بالحماسة وقوة البطش ويصاحبهم بعض الكتاب المشهورين بالعدل والامانة وايضا كاتب من القبط — وهؤلاء غير الذين خرجوا لمسح الاراضى — ويذهب هؤلاء لكل ناحية فيستخرج مباشرو كل بلد ثلث ماوجب عليهم من الخراج وفقا لما جاء فى المكلفات ومن هذا الثلث كان يدفع ماتتطلبه العساكر من النفقات . وكانت تبقى فى جهات الضمان والمتقبلين جملة البواقى . والظاهر ان المتقبلين للاراضى كانوا يدفعون ماعليهم من الخراج نقدا او عينا ماتنتجه الارض من الغلال والاصناف المختلفة . (٢) ويمكن ان نقول بناء على ذلك ان الخراج

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٣٤

(٢) نفس المصدر ص ١٣٨ — وفى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ انتدب بعد انتهاء الفيضان جماعة من العدول والكتاب القبط الى الولايات والاعمال المختلفة لتحرير ماشمله الرى ومازرع من الاراضى وتقدير الخراج وكتابة المكلفات فخرج الى الجهات من يصحبها من شاد وناظر وعدول وتأخر الكاتب القبطى ثم لحقهم فاراد عبور النهر الى الناحية التى مقرر له الذهاب اليها وامر صاحب المعدية اخذ اجرة منه فأغلظ ذلك الكاتب القبطى .

كان يختلف من سنة الى اخرى وحسب حالة الرى والمساحة المزروعة •

وتشير بعض المصادر الاخرى الى ان الذى كان يقوم بمسح الاراضى الزراعية • وكتابة المكلفات هم خولة البلاد ويعينهم مباشر الخراج القاصر بالناحية او الاقليم • وان مباشر الخراج فى كل ناحية هو الذى يعين ايضا من يقومون باستخراج الخراج • من شاد وعدول ذوى خبرة بعلم المساحة وكاتب امين • وقصابين لقياس الاراضى • ولم يكن هؤلاء جميعا ينتدبون من العاصمة • (١)

— فلما انتهت عملية مسح الاراضى فى هذه الناحية وكتابة المكلفات التى تحمل الى ديوان الخراج الرئيسى كما جرت العادة اضاف هذا الكاتب عشرين فدانا سميت باسم " ارض اللجام " ونسبها الى صاحب المعدية وجعل عليها لكل فدان اربعة دنانير وبعد مدة خرج المكلفون باستخراج ثلث الخراج من هذه الناحية وفقا لما جاء فى المكلفات المذكورة فاستدعوا اصحاب الزرع وكان من بينهم صاحب المعدية وارغموه على دفع ستة وعشرين وثلثى دينار • فانكر ملكيته للارض وايده فى ذلك اهل قريته • فلما اعيد النظر فى قوائم الخراج لم توجد اية اشارة الى ارض اللجام وانتهى الامر بعقاب الكاتب القبطى على ذلك اشد العقاب • انظر : ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ٣١ — ٣٢

(١) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٤٧ — ٢٥٢ • ويقول بشأن ذلك ان الذى يحتاج اليه مباشر الخراج بمصر ويعتمد عليه فى مباشرته انه اذا شمل الرى ارض الجهة التى يباشرها ان يبدأ بالزام خولة البلاد ومفردها خولى وهو الذى يقيس الارض — برفع قوانين الرى وتتضمن هذه القوانين ماشمله الرى وعلاه النيل من اراضى الناحية لسنة كذا الخراجية وتكون المساحة بالفدان ويفصلون ذلك بالرى اى ماشمله النيل والشراقى وهو مالم يشمله ماء النيل بعد ذلك يقارن ماجاء بما سبق ذلك فى سنة بلغ فيها النيل مابلغه فى تلك السنة • وبعد ان يسجل ذلك على المزارعين ينظم اوراقا مشتملة بالاسماء والقبائل جمع قبالة — ويشهد على ذلك ومن ثم تسجيل كل هذا فى حضرته ثم يبسط جريدة على اوراق السجلات يشرح فيها اسم كل فلاح وما يسجله من الفدن ويفصل ذلك بقبالته وجهته وقطائعه فاذا نبت الزرع وآن وقت حصاده ندب عند ذلك ما يباشر مساحة الارض من شاد وعدول وكاتب وقصابين يمسحون الاراضى المزروعة باسماء اربابها ويعينون اصناف المزروعات ويكون مباشروا المساحة قد بسطوا ايضا سجلات التحضير فاذا تكاملت المساحة نظم مباشروها اوراقا يسمونها المكلفة ثم يعقد المباشر على جميع ذلك كله ويتفقد ما استخرج منه وجملة مايتعين للديوان فاذا تم كل اسم بما عليه كتب اماه مايثبت ذلك وان بقى عليه شئ اجمله من بين البواقى •

ونحن نرى انه لما كان لكل اقليم ديوان خراج خاص به ـ وهو فرع لديوان الخراج الرئيس فى العاصمة ـ فمن ثم كان لكل اقليم مباشرون للخراج وعليه كان يعتمد مباشر الخراج على موظفين وعمال من نفس الاقليم ٠ الى جانب انه كان يحضر من ديوان الخراج الرئيس موظفون يشرفون على الموظفين والعمال المحليين عند القيام بعملهم ٠ ويحصلون على صورة مسجلة لما تم بشأن الاراضى وتقدير الخراج فى كل ناحية ٠ حتى يطلع عليها صاحب الديوان الرئيس وموظفيه ٠

وكان الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون ايصالا عرف فى اوراق البردى العربية باسم براءة وكانت هذه الايصالات او البراءات تختم بخاتم بيضاوى الشكل يتضمن عبارة دينية ٠ يليها اسم الجهبذ والصراف ٠ (١) وقد جاء ذكر البراءة فى بعض الروايات القبطية التى تشير الى ان الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك كتب الى والى مصر يأمره باعطاء براءة لكل من يدفع الخراج ٠ حتى لا يظلم احد ٠ ولا تكون فى دولته ظلم ٠ (٢) وكان جابى الضريبة العينية ينتخبه السكان ويسمى القبال ٠ (٣)

---

(١) جروهمان : اوراق البردى السفر ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ ٠ وقد عرفت هذه الايصالات ايضا بهذا الاسم فى قطع الاوستراكا ـ انظر Crum: Coptic Ostraca. PP. 36-37

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ ٢ ص ١٥٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٣ ـ ونسمع عن قبال قرية فى كورة الاشمونين فى احدى البرديات العربية ترجع الى القرن الثانى الهجرى فى رجب سنة ١٣٤ هـ (يناير او فبراير سنة ٧٥٢ م) وتتضمن امر صادر من عامل اشمون الى احد مرؤسيه ويقول جروهمان فى تعليقه على هذه البردية ان كلمة قبال او طبال ليس بمعنى الجابى Erheber der grundsteuer بل ينبغى ان ينطبق هذا الاسم انطباقا تاما على الوزان الذى يكيل القمح الذى يدخل الى القرى المختلفة برسم ضريبة الطعام ٠ كما ان هذا اللقب يستعمل كثيرا فى المسائل الخاصة بالنصارى فى ورق البردى المحفوظ بمكتبة جامعة هايدلبرج ٠ مثلا بولة بن شنوذة القبال وفى اوراق البردى بدار الكتب رقم ١٥٩ مينا القبال ورقم ٥٢٤٣ ذرى بن مينا القبال ٠ انظر جروهمان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٩٩ ـ ١٠١

ونستخلص من اوراق البردى ومن المصادر التاريخية المختلفة ان ديوان الخراج والاموال فى العاصمة كانت له فروع فى الاقاليم المختلفة وانه كان يتولاها موظف يسمى القسطال وكان هؤلاء الموظفين غالبا من القبط .(١) اما من يقوم بجمع الضرائب ، ويضطلع بتسليمه وتحرير دفع الخراج والاعفاء منه والاشراف على الضرائب فيسمى الجهبذ وكان هؤلاء الجهابذة فى مصر الاسلامية ، فى الغالب من القبط أيضا .(٢)

ويقول النويرى(٣) انه كان يجب على مباشرى الجوالى ـ اى الجزية ـ ان يلزم رئيس اليهود ورئيس القبط وغيرهما من طوائف اهل الذمة بكتابة اوراق يسمونها الرقاع ، يوضحون فيها من استجد فى منطقتهم من الطوارئ(٤) والنوابت (٥) كما يشير منهم فى نهاية الرقاع الى من تحول الى الاسلام ومن توفى وأيضا من خرج من بلده الى بلد اخر والى اى جهة ذهب ان امكن ذلك وكان هؤلاء يتفقدون دائما احوال النوابت حتى اذا وصل احدهم الى سن البلوغ ألزم باداء الجزية .

---

(١) جروهمان : اوراق البردى ـ السفر ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ .
وتسميه بعض المصادر الحديثة بالجسطال اى الجيم بدلا من القاف .
سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٤

(٢) جروهمان : اوراق البردى ـ السفر الثالث ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٦٠ ـ ١٦٢ ـ ١٦٧ .

(٣) نهاية الارب جـ٨ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥

(٤) الطوارئ : هم الذين يطرؤون على البلاد ولم يكونوا منها .
انظر المصدر السابق حاشية ص ٢٤٢

(٥) النوابت : جمع نابته ، اى النشء الصغار والمراد بها هنا من دون البلوغ .
نفس المصدر ـ حاشية ص ٢٤٢

كان اهالى بعض الكور يقدمون الشكاوى فى بعض الاحيان ضد عمال الضرائب فى مناطقهم ويرفعونها الى صاحب الخراج وحاكم الكورة نفسه اللذين كانا من جانبهما يسرعان الى التحقق من مدى صحة الشكاوى او التظلمات. ويتضح لنا ذلك من بردية يرجع تاريخها الى الفترة بين سنتى ١٣٧ ـ ١٤٠ هـ (٧٥٤ ـ ٧٧٥م) . وتتضمن هذه البردية اخطارات مدونة بثلاث لغات ـ اليونانية والقبطية والعربية وخاصة بظلامات من التعدى من قبل عمال الخراج . وهذه الاخطارات خاصة بأهالى اخميم الذين رفعوا ظلاماتهم الى صاحب بيت المال والى يزيد بن عبد الله صاحب كورة اخميم وطلبهما ضد عامل الضرائب عمرو بن عطا سرومرلينيه. على اساس انهم ظلموا الاهالى ظلما واضحا . وفرضوا عليهم ضرائب لاتتفق مع العدالة. فنشط يزيد بن عبد الله لفحص اسباب هذه الظلامة وتبين الحقيقة وطلبا تقريرا بشأن ذلك وقع عليه المسئولون المحليون الذين تبينوا ان عمرو بن عطا سرومرلينيه لم يلحقوا اى ظلم ولا اجحاف بأهالى اخميم فكتب لهم براءة بذلك اشهد عليها بعض الشهود الحاضرين. (١)

ونلاحظ فى الاوراق البردية المتضمنة لقوائم دافعى الخراج والجزية وغيرهما من الضرائب ان هناك كثير من الافراد الذين يؤدون ضريبة الارض ـ اى الخراج ـ بينما لا يؤدون ضريبة الرأس (أى الجزية) . وعليه فاننا نتساءل لماذا لا يؤدى هؤلاء الافراد كغيرهم من الذميين الجزية ؟ .

ومن المؤكد انه ليس بين هؤلاء الذين يدفعون الخراج ولا يدفعون الجزية ذميين تركوا دينهم اليهودى او المسيحى واعتنقوا الاسلام . لان مثل هؤلاء يشار اليهم فى اوراق البردى بكلمة مولى Mouléus . (٢) ونحن نرجح ان هؤلاء الذين لا يؤدون الجزية من الفئات التى اشارت احكام الاسلام بشأن الجزية الى اعفائها من ضريبة الرأس .

ونذكر من الامثلة على ذلك بردية تذكر سبعة وخمسين شخصا يؤدون الخراج ولا يؤدون الجزية . ومن بين هؤلاء اثنتا عشر امرأة . وأربعة اطفال واربعة قسس وشماس واحد .

---

(١) جروهمان : اوراق البردى السفر ٣ ص ٧٢ ـ ٧٩

(٢) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص ١٦٥

وليس فى بردى افروديتى كله حالة واحدة يؤدى فيها احد الكهنة ضريبة الرأس، وكذلك الشمامسة وغيرهم من رجال الدين المسيحى ، لم يذكر احد منهم كدافعى الجزية. (١)

وهناك سجلات كثيرة لاديرة وكنائس تؤدى ضريبة الارض وضريبة القمح بينما لا يأتى فيها ذكر لضريبة الرأس الا فى بردية واحدة تتضمن حالات كثيرة لاديرة وكنائس تدفع الضرائب الخاصة بها ثم تتضمن تفاصيل مبالغ تؤديها ستة اديرة خمسة منها خاصة بضريبة الارض والقمح . اما الدير السادس وهو دير انبا هرموت Anba Hermaotos فأمامه مبالغ تحت اسم ضريبة الرأس ومن المرجح ان هذا الدير كان يقوم بدور الوسيط فى جمع الضرائب من سكان منطقته، ويؤيد ذلك ان انبا هرموت كان يؤدى عن هؤلاء ضريبة قمح مقدارها سبعة وستين اردب - بينما يتضح من بردية اخرى ان ضريبة القمح الخاصة بهذا الدير كانت ستة ارادب فقط ، وبغض النظر عن هذه الحالة ، لا يوجد دليل آخر ، على ان الرهبان والقسس ، كانوا يؤدون ضريبة رأس.

ويتفق ما جاء فى هذه البرديات مع ما ذكره الفقهاء والعلماء المسلمون من اعفاء الرهبان ورجال الدين الذميين من الجزية . يقول الشعرانى (٢) : " واتفقوا على ان الجزية لا تضرب على نساء اهل الكتاب مطلقا ولا على صبيانهم حتى يبلغوا ولا على عبيدهم ولا على مجنون واعمى وشيخ فان ، ولا على اهل الصوامع".

وهكذا وجد فى مصر منذ الفتح العربى طبقة ممتازة من اهل الذمة لا تؤدى ضريبة الجزية وهم جماعة الرهبان وغيرهم من رجال الكنيسة ، ولذلك لجأ كثير من القبط الى الاديرة وحياة الرهبنة كى يتخلصوا من دفع الجزية وغيرها من الالتزامات المالية التى فرضها العرب على المصريين الغير مسلمين واستمر الوضع على ذلك حتى كانت

---

(١) دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٦٥-١٦٦
(٢) نفس المصدر ص ١٦٦-١٦٧
(٣) الميزان جـ٢ ص ١٤٥ - بينما يرى ابو يوسف ان الرهبان يؤخذ منهم الجزية اذا كانوا اهل يسار، اما اذا كانوا مساكين يتصدق عليهم ، فلا يلزمون بادائها . الخراج ص١٢٢ .

اسارة عبدالعزيز بن مروان • (١)

عهد الوالى الاموى عبدالعزيز بن مروان الى ابنه الاصبغ بولاية الخراج وجميع وجوه المال فى البلاد المصرية فامر الاصبغ باحصاء الرهبان فى كل الكور ووادى هبيب وسائر الاماكن وجعل على كل واحد منهم جزية رأس دينارا فكان ذلك اول جزية وزنوهـا الرهبان• كما امر الا يدخل احد فى سلك الرهبنة بعد من احصاءه• ولم يكتف الاصبغ بذلك بل ألزم الاساقفة بدفع مبلغ الفى دينار سنويا الى جانب خراج املاك كنائسهم المقرر عليهم اداءه• (٢)

ويبدو ان الزام الرهبان باداء الجزية لم يستمر بعد ولاية عبدالعزيز بن مروان والدليل على ذلك ماتشير اليه المصادر التاريخية من ان اسامة بن زيد قد اعاد احصاء الرهبان ثانية اثناء ولايته لخراج مصر• ذلك انه امر بمنع الترهب فى عصره ثم امر باحصاء الرهبان فى جميع ارجاء البلاد •وان يوسم كل راهب منهم حلقة من حديد فى يده اليسرى عليها اسم بيعتهم ودير بغير صليب وعليها تاريخ مملكة الاسلام•

---

(١) ساعد على انتشار الرهبنة فى مصر قبل الفتح العربى ما قاساه المصريون من الالم واضطهاد فى ظل الحكم البيزنطى ففضل كثير منهم ان يعيش فى عزلة عن العالم حتى لايلزمون باداء الضرائب المختلفة وكانت الاديرة تزداد كثرة على مر الايام وما لبث ان وقف عليها املاك كثيرة وزادت ثروتها • وكانت الحكومة البيزنطية تدفع لها المساعدات المالية • فلما فتح العرب مصر حافظوا على اعفاء هذه الطبقة من القبط من الضرائب• انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٢٣

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص١٤٣ — ابن العميد : تاريخ المسلمين ص٢٨ — ٢٩ • الراهب البراموسى : حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك جـ١ ص ٢٣١ الانبا ايسيذورس : الخريدة النفيسة جـ٢ ص١١١ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢٢—٢٢٣— والمصادر كلها فيها عدا ابن المقفع تنسب احصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم الى عبدالعزيز بن مروان ونحن نرى انه لابد من ان يكون الاصبغ قد حصل على موافقة ابيه على فرضه الجزية على الرهبان • ويقول بطلر ان الاصبغ فعل ذلك لكراهيته الشديدة للقبط ولكننا نضيف الى ذلك شدة الحاجة انذاك للاموال لتغطية نفقات تعمير مدينة حلوان وماكانت تحتاجه البلاد من التعمير والاصلاحات وغيرها من وجوه الانفاق وقد بلغ الامر بعبد العزيز بن مروان انه كان يجمع خراج مصر كل اسبوع وان كان البعض يرى انه فعل ذلك خوفا من فتنة تنزل به ويحتاج فيها للاموال• انظر ابن بطريق : التاريخ المجموع ص١٠٤١ ابو صالح الارمنى ص٦٧

اى التاريخ الهجرى وكان ذلك فى سنة ٩٦ هـ — كما انه ضيق على هؤلاء الموسومين (١) ويقول ابن المقفع (٢) : " واذا ظفروا بهارب او غير موسوم قدموه الى الامير فينقب اصابعه ويبقى اعرج . ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحا كثير وقتل جماعة وقلع اعين جماعة بغير رحمة ".

ولم يكتف اسامة بن زيد بما قام به من احصاء الرهبان ووسمهم وانما اراد التأكد من ان جميع الرهبان موسومين وانه لم يلحق بهم رهبان جدد بعد احصائهم . ففاجأ عماله الديارات المختلفة حيث وجدوا جماعة من الرهبان بدون وسم . فألحق اسامة بهم عقابا شديدا فمنهم من قطعت رقبته ومنهم من ضرب بالسياط حتى مات . كما الزم الرهبان بدفع الف دينار وان يقدم كل واحد منهم دينارا كجزية . وهددهم بهدم الاديرة والكنائس اذا لم يقوموا بذلك . (٣)

ولنا ان نتساءل لماذا كل هذا الحرص من جانب بعض الولاة المسلمين على فرض الجزية على الرهبان وكانوا لا يؤدونها من قبل فى مصر الاسلامية ؟ الواقع ان كثيرا من الناس كانوا يهجرون قراهم . ويتركون اعمالهم واراضيهم تخلصا من الضرائب المفروضة عليهم وكانت اراضى الاديرة غير معفاة من الضرائب اذ كان عليها الخراج شأنها فى ذلك شأن غيرها من الاراضى الزراعية . ولم يكن على الرهبان اعباء مالية اخرى . لذلك كان دخول الاديرة والترهب من ايسر السبل امام هؤلاء الاشخاص الهاربين من الضرائب فلما ولى الخراج الاصبغ بن عبد العزيز ثم اسامة بن زيد فطنا الى ذلك فعملا على الحيلولة دونه بمنع الترهب وفرض الجزية على الرهبان وبذلك قضى فى الوقت نفسه على الدافع المادى الذى كان يشجع كثيرا من الذميين على الرهبنة .

فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز المشهور بحزمه وشدته فى تطبيق احكام الاسلام ابطل جميع اجراءات اسامة بن زيد بالنسبة للرهبان بل بلغ به الامر انه اعفى الاساقفة والكنائس من الجزية والخراج . (٤) ومن المسلم به ان الكنائس والاديرة

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ ج ٣ ص ١٥١ — ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٩٢ — المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥

(٢) سير الاباء البطاركة م ١ ج ٣ ص ١٥١

(٣) نفس المصدر ص ١٥٢

(٤) نفس المصدر ص ١٥٢

قبل خلافة عمر بن عبد العزيز كانت تؤدى الخراج • ويبدو ان الجزية قد اسقطت من على الرهبان ورجال الكنيسة منذ عصر هذا الخليفة الاموى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حينما اعيدت الجزية على الرهبان فى العصر العباسى فى ولاية احمد بن محمد بن مدبر على الخراج • فأرسل عماله الى الديارات فى مختلف الاقاليم وامرهم باحصاء الرهبان بها " وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى الكنائس وعن النخل والشجر المثمرة والمغروسة فى بيوتهم • " (١)

ونحن نرجح ان الجزية على الرهبان قد اسقطها احمد بن طولون عندما ولى امرة مصر من بين ما أسقطه من الضرائب من على المصريين التى اثقلت كواهلهم فى ولاية ابن مدبر لخراج مصر• والدليل على ذلك انه قد حدث فى بداية القرن الرابع الهجرى - اى الفترة ما بين سقوط الدولة الطولونية وقبل قيام الدولة الاخشيدية وهى الفترة التى عادت فيها مصر الى التبعية للخلافة العباسية فى بغداد وصار ولاتها يعينون من قبل الخليفة - فقد حدث فى سنة ٣١٢هـ • ان الوزير عبد الله بن محمد بن خاقان • ارسل على بن موسى الى مصر ليتفقد احوالها فلما دخلها الزم جماعة الرهبان والاساقفة والضعفاء والمساكين من اهل الذمة فى جميع انحاء البلاد المصرية بأداء الجزية • فما كان من هؤلاء الرهبان والاساقفة الا ان ارسلوا جماعة منهم الى بغداد للاستغاثة بالخليفة العباسى المقتدر الذى كتب لهم سجلا يتضمن اعفائهم من الجزية• وان تجرى امورهم على ماكانت عليه قديما •• " (٢) وكان هذا الحدث فى عهد الوالى ابى منصور تكين بن عبد الله المقتدى • (٣) وفيما عدا هذه الفترات التى تحدثنا عنها • كان الرهبان ورجال الكنيسة لا يسددون الجزية •

ذكرنا من قبل انه الى جانب الرهبان كان يعفى من الجزية النساء والاطفال والفقراء • فيقول ابن مماتى (٤) " ان الجزية واجبة على اهل الذمة الاحرار

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ١ ص ٢٤
(٢) ابن بطريق : التاريخ المجموع ص٨٢• ابن العميد : تاريخ المسلمين ص٩٦-٩٧
(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ١٧٧-٢١٠
(٤) قوانين الدواوين ص٣١٧-٣١٨

البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين. واما الشيخ الفانـــى وغيره ففيها قولان والفقراء الذين لاكسب لهم ففيهم ايضا قولان الاول تجب عليهـــم . والثانى لاتجب عليهم ويطالبوا كذا اذا ايسروا. وان كان منهم مزوجين ويفيق يومـــا . فالمنصوص ان تؤخذ منه الجزية . ومن مات منهم او اسلم فى اثناء الحول . قبل ان تؤخذ منه لما مضى بقسطه وقيل انه لاتجب عليه فليس عليه شىء".

وقد جاء فى بعض اوراق البردى مايؤكد ذلك. كما كان هناك ايضا بعض افـــراد مميزين من اهل الذمة معفيين من أداء الجزية. ويدل على ذلك قول عمربن عبـــــد العزيز ان تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يعتنقوا الاسلام ولم تجر عادتهـــم على القيام بها . ويذكر دانيل دينيت . (١) بعض الامثلة لهذه الحالات معتمــــدا على ماجاء فى بعض الاوراق البردية سواء أكانوا من الفقراء . او النساء . أو الاطفال . او بعض العلماء والموظفين الذين كان لهم بعض المميزات.

<u>ونتساءل : هل كان من يعتنق الاسلام من اهل الذمة يلزم بأداء الجزيـــة والخراج ام ان هذه الضرائب كانت ترفع عن الذمى الذى يعتنق الاسلام ؟</u>

أما من ناحية الجزية فيبدو انه فى بداية الحكم العربى فى مصر لم يفكر احــــد من الولاة فى فرض الجزية على من اسلم من اهل الذمة. وقد أراد عبدالعزيز بن مـــروان ان يبدأ فى فرضها بايعاء من الخليفة الاموى عبدالملك بن مروان الا ان ابن حجيرة نهاه عن ذلك. وقال له : " اعيذك بالله ايها الامير ان تكون اول من سن ذلــــك بمصر . فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم . فكيف تضعها على مـــن اسلم منهم " فتركهم على ماكانوا عليه لا يؤدون الجزية عند اعتناقهم الاسلام.(٢)

---

(١) الجزية والاسلام ص١٢٧ــ١٢٨

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب ص١٠٢
وكان اول من اخذ الجزية ممن اسلم من اهل الذمة الحجاج بن يوسف.

فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، رغب فى تشجيع الذميين على الاسلام وذلك عن طريق اعفائهم من بعض الاعباء المالية التى كانوا يلتزمون بأدائها للحكومة العربية، واهمها الجزية، فكتب الى عماله : " من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا ، واختتن فلا تأخذوا منه جزية، "(١) وطيه أمر واليه على مصر بالعمل على ذلك وتسجيل اسماء من يعتنق الاسلام من اهل الذمة فى الديوان وكتب الى حيان بن سريح يأمره بوضع الجزية عمن اسلم من الذميين واستشهد فى ذلك بقوله تعالى (فان تابوا واقاموا الصلاة ،واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ،ان الله غفور رحيم)، (٢)

ويبدو انه قد نجم عن ذلك ان ضعفت ايرادات مصر فلما ادرك ذلك واليها حيان بن صريح كتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول له : " اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار وتممت عطاء اهل الديوان، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل ، وهكذا رغب والى مصر فى اخذ الجزية ممن اسلم من اهل الذمة — بينما رفض الخليفة ذلك وكتب اليه بقبح رأيه ويقول له : " فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمرى ، لعمر احقر من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه "، (٣)

ويعلق توماس ارنولد (٤) على ذلك فيقول : ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك احرقوا ان مثل هذه السياسة تضر بالدولة لاسباب تتعلق بمال الجباية والحوا بأن يؤدى الذين يدخلون فى الاسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل، على ان مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار ، وعمل كل والى من هؤلاء الولاة برأيه وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام،

---

(١) ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص٥٩
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص١٢١
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص١٥٦، ط ليون،
المقريزى : الخطط ج١ ص١٢٥
(٤) الدعوة الى الاسلام ص١٢٤ — ١٢٥

ونحن نتفق مع توماس ارنولد فيما ذهب اليه من ان سياسة عمر بن عبد العزيز قد اتبعها بعض الولاة والخلفاء الذين حكموا بعده ومنهم الوالى حفص بن الوليد الذى ولى مصر فى سنة ١٠٨ هـ (٧٤٤م) فقد حدثانه لما وعد اهل الذمة بالاعفاء من الجزية اذا هم تركوا دينهم اليهودى أو المسيحى واعتنقوا الاسلام أسلم من اهل الذمة حوالى اربعة وعشرون الفا • (١)

وتكرر حدوث ذلك ايضا فى عهد الخليفة ابى العباس عبدالله السفاح ـ فى مطلع الدولة العباسية ـ حينما اعلن هذا الخليفة سياسته ـ فقال : " ان كل من يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بغير جزية • فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الفقراء والاغنياء ادين المسيح وتبعوه ". (٢) وهكذا حرص اغلب ولاة مصر على اخذ الجزية ممن اسلم من اهل الذمة الا فى الفترات المحدودة التى اشرنا اليها •

اما بالنسبة للخراج • ووضعه عن ارض من يعتنق الاسلام من اهل الذمة فلم نجد اية اشارة اليه فى المصادر المختلفة • ونحن نرى انه لما كانت مصر قد عوملت معاملة البلاد المفتوحة صلحا • ففرض على رؤس رجالها الجزية وعلى اراضيها الخراج فلا بد ان الخراج لم يرفع عن ارض الذمى لحتى بعد تركه دينه واعتناقه الاسلام • وكان ذلك فى الواقع يتفق وما ذهب اليه الفقهاء المسلمون•

قال مالك بن انس : ان من اسلم من اهل الصلح فهو احق بأرضه وماله • أما اهل العنوة فمن اسلم منهم تصير ارضه للمسلمين • لان اهل العنوة قلبوا على بلادهم وصارت فيئا للمسلمين ولان اهل الصلح انما هم قوم امتنعوا ومنعوا بلادهم حتى صالحوا عليها وليس عليهم الا ما صالحوا عليه • ولا أرى ان يزد عليهم ولا يؤخذ منهم الا ما فرض عمر بن الخطاب لان عمر خطب الناس فقال : قد فرضت لكم الفرائض وسننت لكم السنن وتركتكم على الواضحة ". (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٥

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٣) كتاب الخراج ص ٢١

بينما يقول يحيى بن آدم القرشى (١) : " من اسلم من اهل الصلح ، رفع الخراج عن رأسه وعن أرضه ، وتصير ارضه ارض عشر . الا ان يكون من اهل الصلح ، صولحوا على ان يوضع على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الخراج ، فمن اسلم رفعت الجزية عن رأسه ، وكان الخراج على ارضه على حاله ".

ونلمس من دراستنا ان كثيرا من الولاة كان يحرص اشد الحرص على تحصيل الجزية والخراج من الذمى الذى يترك دينه ويعتنق الاسلام . بل بالغ بعض الولاة فى ذلك حتى انهم اصروا على اخذ جزية الموتى الذميين من تركاتهم او من اقاربهم من اهل الذمة ، وتشير بعض الروايات التاريخية الى حدوث ذلك فى مصر على ايدى الولاة الامويين . بينما لم يحدث ذلك فى عصر الولاة العباسيين او عهد الدولة المستقلة ـ الطولونية والاخشيدية والفاطمية.

وكان أول حدوث ذلك فى عهد الوالى عبدالله بن عبدالملك ـ الذى ولى امرة مصر بعد عبدالعزيز بن مروان ـ الذى اشتهر بتشدده مع اهل الذمة وزيادته الخراج عليهم . فتشير الرواية القبطية الى تمسكه الشديد باخذ جزية موتى القبط . فتقول : " وامر ان لا يدفن ميت حتى يقوموا عنه بالجزية .. حتى ان المستورين الذين لا يقدرون على الخبر اذا ماتوا لا يدفنهم احد الا بأمره .. ". (٢) والواضح لنا ان مثل هذا الاجراء كان لا يستمر طويلا ، اذ سرعان ما يبطل الاخذ به بوفاة من سنه او زوال امره.

اما المرة الثانية التى الزم فيها الاحياء من اهل الذمة وخاصة القبط بأداء جزية موتاهم فكانت فى عهد الخليفة الاموى عمر بن عبدالعزيز وولاية حيان بن سريج وقد سبق ان ذكرنا ان اسلام الذميين المتوالى فى عصر هذا الخليفة ووضع الجزية عمن اسلم قد اضر بايرادات مصر وانقص دخلها . ويبدو ان حيان بن سريج فكر فى ان يلزم الاحياء من اهل الذمة بدفع جزية موتاهم ليعوض بذلك ما حدث فى دخل

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ ج٢ ص ١٤٥
(٢) المرجع السابق .

مصر من نقص فكتب فى هذا الامر الى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى تردد فى بادئ الامر وسأل عراك بن مالك واستفتاه بشأن ذلك. فقال له عراك : " ما سمعت لهم بعقد ولا عهد انما اخذوا عنوة بمنزلة العبيد ". عند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز يأمر واليه على مصر ان يجعل جزية موتى القبط على احيائهم. (١)

ويقول ابن عبد الحكم (٢) فى ذلك : " وذلك يدل على ان عمر بن عبد العزيز كان يرى ان ارض مصر فتحت عنوة وان الجزية انما هى على القرى فمن مات من اهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم. وان موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا ... ويحتمل ان تكون مصر فتحت بصلح ، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم . وان موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا ".

ولعل ذلك هو الذى دفع هذا المؤرخ الى ان يقول ان الجزية فى مصر جزيتان : جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على اهل القرية ويؤخذ بها اهل القرية. فمن هلك من اهل القرية التى عليهم جزية مسماه على القرية وليست على رؤوس الرجال. ممن لا ولد له ولا وارث ، ترجع ارضه الى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية. ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثا . فان ارضه للمسلمين. وقال عمر بن عبد العزيز : ان الجزية على الرؤوس وليست على الارض ". (٣)

وقد اثقل كثير من الولاة فى مصر ، كاهل اهل الذمة وخاصة القبط بالاعباء المالية وتشددوا فى جباية الضرائب فلجأ كثير من القبط الى المقاومة السلبية فى بادئ الامر ، فهرب كثير منهم من المناطق التى يقيمون فيها الى مناطق اخرى وخاصة بعد ان ادركوا انه لا فائدة من الاعتصام بالاديرة بعد ان فرض الاصبغ بن عبد العزيز الجزية على الرهبان — ومما لا شك فيه ان حركة الهروب هذه كان لها

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٨ — وفتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨
ابن الجوزية : احكام اهل الذمة ق ١ ص ٦٠
(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨ — ٢٠٩
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٨

اثرها فى مالية البلاد ، الى جانب ما كانت تثيره من الفوضى والاضطراب .

وقد اخذ الولاة المسلمون منذ ولاية عبد الله بن عبد الملك ـ الذى زاد الخراج على القبط فجعل من عليه خراج دينار يؤدى دينارا وثلثين ـ يتشددون فى مراقبة الابقين والحد من حركتهم . فأمر عبد الله بن عبد الملك بوصم الغرباء الذين وجدوا فى الاقاليم المختلفة على ايديهم وجباههم ثم امر بارسالهم الى مناطق مختلفة غير التى نزلوا فيها. (١)

استمرت حركة الهروب بعد ذلك فى ولاية قرة بن شريك بل اتخذت فى عصر هذا الوالى شكلا واسع النطاق ـ فكانت عائلات باكملها من الرجال والنساء والاطفال تهرب من منطقة الى اخرى تخلصا من عبء الضرائب مما اضطر قرة بن شريك الى تعيين جماعة خاصة لمراقبة هذه الحركة وايقافها . ويقول ابن المقفع (٢) بشأن ذلك :
" وكان الناس يهربون ونساؤهم واولادهم من مكان الى مكان . ولا يأويهم موضع من اجل البلايا . ومطالبات الخراج وعظم ظلمه اكثر ممن تقدمه ثم انه ولى انسان اسمه عبد العزيز من مدينة سخا وكان يجمع الذين هربوا من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه " .

ونحن نرى ان ذلك كان طبيعيا من جانب القبط فى مصر فى ذلك العصر ، وخاصة اذا علمنا ان قرة بن شريك قد طالب اهل الذمة بدفع الجزية المتأخرة عليهم منذ عهد سلفه وتشدد فى ذلك . (٣) كما انه كان يفرض احيانا ضرائب غير عادية عليهم. (٤) ثم انه قرر على البلاد مائة ألف دينار الى جانب ما هو مقرر من الخراج . (٥)

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٤٥
(٢) نفس المصدر ص ١٤٩
(٣) جروهمان : اوراق البردى ـ السفر ٣ ص ٤٨ ـ ٤٩
(٤) Bell: Translation of the Greek Aphrodits Paptri. PP. 272, 281, 283.
(٥) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٤٩

وتوضح اوراق البردى المختلفة جوانب هذه الحركة ، وكيف اهتم بها قرة بن شريك خاصة ، وكيف انه كان يأمر عماله على الاقاليم باعادة هؤلاء النزاع او الجالية (١) التى هى محور الحركة الى قراهم الاصلية. نذكر من هذه البرديات بردية تتضمن ماكتبه قرة بن شريك الى صاحب اشوقة. بأنه علم بوجود جالية على ارضه ويطلب منه ان يردها الى موطنها الاصلى. وقد جاء فى هذه البردية : " بسم الله الرحمن الرحيم من قره بن شريك الى باسيل صاحب اشوقة. فانى احمد الله الذى لا اله الا هو . اما بعد ، فان هشام بن عمر كتب الى يذكر جالية له بأرضك. وقد تقدمت الى العمال وكتبت اليهم الا يأووا جاليا فاذا جاءك كتابى هذا فادفع اليه ماكان له بارضك من جاليته ولا اعرفن ما رددت رسله او كتب الى يشتكيك. والسلام على من اتبع الهدى. وكتب يزيد فى جمادى الاخرة سنة ٩١هـ ". (٢)

وهناك بردية اخرى تشير الى ان قرة بن شريك أرسل مندوبين من قبله للنظر فى حركة الابقين وفى نفس الوقت يطلب من صاحب الكورة تيسير مهمة هؤلاء المندوبين بان يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا بكتابة اسماء الابقين والقابلهم ، وليبينوا ايضا الاماكن التى هربوا منها والاماكن التى لجأوا اليها من اجل حصر الذين عادوا الى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار فيها على ان يؤدوا الضرائب. ثم يأمر صاحب الكورة ان يوصف هؤلاء الاشخاص بالتزام الجد والنشاط فى هذا العمل ويحذرهم بعدم قبول الهدايا والرشوة والا الحق العقاب بصاحب الكورة والشخص المذنب ايضا . (٣)

---

(١) كان يقال لاهل الذمة " الجالية " لان عمر بن الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب والزمهم هذا الاسم اينما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من اهل الكتاب بكل بلد وان لم يجلوا عن اوطانهم. انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام حاشية ص ٢٧٧ ــ عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين حاشية ص ١٧ وكان يحدث مثل هذه الحركة اى الحركة الابقين ــ فى العصر البيزنطى فكثيرا ماكان الفلاحون يهجرون قراهم تخلصا من دفع الضرائب الباهظة : انظر :
Lammaurs: Un Gouverneur Omaiyade..,P.107

(٢) جروهمان : اوراق البردى ــ السفر ٣ ص ٢٣ ــ ٢٤

وهناك بردية ثالثة يطلب فيها قرة بن شريك من صاحب كورة اشقوه ان يرسل اليه الهاربين واسرهم ومتاعهم • وان يعد له سجلا باسماء الاشخاص الذين ارسلـــوا ه ويحدد في اى موضع من كورته هربوا هواملاك كل شخص والوقت الذى امضاه في كورتـه وكل معلومات لازمة عن الهاربين هون كذب او محاباة • وان يرسل الهاربيـــن وهذه المعلومات عنهم مع المندوب الذى ارسله قره لهذا الغرض ويهدده بأشد انـواع العقاب الجسمانى والمالى • اذا توانى فى تنفيذ ذلك • او تغافل عن احد الهاربين• كما نراه فى هذا الكتاب يهدد الذين يأوون الهاربين • بدفع غرامة كبيرة تفوق قدراتهم وامكانياتهم المادية • (١)

---

(١) = Bell : Op. Cit., PP. 269 - 270

دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٧١ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢٨ — وتذكر جزءا من نص البردية المشار اليها وقد جـــاء فيه : " ابعثوا الى الابقين رجالا يتوفر فيهم العدل ويعرفون الكتابـة بتعليمات ان ينتقلوا معهم الى لجنة الابقين وان يسجلوا فى حضرتهـــم اسم كل آبق ولقبه وكذلك المكان الذى فر منه والمكان الذى حل فيه وفـى اى اقليم• وذلك فى الحالتين : حالة الذين ردوا الى بلادهم• وحالـة الذين سمح لهم بالبقاء حيث نزلوا وبشرط ان يؤدوا ما عليهم من ضرائب"
انظر ، Bell: P. 270

(١) Bell : Op. Cit. , PP. 274 - 275

دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٧١ — ١٧٢ — سيدة كاشف : مصر فـى فجر الاسلام ص٢٨٨ وهذا بعض ما جاء فى هذه البردية — اقسم اننا اذا وجدنا بعد عودة رسولنا ابقا واحدا لم يسجل اسمه فى القائمة التى تبعثون بها الينا لنعاقبكم اعنف العقاب الامر الذى يستحقكم حقا • بغرامة فاحشة وقصاص دينـى موقعين الغرامة ايضا على سكان المكان الذى يوجد فيه مثل هذا الابق غرامـة فادحة باهظة وسنجرد رؤساءها والقائمين على الادارة فيها وحراسها تجريدا ثم نوقع عليهم قصاصا بدنيا لاهلك يفوق اقصى ما يتصورونه من عذاب • فلن نتـرك بعون الله اقليما واحدا فى مصر دون ان نبعث اليه بعمالنا الامناء القادرين • مزودين بتعليمات ان ينقبوا ويفتشوا بحمية وغيرة ودقة عن اولئك الابقين وان يأمروا كذلك بمكافأة كل من يعطى معلومات عن اى ابق مختفى من اولئك الابقين الذين امرنا بارسالهم الينا ومكافأة تفوق كل مكافأة يتوقعها كل من يزود بمعلومات•
انظر ، Bell: P.275

ونستخلص من هذه الوثيقة ان بعض الاهالى كانوا يرجمون بالابقين الى بلاد هم ويخفونهم فى منازلهم. ويؤكد لنا ذلك ما جاء فى البردية رقم ١٣٨٤ من بردى افروديتو. لكل من يثبت انه يخفى احدا من الابقين بعد هؤلاء سنوقع عليه غرامة وقدرها عشرة دنانير عن كل رجل وسنوقع على الابق غرامة قدرها خمسة دنانير وعلى الاداريين والرؤساء والبوليس خمسة دنانير. وسيكافأ بدينارين عن كل آبق. كل من يزود بمعلومات بعد اعداد القائمة". (١)

وهكذا استمر قرة بن شريك يراقب حركة الابقين بعزم ونشاط محاولا وقفها بمختلف الوسائل حتى توفى وانتهت ولايته على مصر فى سنة ٩٦ هـ. وولى خراج مصر فى هذه السنة أسامة بن زيد. وقد استمرت فى عهده حركة الهروب. ذلك انه تشدد فى جباية الضرائب المقررة على اهل الذمة ولذلك نجده يأمر المصريين بألا يأوى احد منهم غريبا فى الكنائس او الفنادق او السواحل ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان يلوذ بهم من الفقراء الابقين. (٢)

ومن اجل وضع حد لهذه الحركة التى كانت تسئ الى مالية البلاد بالاضافة الى ما كانت تسببه من الفوضى والاضطراب امر اسامة بن زيد بعمل سجلات للاهالى اشبه بجوازات السفر اليوم والزم كل شخص يريد الانتقال من جهة الى اخرى فى البلاد المصرية او يريد ركوب سفينة او النزول منها ان يحمل معه سجلا. وأمر عماله بالقبض على اى شخص يوجد ماشيا او عابرا من موضع الى موضع وليس معه سجله. واذا وجد شخص فى سفينة بدون سجل ينهب ما فى المركب وتشعل فيها النار،

---

(١) Bell: Op.Cit., PP. 379 - 380

دانيل دينيت : الجزية والاسلام ص١٧٢ ـ وامر حاكم الكورة ان يجمع كبار رجال كورته ورجال الشرطة. ويقرأ عليهم هذا الكتاب. ويطلب منهم كتابة نسخة منه وقراءتها على جميع الناس فى كل مكان داخل الكورة.

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص١٥١

اما من فقد سجله او أصابه التلف لسبب من الاسباب فلا يمكنه الحصول على سجل آخر الا بدفع غرامة قدرها خمسة دنانير . (١)

وهكذا كان اهل الذمة — خاصة — والمصريون عامة ، يقاسون احيانا من التشدد فى جباية الضرائب المختلفة التى اثقلت كواهلهم فى بعض الفترات . وبالرغم من ان الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد امر برفع الجزية والخراج — كما ذكرنا — عن الكنائس والاساقفة والرهبان — الا ان خلفه يزيد بن عبد الملك ، أعاد الجزية والخراج الى ماكانت عليه ، قبل عصر سلفه عمر بن عبد العزيز واخذ جميع المسيحيين بالشدة فى اداء الالتزامات المالية . (٢)

---

(١) نفس المصدر ص ١٥١ — ويسوق لنا قصة امرأة ارملة خرجت مع ولدها من الاسكندرية ومعها سجلهما فنزل ولدها يشرب من البحر فغرق ومعه السجل — فعادت الى الاسكندرية ، واخبرت المسئولين عما حدث لها ولكن لم يرأف احد بحالها ، بل امر حاكم الاسكندرية باعتقالها حتى تدفع عشرة دنانير نظير سجلا اخر مما اضطرها الى بيع ثيابها وكل ماتملك بل اضطرت الى طلب الصدقة حتى تجمع المبلغ المطلوب . انظر نفس المصدر ص ١٥١ — ١٥٢ . ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٦٩

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ ٢ ص ١٥٣

٧ـ ثورات المصريين وأثرها فى التعريب

استمر ولاة مصر فى تشددهم فى جباية الجزية والخراج وغيرها من الالتزامات المالية التى يلتزمها اهل الذمة ، بل زادوا فى مقدارها احيانا مادفع القبط وهم يمثلون جانبا كبيرا من اهالى مصر الى المقاومة الايجابية وترك المقاومة السلبية ونلمس ذلك فى العهد الذى تولى فيه عبيدالله بن الحبحاب خراج مصر ، فى عهد الخليفة هشام بن عبدالملك فقد امر عبيدالله باحصاء الناس والدواب وان تقاس الاراضى وتحصى الكروم حتى يمكن تحديد مساحة كل من الاراضى الزراعية والاراضى البور . ووضع علامات فى الاراضى المصرية . على الحدود والطرقات كما انه ضاعف الخراج . وامر بختم رقاب الذميين من سن العشرين الى المائة ـ بخاتم من الرصاص ، ووسم ايدى المسيحيين منهم بوسم الاسد . (١) وقد زاد عبيدالله فى الخراج على كل دينار قيراطا . (٢)

وأمام هذه الاعباء المالية المتزايدة ، بدأ المصريون القبط لاول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية يتركون المقاومة السلبية ويقاومون الحرب مقاومة ايجابية . فقاموا باول ثورة فى وجه الحكومة الاسلامية فى سنة ١٠٧ هـ ـ وتركزت الثورة فى الوجه البحرى . وكان والى مصر آنذاك الحر بن يوسف الذى بادر بارسال الجند اليهم فحاربوهم وقتلوا من القبط نفرا كثيرا . (٣)

وقد تتابعت ثورات القبط بعد ذلك وشملت الوجه القبلى الى جانب الوجه البحرى ففى سنة ١٢١ هـ . فى ولاية حنظلة بن صفوان انتقض اهل الصعيد وحارب القبط عمالهم فأسرع حنظلة بارسال الجند لمحاربتهم والقضاء على هذه الحركة . وتمكن الجند من قمع هذه الحركة وقتل كثير من القبط . (٤)

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٥٤

(٢) المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣٩٤ ـ ويقول ابن المقفع انه زاد على الدينار ثمن دينار . انظر سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٥٩

(٣) الكندى : الولاة والقضاء ص ٧٣ـ٧٤ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣٩٤
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٥٩ ـ ولعل هذه الثورة وماكان من قمع الحكومة لها هى ماقصده ابن المقفع بعبارته التالية : " فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذى اضعفه عليهم ثار حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بارض مصر بين القبيلتين فى اول مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمنود وما يجاورهم ومواضع كثيرة فى اسفل الارض . وكذلك كان فى الطرق والجبال والبحار . "
انظر : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ١٥٤ـ١٥٥

وفى سنة ١٣٢ هـ خرج رجل من القبط بسمنود وكان يسمى يحنس وثار ضد حكومة العرب فى ولاية عبد الملك بن موسى النصيرى الذى بعث اليه بالجيوش فهزم وقتل نفر من اصحابه. (١)

ثم ثار القبط فى رشيد فى نفس هذا العام فلما وصل مروان بن محمد — آخر الخلفاء الامويين الى مصر فارا من وجه خصومه العباسيين ارسل اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم. (٢) كذلك ثار اهل البشرود فى نفس السنة اى سنة ١٣٢هـ وكان على رأسهم مينا ابن بقيرة وامتنعوا عن اداء الخراج وخرج عبد الملك بنفسه لقتالهم. وقمع ثورتهم الا ان البشموريين تمكنوا من هزيمته. فأرسل اليهم عسكرا آخرا. يساعده اسطول فى البحر ولكنهم تغلبوا عليهم ايضا فى البر والبحر. ورأى مروان بن محمد مصالحتهم ومصالحتهم نظرا لاقتراب خصومه العباسيين منه. فكتب اليهم بالعهد والامان الا انهم رفضوا ذلك فارسل اليهم جيوشا كثيفة ولكنها لم تتمكن من الوصول اليهم. لانهم تحصنوا فى مواضع الوحلات التى لا يقدر ان يصل اليها سوى رجل ه رجل.. فاذا ذلت قدمه فى الطريق.. هلك.. وكان العساكر يحرسونهم برا. فيخرجون لهم فى الليل البشامرة من طرق يعرفونها يتلصصوا عليهم ويقتلوا من قدروا على قتله ويسرقوا اموالهم وخيلهم فيطول عليهم الامر فيرحلوا عنهم". (٣)

وهكذا اخفق مروان وجنوده فى القضاء على ثورة البشموريين والزامهم الهدوء وأرغامهم على أداء ما عليهم من الضرائب. وقد اتهم البطرك انبا خايال بانه حرضهم

= (٤) الكندى : الولاة والقضاة ص٨١ — المقريزى : الخطط : جـ٤ ص ٣٩٥
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة. جـ١ ص ٢٨١

(١) الكندى : الولاة والقضاء ص ٩٤
المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣٩٥.

(٢) الكندى الولاة والقضاة ص٩٦ — المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣٩٥

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص١٩١

على الثورة والعصيان فقبض عليه وألحق به قواد مروان كثيرا من ألوان التعذيب ، وأرادوا قتله ولكنهم فى نهاية الامر فكروا فى حملة معهم الى البشامرة ليهدئ من روعهم ، ويضطرهم الى السكينة والهدوء ويعلمهم ان كل ما أصابه يرجع الى تمردهم وعصيانهم. وعليه خرج الجند ومعهم البطرك الى البشامرة . الا انهم تمكنوا من هزيمتهم ، هزيمة ساحقة ، وقتلوا اكثر جند مروان ، وطردوا الباقى . ومن ثم عجز مروان وجنده عن القضاء على انتفاضة هؤلاء القبط وما لبث ان تمكن العباسيون من دخول مصر والقضاء على الخلافة الاموية نهائيا . فتفاءل القبط خيرا فى مصر ، وخمدت ثورة البشامرة. (١)

وبالرغم من ذلك فالمشكلة المالية بالنسبة للقبط لم تنته بقيام الدولة العباسية وزوال حكم الامويين ، بل زادت الضرائب عما كانت عليه زمن الامويين. اذ لم تمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية حتى ضوعف الخراج على القبط . ولم يتحقق ما وعدهم العباسيون به من التخفيف عنهم فى الاعباء المالية. (٢)

وسرعان ما عاد القبط الى الانتفاض والثورة والامتناع عن آداء الخراج وغيره من الضرائب. فثار قبط سمنود فى سنة ١٣٥ هـ فى عهد الوالى أبى عون عبدالملك بن يزيد عندما ولى مصر فى المرة الاولى (١٣٣ — ١٣٦ هـ) فبادر بارسال جيش لقتالهم فتمكن من هزيمتهم وقتل زعيمهم (أبو مينا) . (٣)

وثار قبط سخا فى سنة ١٥٠ هـ فى عهد والى مصر يزيد بن حاتم بن قبيصة ، وطردوا العمال المسلمين وانضم الى هذه الثورة جماعة البشموريين وحضرها الى الوجه البحرى فبعث اليهم يزيد بن حاتم بالعساكر لقتالهم والقضاء على ثورتهم الا ان القبط فى هذه المرة تمكنوا من هزيمة المسلمين وقتل كثير من امرائهم وقوادهم. (٤)

---

(١) نفس المصدر ص ١٩١ — ١٩٢ ، ١٩٤ — ٢٠٥

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ٢٠٥ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦

(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٩١

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١١٦ — ١١٧ — المقريزى : جـ٢ ص ٩٣ — جـ٤ ص ٣٩٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٣

وفى سنة ١٥٦ هـ انتفض القبط على العمال العرب وكان ذلك فى عهد الوالى موسى بن على رباح اللخمى فى بلهيب ، فأرسل موسى بن على اليهم جيشا تمكن من هزيمتهم والقضاء على تمردهم. (١) ويبدو انه قبض على نفر كثير من القبط . ويقول ابو المحاسن (٢) انه قتل منهم جماعة وعفى عن جماعة اخرى.

واستمر الولاة المسلمون بالرغم من ذلك يضاعفون الخراج ويتشددون فى جباية الضرائب وعليه استمر القبط من جانبهم فى الانتقاض واعلان العصيان خاصة فى بعض اقاليم الوجه البحرى وقد شاركهم فى الثورة والانتقاض العرب فى مصر ففى سنة ١٧٨ هـ زاد اسحق ابن سليمان الخراج على المصريين فخرج عليه اهل الحوف فقاتلهم ولكنه لم يتمكن من القضاء على عصيانهم نهائيا ، فبعث الخليفة هارون الرشيد اليه هرثمة بن اعين فى جيش عظيم ونزل اقليم الحوف ،فأذعن اهله له بالطاعة ودفعوا ما قرر عليهم من الخراج ثم خرج اهل الحوف. مرة ثانية على الليث بن الفضل لانه بعث بمساحين لمسح الاراضى الزراعية فانتقصوا من القصبة اصابعا ، فتظلم الناس الى الليث الا انه لم يستجب اليهم فساروا الى الفسطاط فى سنة ١٨٦ هـ. لقتاله الا انه تمكن من هزيمتهم وامتنعوا عن اداء الخراج فى السنة التالية مما اضطر الليث بن الفضل الى الخروج الى بغداد فى المحرم سنة ١٨٧هـ. وطلب من الخليفة الرشيد ان يرسل برفقته جيشا يمكنه من جباية خراج اهل الحوف. فسأل محفوظ بن سليم ، الخليفة، ان يوليه خراج مصر وضمن له الجباية بلا سوط ولاعصا ، فعهد اليه الخليفة بذلك الا ان اهل الحوف كانوا كثيرا ما يمتنعون عن اداء الخراج المقرر. (٣) وبالرغم من اننا لانجد فى هذه الاحداث تحديدا للقبط ، او سواهم ممن قاموا بالثورة فاننا نرجح انه قد شارك العرب المسلمون ، القبط فى هذا العصيان والامتناع عن أداء الخراج ، وخاصة ان عددهم قد زاد فى مصر وتوسع انتشارهم فى المدن والقرى المصرية واشتغل الكثير منهم بالزراعة .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١١٩ — المقريزى : الخطط ج٢ ص ٩٣ ج٤ ص ٣٩٦
(٢) النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٥
(٣) المقريزى : الخطط ج١ ص ١٢٩ — ١٣٠

كانت آخر ثورة للقبط في مصر او بمعنى اخر ، آخر محاولة لهم في المقاومة الايجابية نتيجة تشدد بعض الولاة ومضاعفة الخراج عليهم في سنة ٢١٦ هـ في عهد الخليفة العباسي المأمون ، وولاية عيسى بن منصور على مصر . وقد شارك العرب القبط في هذه الثورة وتقول الرواية العربية : " انتقضت اسفل الارض كلها عربها وقبطها في جمادى الاول في سنة ٢١٦ هـ . واخرجوا العمال وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم " . (١) بينما تشير الرواية القبطية الى ان الخراج ، كان يتولى امره في ذلك الحين شخصان هما : احمد بن الاسبط والثاني : ابراهيم بن تميم . وكانا يتصفان بالقسوة والعنف في جباية خراج مصر ، مما أرهق النصارى وجعلهم في ضيق شديد ، أدى الى الثورة واعلان العصيان . (٢)

ويبدو ان هذه الثورة كانت من اشد ثورات القبط واعنفها خاصة وانه قد تعاون كل من القبط والعرب المسلمين فيها فصاروا قوة لايستهان بها لدرجة بلغت معها ان والى مصر عيسى بن منصور وجنوده لم ينجحوا في الصمود امام جموع الثائرين حتى قدم اليهم الافشين من برقة . (٣) وتمكن من التغلب على الثائرين وبدد جمعهم ثم توجه الى منطقة الحوف الشرقي حيث تمكن من هزيمة الثائرين به . وأرسل في نفس الوقت عيسى بن منصور وبعض القواد الاخرين الى مختلف الجهات بالوجه البحرى . ثم سار الافشين الى الاسكندرية فهزم الثائرين فيها وسيطر على المدينة وتفرغ الافشين بعد ذلك للقضاء على تمرد البشموريين وعصيانهم (اهل البشمور) . (٤)

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠ .
المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٣٠

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ١ جـ٢ ص ٢٧٦

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٥ ــ ٢١٦

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٠ ــ ١٩١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٦ .
ويقول ابن المقفع (م ١ جـ٢ ص ٢٧٦) انه لما انتهى الى المأمون حال مصر ومافعله الثائرون بها بعث اليهم عسكرا بقيادة الافشين فقتل الذين نافقوا والخارجين عليه في شرقى مصر الى ان وصل الاسكندرية فأراد قتل اهلها لانهم مكنوا الثائرين من دخول المدينة .

ويبدو ان البشموريين كانوا قد قاسوا كثيرا من عمال الخراج مما اضطرهم الى بيع اولادهم والعمل فى الطواحين بدلا من الدواب فتقول الرواية القبطية : " واكثر النصارى البشموريين • كانوا يعذبون بعذاب شديد مثل بنى اسرائيل الى ان باعوا اولادهم فى الخراج من كثرة العذاب لانهم كانوا يربطوهم فى الطواحين ويضربوهم حتى يطحنوا مثل الدواب • وكان الذى يعذبهم رجل يعرف (غيث) او (بغيث) وتمادت عليهم الايام وانتهوا الى الموت ". (١)

ومما لاشك فيه ان الظلم يولد الانفجار • وكان من الطبيعى ـ نتيجة لذلك ـ ان ينتفض البشموريون ويمتنعوا عن أداء الخراج المقرر عليهم • وكان من اكبر العوامل المشجعة لهم على ذلك طبيعة ارضهم • " فلما نظر اهل البشموريين ان لبلادهم موضع يخرجوا منه وموضعهم لايقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه وما يعرف طرقهم الا هم فبدوا ينافقون ويمتنعوا ان يدفعوا الخراج • واتفقوا وتآمروا على ذلك ". (٢)

وبعد ان انتهى الافشين من امر الوجه البحرى واخضع مدينة الاسكندرية • تفرغ للقضاء على ثورة البشامرة ولكنه عجز عن التغلب عليهم فقد استمروا فى عصيانهم • وكتب الافشين بذلك الى الخليفة المأمون فى بغداد • (٣) فلما علم المأمون بما وصلت

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ ج٢ ص٢٧٦

(٢) نفس المصدر ص٢٧٦ • وقد حزن البطرك انبا يوساب لتمرد هؤلاء القوم لانهم فى النهاية سوف يعجزون عن المقاومة • فكتب اليهم كتبا كثيرة يخوفهم فيها ويردعهم عما هم متمادون فيه • الا انهم لم يكونوا يعطون ذلك اى اهتمام • ومع ذلك استمر يكاتبهم ويستشهد لهم فى كتبه ببعض الاقوال المأثورة مثل : " كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله • والذى يقاوم يدان ويذكر ابن المقفع انه لما وصلت كتب البطرك الى البشامرة وثبوا على الاساقفة ونهبوا جميع ما معهم وأهانوهم كثيرا • انظر نفس المصدر ص٢٧٧

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ ج٢ ص٢٧٧ ـ الكندى : الولاة والقضاة ص١٩١ •

اليه حال البشامرة فى مصر قدم اليها واصطحب بطرك انطاكيا انبا ديونوسيوس.(١)
ودخل المأمون مصر فى المحرم سنة ٢١٧ هـ وسخط على الوالى عيسى بن منصـــور
وعماله وقال له : "لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتــم
الناس ما لا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد ".(٢)

ونحن نرجح ان المأمون اراد باصطحاب بطرك انطاكيا ان يعتمد على الاثـــر
الدينى فيضغط على كل من بطرك انطاكيا وبطرك مصر على الثائرين. فيستجيبوا لهما،
لما لهما من مكانة روحية لدى المسيحيين ورئاسة دينية عليهم. ولذا طلب المأمون من
البطركين التوجه الى هؤلاء الثائرين لتهدئة روعهم وارضائهم. وقال لهما : "ان تمضيا
الى هؤلاء القوم وتردعوهم كما يجب فى ناموسكم ليرجعوا عن خلافهم، ويطيعوا امرى،
فان اجابوا فأنا افعل معهم الخير فى كل مايطلبوه منى وان تمادى على الخـــلاف
فنحن بريئين من دمائهم ". وتوجه البطرك ديونوسيوس والبطرك انبا يوساب الــى
اهل البشرود وحاولا ارشادهم ونصحهم حتى يتخلوا عن عصيانهم ويضعوا حدا لتمردهم
ولكن بدون جدوى، فقد اصر البشموريون على موقفهم من الحكومة الاسلامية.(٣)

فلما ادرك المأمون اصرار البشموريين على الثورة ارسل الافشين على رأس الجيش
لقتالهم ولكنه اخفق لحصانة موضعهم، فخرج المأمون لقتالهم وحشد معه جميع مــن
يعرف طرقهم من اهل المدن والقرى المجاور وركز كل قوته ضدهم حتى اضطـــروا
الى التسليم فاعمل الجند فيهم السيف وأخربوا مساكنهم ونهبوها، واشعلوا فيهـــا
النار، وهدموا كنائسهم.(٤)

ويقول المقريزى :(٥) "فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية، فبيعوا
وسبى اكثرهم .. ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع ارض مصر ولم يقدر احد منهم بعـد

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص٢٧٨. وميخائيل يسمى البشموريين Biamayé انظر Chronique de Michel le Syrien,T.3/, fasc.1, P.67

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص١٩٢

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص٢٧٩ و Chronique de Michel le Syrien,T.3,fasc.1,PP.77-78

(٤) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص٢٧٩

(٥) الخطط جـ٤ ص٣٩٦

ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى ، فرجعوا من المحاربة الى المكايدة ، واستعمال المكر والحيلة ، ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتاب الخراج ... " .

وقد لمسنا عند دراستنا لدور اهل الذمة فى الحياة السياسية كيف كان الولاة والخلفاء يتوسعون فى استخدامهم فى دواوين الخراج وما يتصل بها من الاعمال ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، كما لاحظنا ان كثيرا من القبط كان عندما يصل الى المناصب الرئاسية يعمد الى خدمة اخوانهم القبط واستخدامهم واحلالهم محل الموظفين المسلمين .

ويمكننا ان نقول بعد ذلك ان الجزية والخراج وغيرهما من الضرائب المفروضة على اهل الذمة كانت من اهم موارد الحكومة العربية فى مصر ، وكان اول من جبى خراج مصر وجزيتها عمرو بن العاص وذلك فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وبلغ مقدار ما جباه عمرو بن العاص اثنا عشر مليون دينار ، (١) ويشير المقريزى (٢) الى ان هذا المبلغ جباه عمرو بن العاص من جزية الرؤوس فقط دون الخراج ، ولعل البلاذرى (٣) كان يقصد بعبارته " جبى عمرو خراج مصر وجزيتها الفى الفى ، ما جباه عمرو بن العاص من الخراج وهو اثنا عشر مليون دينار .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٥
ابن زولاق : فضائل مصر ورقة ٢٩ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٢٩ .
بينما يذكر اليعقوبى (البلدان ص ٣٣٩) ان عمرا جباها فى اول سنة اربعة عشر مليون دينار ثم فى السنة التالية اثنا عشر مليون دينار ، وكان نصيب الاسكندرية من هذا المبلغ ثمانية عشر الف دينار ، انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٥
ويقول ابو صالح الارمنى ص ٢٩ ، ان هذه الجزية التى جباها عمرو بن العاص من مصر والتى حملت الى دار الخلافة كانت من القبط فقط دون اليهود بمصر واعمالها ، والواقع ان هذا المبلغ الذى بعث بن عمرو الى المدينة كان بعد حبس ما يحتاج اليه من النفقات المحلية اذ كان يلزم مصر لحفر الخلجان واقامة الجسور وبناء القناطر من العمال حوالى مائة وعشرين رجلا وغير ذلك من وجوه الانفاق ، انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٤

(٢) الخطط جـ١ ص ١٥٩
(٣) فتوح البلدان ص ٢١٧

وكان الخلفاء يبدون اهتماما عظيما بجباية مصر وقد ظهر ذلك بوضوح منذ السنوات الاولى للعرب فى مصر . ويدلنا على ذلك الكتابات المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وواليه فى مصر عمرو بن العاص، ويجدر بنا الاشارة الى نص ما جاء فى بعض هذه المكاتبات والواضح منها ان عمر بن الخطاب استبطأ عمرو بن العاص فى ارسال الخراج فكتب يستعجله ويوبخه على تأخره. فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو اما بعد ، فانى فكرت فى امرك والذى انت عليه ، فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة قد اعطى الله اهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة عملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لاتؤدى نصف ماكانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط، ولا جدوب . ولقد اكثرت فى مكاتبتك فى الذى على ارضك من الخراج . وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت ان تفيق فترفع الى ذلك ، فاذا انت تأتينى بمعاريض تغتالها . لاتوافق الذى فى نفسى ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به قبل ذلك من الخراج ولست ادرى بعد ذلك مما الذى انفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا ان البراءة لنافعة من ان كنت مضيعا نطفا . (١) ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت ان ابتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء ان تفيق فترفع لى ذلك، وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا عمالك عمال السوء، وما توالس عليه . وتلفف اتخذوك كهفا وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك عنه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق فتعطاه فان النهز (٢) يخرج الدر ، والحق ابلج ودعنى وماعنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام ". (٣)

---

(١) نطف الرجل — اذا اتهم بريبة.

(٢) نهز الناقة : اى ضرب ضرتها لتدر

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٣ — ٢١٤. وقد تأثر عمرو بن العاص بما جاء فى هذا الكتاب وكتب الى الخليفة عمر يلومه " بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام عليك فانى احمد الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد ، فقد بلغنى كتاب امير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى واعجابك من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها منذ كان الاسلام . ولعمرى للخراج يومئذ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم ارغب فى عمارة ارضهم منا منذ كان الاسلام وذكرت ان النهز يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع ذلك درها ، واكثرت فى كتابك وانبت وعرضت وثربت وعلمت ان ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر . فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا

===

ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ثانية وقد جاء فى كتابه هـــذا :
" من عمر بن الخطاب سلام عليك فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو. اما بعد ، فقد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج وكتابك الى ببينات الطرق. وقد علمت انى لست ارضى فعلا الا بالحق المبين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابى هـذا ، فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين وعندى من تعلم ، قوم محصورون والسلام ." (١)

وبعد عهد عمرو بن العاص زادت جباية مصر فقد بلغ خراج مصر فى ولاية عبد الله ابن سعد بن ابى سرح اربعة عشر مليون دينار فاستحسن الخليفة عثمان بن عفان ذلك منه واستحضر الوالى السابق ، عمرو بن العاص ، واعلمه مقدار ما جباه عبد الله بن سعد ، وقال له : " يا ابا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الاول. فاجابه عمرو : أضررتم بولدها ". (٢) ونفهم من هذا الحديث كيف كان الخليفة شديد الاهتمام بجباية مصر ،

= ويصدق فيه قيلنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فاقبض عملك فان الله قد نزهنى من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه اخا ، والله يابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى اشد لنفسى غضبا ، ولها انزاها واكرما ، وما عملت من عمل ارى على فيه متعلقا ولكنى حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا وسكت عن اشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل ، والسلام ". انظر نفس المصدر ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(١) نفس المصدر ص ٢١٥ ـ وقد رد عمرو بن العاص على هذا الكتاب موضحا سبب تأخره فى ارسال الخراج ، فكتب " بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فانى احمد الله اليك لا اله الا هو ، امـا بعد فقد اتانى كتاب امير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم انى اعند على الحق وانكب عن الطريق وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظرونى الى ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان يخرق فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه ، ويضيف هذا المؤرخ الى ذلك ان عمر بن الخطـاب قد سأل بعض القبط عن خراج مصر وشأنه قبل الاسلام فأجابه بما جعل الخليفـة يقبل اعتذار عمرو بن العاص عن تأخره فى ارسال خراج مصر . انظر نفس المصدر ص ٢١٥ ـ ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ ـ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧ ابن زولاق : فضائل مصر ورقة ٢٩ ـ ويشير ابن زولاق الى ان هذه الزيـادة فى ولاية عبد الله ومصدرها انه زاد فى الخراج المرسل الى الخليفة بينما انقص المؤن والنفقات المحلية .

ويحرص من جانبه على زيادته • ولكن الواقع ان خراج مصر قد نقص بعد ذلك ولم يصل طوال هذا العصر الذى ندرسه الى ماكان عليه فى امارة كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن ابى سرح •

تشير بعض المصادر التاريخية الى ان جباية مصر فى عهد الوالى مسلمة بن مخلد كانت خمسة مليون دينار (١) • وانه ارسل منها الى الخليفة معاوية بن ابى سفيان • ستمائة الف بعد ان أدى الى اهل الديوان اعطياتهم وارزاقهم وأداء رواتب الكتاب وغير ذلك من المصروفات كما ارسل ايضا القمح الى المدينة• (٢)

ويرجع هذا النقص فى خراج مصر الى عدة اسباب • أولها : تحول كثير من اهل الذمة الى الاسلام — بتعاقب السنين — وبالتالى اعفائهم من كثير من الالتزامات المادية التى كان يؤديها الذمى وخاصة الجزية • مما كان يؤثر فى خراج مصر وايراداتها المالية• أما العامل الثانى فهو ان ولاة مصر فى العصرين الاموى والعباسى كان كل همهم جمع ما يمكن جمعه من الاموال لارضاء الخليفة من ناحية وادخار ما يمكن ادخاره لانفسهم من ناحية اخرى •لقصر فترات توليهم الحكم فلم يعنوا بعمارة الاراضى • وماتتطلبه من اصلاح الجسور وحفر الترع والقنوات واقامة السدود • وغير ذلك من وجوه الاصلاح والتعمير • اما العامل الثالث فهو ماكانت تتعرض له البلاد من فتن وثورات داخلية • او حروب خارجية• تتطلب كثيرا من النفقات كما انها كانت تشغل الناس عن الاهتمام بأراضيهم واعمالهم• ومن ثم ينقص الدخل ويتعذر على المصريين أداء ماعليهم من الاعباء المالية •

ويقول المقريزى (٣) بشأن تناقص خراج مصر وايرادها " وانحط خراج مصر • بعدهما — أى بعد عهد كل من عمرو بن العاص وعبدالله بن سعد — لنمو الفساد مع الزمان وسريان الخراب فى اكثر الارض ووقوع الحروب فلم يجبها بنى امية وخلفاء بنى العباس الا دون الثلاث ألف وما خلا ايام هشام بن عبدالملك فانه وصى عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة "• ذلك ان عبيدالله امر عماله بمسح الاراضى المصرية لتحديد مساحة الاراضى العامرة الصالحة للزراعة من الاراضى الغامرة او بمعنى آخر البور• وماترويه مياه النيل من هذه الاراضى • كما انه اصلح كثير من الاراضى وعمل على تقويمها وتمكن

(١) اليعقوبى : البلدان ص٣٣٩ ويشير الى ان هذا المبلغ كان من خراج الارض والجزية•
(٢) المقريزى : الخطط جا ص١٢٧
(٣) الخطط جا ص١٥٩

نتيجة لهذه العمارة من جباية خراج مصر اربعة ملايين دينار. (١)

ونلاحظ نقص خراج مصر كثيرا فى نهاية العصر الاموى ، فقد بلغ ما أرسله والى مصر الى دمشق فى عهد الخليفة الاموى مروان بن محمد بعد خصم النفقات والمتطلبات الداخلية مائتى ألف دينار. (٢)

وبلغ خراج مصر فى خلافة المهدى العباسى فى سنة ١٦٢هـ حوالى مليون وثمانمائة وثمان وعشرين ألف وخمسمائة دينار. (٣) ثم زاد فى خلافة هارون الرشيد وولاية موسى ابن عيسى فبلغ مليونين ومائة وثمانين ألف دينار. (٤) ومما لاشك فيه ان هذه المبالغ كانت تحمل الى بغداد بعد استقطاع ماتتطلبه النفقات المحلية فكان مجموع ما جباه موسى بن عيسى من الجزية والخراج اربعة مليون دينار. وقد استمر خراج مصر بعد ذلك ثلاثة ملايين دينار. (٥) وان كانت بعض المصادر تشير الى ان خراج مصر بلغ فى عهد الخليفة المأمون اربعة مليون ومائتين وسبعة وخمسون الف دينار.(٦)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص١٥٩ وتشير بعض المصادر الاخرى الى ان جباية مصر فى ولاية ابن الحبحاب كانت مليونين وسبعمائة الف وثمان مائة وسبعة وثلاثين دينار (٢٧٠٠ر٨٣٧) دينار ، ومما لاشك فيه ان هذه المصادر تقصد بهذا المبلغ ما ارسله ابن الحبحاب الى دمشق بعد اعطاء الرواتب والنفقات المختلفة على المرافق والعمارة. انظر : ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص١١٨ .
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٣ـ٨٤. ويشير البلاذرى الى ان نصيب الاسكندرية من هذا المبلغ كان حوالى ٦٣٠ الف دينار . انظر فتوح البلدان ص٢٥٥.

(٢) تاريخ ابو صالح الارمنى ص ٢٥

(٣) نفس المصدر ص ٣١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٧٦. ابن رسته: الاعلاق النفيسة ص١١٨

(٥) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩

(٦) المقريزى : الخطط جـ١ص ١٣٠ـ وفى عصر المأمون كان اهل تنيس يلزم كل واحد من اهل الذمة بدفع خمسة دنانير جزية دون فرق بين غنى وفقير. فجعل امير مصر عبد الله بن طاهر الجزية مستويات ثلاث تتناسب وحالة كل ذمى من الغنى والفقير. انظر:
Chronique de Michel, T.3, Fasc.1, P.64 et
Quatrémere: Memoires Geographiques et Histoiriques...,
T.T., P. 221.

وفى عهد الامراء الطولونيين ، زاد خراج مصر عما كان عليه قبل ذلك العصر ، وترجع هذه الزيادة الى اهتمام الامراء بعمارة الارض وتحسين المحصول . فقد تسلم احمد ابن طولون اراضى مصر من احمد بن محمد بن مدبر وقد اصابها الخراب ونقص خراجها كثيرا . فاهتم ابن طولون بتعميرها حتى بلغ خراج مصر اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار ونقصت جباية مصر عن هذا القدر قليلا فى امارة ابنه خمارويه فجبى اربعة ملايين دينار.[1]

اما فى عهد الامراء الاخشيديين فقد نقص خراج مصر عن ذلك كثيرا وبلغ فى عهد كافور الاخشيدى ثلاثة ملايين ومائتين وسبعين الف دينار . وكان هذا المبلغ أقل كثيرا من الاموال المطلوبة للنفقات المحلية .[2] وقد ساهمت الفيوم وحدها فى جملة هذا الخراج بستمائة وعشرين الف دينار .[3] وساهمت فيه الاديرة وحدها (فى كورة الفيوم) بحوالى خمسمائة دينار . وكان عدد الاديرة المؤدية لهذا الخراج عن اراضيها خمسة وثلاثون ديرا .[4] بينما زاد الخراج عن ذلك قليلا عندما تم للفاطميين فتح مصر ، فجباها قائدهم جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨هـ ثلاثة ملايين واربعمائة ألف دينار . وربما كانت هذه الزيادة راجعة الى زيادتهم الضريبة النقدية على الفدان اذ انه فى هذا العام جباها جوهر سبعة دنانير عن الفدان الواحد . بينما كان المصريون يؤدون قبل ذلك عن الفدان ثلاثة دنانير ونصف وربما زاد او نقص عن ذلك قليلا .[5]

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٥٩

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ٣ ص ٢٢٤ — تاريخ ابو صالح ص ٣٠ - ٣١

(٣) تاريخ ابو صالح ص ٢٤

(٤) نفس المصدر ص ٢٤ — والواضح من الروايات التاريخية ان خراج هذه الاديرة لم يتغير فى ذلك العصر عما كان عليه فى عصر الولاة الامويين . اذ كان خراج هذه الاديرة فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية ابو القاسم بن عبيد الله نفس المبلغ (خمسمائة دينار) — انظر : ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ٢ ص ١٦٣ .

(٥) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٥٢ — المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٢ . بينما كانت الجزية اربعة دنانير وسدس للموسرين بينما يدفع المتوسط الحال . دينارين وقيراطين ومن دون ذلك دينار وثلث وربع وحبتين ويضاف الى كل طبقة درهمين وربع للموظفين القائمين بالتحصيل وهذه المستويات الثلاثة منذ خلافة الحافظ ووزارة رضوان بن ولخشى ويبدو انها استمرت كذلك حتى عهد الايوبيين . انظر ابن المقفع : سير الاباء م٣ جـ١ ص ٣١ . ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣١٨ — ٣١٩ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٤٩

نستخلص من دراستنا هذه وجود عديد من الضرائب التى يلتزم بها الذمى فى مصر الاسلامية فنجد الى جانب الجزية والخراج ضرائب لتغطية الاحتياجات الرسمية والاعباء الغير اعتيادية كضيافة المسلمين وارزاقهم وكسوتهم وضرائب لتغطية نفقات الموظفين المحليين وضرائب على التجارة الداخلية والخارجية وتسمى المكوس • وكان يقوم بتقدير هذه الضرائب اشخاص معينون من القرية نفسها او الكورة • ويكتبون بذلك سجلات • ترسل الى ديوان الخراج الرئيسى فى العاصمة المصرية بناء على تعليمات واردة منه قبل القيام بهذا التقدير • ثم بعد ذلك يرسل والى الخراج أمر طلب بجباية الضرائب المقررة لكل قرية او قسم من الكورة • فيقوم موظفوا ديوان الخراج المحلى بجبايتها وعمل قوائم باسماء الافراد ومقدار ما دفعه كل منهم •

ونلاحظ انه لم يكن هناك حصة معينة من الضرائب النقدية او العينية تلتزم بها كل قرية أو كورة وانما كان اساس الضرائب فى مصر آنذاك الفرد • وعليه كان مقدار الضرائب يختلف من مكان الى آخر حسب عدد السكان وحالتهم ومساحة الاراضى المزروعة •وكان يعفى من الجزية بعض الفئات من اهل الذمة وهم : النساء والاطفال والشيوخ والفقراء والعاجزين والرهبان وان كان هؤلاء الرهبان قد ألزموا فى بعض الفترات المحدودة بأداء الجزية كما انه كان يعفى من الجزية دون الخراج كل من يعتنق الاسلام من أهل الذمة وان كان كثير من الولاة قد حرص على ان يدفعها الذمى الذى اسلم حتى لا يضر ذلك ديوان الخراج ومالية البلاد •

وقد افادتنا كثيرا من أوراق البردى اليونانية والعربية فى توضيح نظام الضرائب المفروضة على أهل الذمة ومقدارها • وكيفية جبايتها • وان كان اكثر هذه البرديات خاص بالقرن الاول الهجرى • أو بمعنى آخر بعصر الوالى قره بن شريك بصفة خاصة • كما نلاحظ ان ما جاء فى اوراق البردى من معلومات يتفق كثيرا مع ما جاء فى المصادر الفقهية والتاريخية •

ونستخلص ايضا من دراستنا للضرائب المفروضة على اهل الذمة فى مصر واثرها فى الموارد المالية للبلاد وان اهم هذه الضرائب كانت الجزية والخراج كما ان اهل الذمة قد قبلوا اداءها فى بداية الامر وسلموا بها دون مقاومة او محاولة

للامتناع عن ادائها • ولكنهم امام زيادة الاعباء المالية المتوالية عليهم عمدوا الى المقاومة السلبية فى بداية الامر والهروب من منطقة الى اخرى تخلصا من دفع الضرائب المقررة • الا ان ولاة مصر فطنوا لذلك •وحاولوا جاهدين وضع حد لحركة الابقين والقضاء عليهـــا ثم بدأ القبط منذ سنة ١٠٧ هـ المقاومة العلنية الدموية ضد عمال الخراج وجبــــاة الضرائب • الا ان ثورات القبط التى استمرت اكثر من قرن من الزمن كانت سرعان ما يقضـى عليها • وكانت آخر ثورة لهم فى سنة ٢١٦هـ • وبعد القضاء عليها سنة ٢١٧ هـ لــم يعد القبط يقومون بأى محاولة للانقضاض والثورة وأصبح الذميون اقلية فى مصر فعمدوا الى وسائل المكر والدهاء • ولجأ امراء مصر وخلفائها الى استخدام الذميين فى ديـوان الخراج وغيره من الاعمال •فصاروا يؤدون ما عليهم من الجزية والخراج وغيرها من الضرائـب كما تطلب منهم طوال تاريخ مصر الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمــى •

الباب الثاني

مظاهر التعريب
وآثاره في الحياة الفكرية

١- تعريب الدواوين وأثره فى انتشار اللغة العربية فى مصر
٢- اثر التعريب فى قيام المدرسة العلمية الاسلامية
٣- دور الذميين المصريين فى الحياة الفكرية العربية
٤- دور الصحابة والتابعين والقضاة فى التعريب وفى النهضة الفكرية.
٥- دور الموالى فى النهضة العلمية.
٦- أثر التعريب فى ظهور الفكر الصوفى ودوره فى الحياتين السياسية والاجتماعية فى مصر.
٧- دور التعريب فى نهضة الدراسات اللغوية والنحوية
٨- ديوان الرسائل ودوره فى تدعيم التعريب فى مصر الاسلامية

١ـ تعريب الدواوين وأثره في انتشار اللغة العربية في مصر

كانت مصر احدى الامم القليلة التي تخلت نهائيا عن ماضيها الوطني ، وعن لغتها القديمة ، ورمت بنفسها في احضان الاسلام والمدينة الاسلامية "، واخذت تندمج في مجموعة الشعوب العربية، (١)

يقول اسرائيل ولفنسون " ان اول عهد المصرية باللغة العربين يبدأ من ذلك اليوم الذي تم فيه لعمروا بن العاص فتحها ، فلما تم للعرب فتح مصر ، بدأت اللغة العربية تنتشر ولكن بصعوبة وبطأ ". (٢) اذ لم يكن من الطبيعي ان تظل لغة العرب وثقافتهم بمنأى عن أهل البلاد ، بعد ان ساد العرب البلاد حربيا وسياسيا وبعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الامر في حيز محدود في مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار ان يختلطوا بالفاتحين وان يعرفوا لغتهم وكان لهذا الاختلاط بين الطرفين طرقا متعددة ، ومن ذلك انه بالرغم من اختلاط الجند العربي بالفسطاط الا ان هؤلاء لم يقيموا بصفة دائمة فيه ، فكانوا يتحركون في البلاد ويخرجون الى الريف في كل ربيع، تقول الرواية التاريخية (... كان عمرو بن العاص يقول للناس اذا قفلوا من غزوهم : انه قد حضر الربيع فمن احب منكم ان يخرج بفرسه بربعة فليفعل ، وفي موضع اخر كان عمرو بن العاص يخطب في الناس قائلا : يامعشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، واذكت الشعرى وأقلعت السماء وأرتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ، فحي لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه ... واستوصوا بما جاورتموه من القبط خيرا .. ". (٣) ولم يقف الامر عند هذا فثمة عامل آخر ادى الى تقارب العرب بالمصريين وهو ما فرضته شروط الصلح بين عمرو بن العاص وحاكم

---

(١) زكي محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٢٤ ـ د . سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٣٢

(٢) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها (طبعة توري) ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جا ص ٧٣

مصر . فقد اشترط واجب الضيافة على اهل البلاد للجند المسلمين الذين يمرون فى البلاد (وهو ان للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم). (١) ولاشك ان هذا الاختلاط قد اتاح للطرفين تبادل الافكار واللغات ويبدو ان بعض المصريين كانوا قد اتقنوا اللغة العربية وتشير بعض المصادر الى ان " اول نقل فى الاسلام من لغة الى لغة هو نقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى لخالد بن يزيد بن معاوية على يد جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وتفقه بالعربية ". (٢) .... على ان ارهاصات حركة التعريف بمصر بدأت فى عهد الوالى الاموى عبد العزيز بن مروان (٦٥ : ٨٦ هـ). ذلك " انه اراد ان يتعرف حقيقة العلاقات التى كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على أثر ما كتبه البطرك الى ملكى الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذى كان بينهما لان قوما من اهل السعايات وشوا بالبطرك لدى عبد العزيز حتى ساء ظنه به ". (٣) ويذكر ساويرس ابن المقفع " ان الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان كان يلى كثيرا من امور مصر فى ولاية ابيه وكان يصحب شماسا اسمه بنيامين كثيرا ماكان يطلعه على اسرار النصارى حتى انه ترجم له الانجيل باللغة العربية ". (٤) وعدة كتب دينية اخرى ، وذلك ليعرف المسلمون اذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بسوء ". (٥)

---

(١) ابن عبد الحكم : السابق ص٧٠ ـ المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٩٢ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٥١

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٥١١ ـ ٥١٢

(٣) ساويرس : سير الاباء البطاركه م١ جـ٢ ص١٤٢ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٧٨

(٤) ساويرس : السابق م١ جـ٢ ص١٤٣ ـ منسى يوسف : تاريخ الامة القبطية جـ٢ ص١٦٧ ـ سيدة كاشف : السابق ص١٧٨

(٥) ساويرس : السابق جـ٢ ص١٤٣

ولكن الترجمة ملن القبطية الى العربية كانت تهدف الى التعرف علــــى ثقافة المصريين وحضارتهم وطرق تفكيرهم ". (١) كما كان ما قام به الاصبح من ترجمــة هذه الكتب مقدمة لسيادة اللغة العربية وجعلها لغة رسمية فى البلاد وفعــلا بــدأت فى خلافة عبدالملك بن مروان حركة التنظيم والتعديل، وعلى حد تعبير المــورخيـن العرب، فعمد عبدالملك الى صبغ الدولة بصبغة عربية • الى الاعتماد على الموظفيـن من العرب او الذين يتقنون العربية من اهل البلاد المفتوحة وكما امر عبدالملك فى سنـة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التى كان يتداولها النــاس حتى زمنه نراه يتجه الى تعريب لغة الادارة والحسابات وكانت الدواوين تكتب بلغـــات البلاد المحلية • وكان كل اعتماد العرب على اهل البلاد المفتوحة • او على الـــروم الذين بقوا فى مصر والشام فكانت الدواوين بمصر تكتب باليونانية والقبطية ". (٢) فقــد كانت الحكومة تستخدم اللغة اليونانية بينما كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا بالقبطية ". (٣) وهكذا لم تكن الدواوين تكتب بالقبطية فقط كما يذكر بعض المؤرخـون القدامى. (٤) فهناك اوراق بردى ذات صبغة رسمية ويرجع تاريخها الى عهـــد الوليد نفسه ، دونت باللغتين اليونانية والعربية معا • منها بردية يرجع تاريخهـــا الى سنة ٨٦ ق تتضمن مرسوما صادرا من والى مصر عبدالله بن عبدالملك ". (٥) وكانت عملية تعريب الدواوين عملية طويلة بدأها عبدالملك بن مروان وسار الوليد بن عبدالملك على سياسة ابيه " ففى عهد الوليد نقلت دواوين العراق الى العربية ". (٦) كمـــا

---

(١) سيدة كاشف : تعريف مجتمع الاسكندرية — مقال بمجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية ١٩٧٣م ص١٩٧ • سيدة كاشف : عبدالعزيز بن مـــروان ص١٤٣

(٢) سيدة كاشف : الوليد بن عبدالملك ص١٨٤—١٨٨

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٠٥ —وما ذكرته من الوثائق البردية •

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص٥٨—٥٩ — المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٨
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢١٠

(٥) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ١ ص٢٥—٢٦

(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٣٨ — المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٨

استعملت العربية فى دواوين الشام سنة ٨١ هـ [١] وفى مصر نرى الوليد بن عبدالملك يأمر واليه على مصر عبدالله بن عبدالملك (٨٧ هـ / ٧٠٦م) بتدوين الدواوين باللغة العربية. [٢]

وقد كان الدافع القوى وراء تعريب الدواوين وهو توسع خبرة العرب واستقرار الدولة ،وتطورها ،وازدياد خبرة العرب بفنون الكتابة وتأكيد سياسة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية التى سار عليها بنوامية . يقول ابن خلدون (.... لما كانت خلافة عبدالملك بن مروان استحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتابة والحساب فأمر عبدالملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهده ان ينقل ديوان الشام الى العربية فاكمله لسنة ..... ووقف عليه سرجويه كاتب عبدالملك فقال لكتاب الروم أطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم ...). [٣]

وقد ادت عملية تعريب الدواوين فى مصر الى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية الى العربية ومن ثم صار للعرب السيادة اللغوية الى جانب السيادة السياسية والحربية. وبدأت تنتشر اللغة العربية فى جميع المدن والقرى المصرية واصبحت لغة الادارة والحكم وبالتدريج صارت بعد ذلك لغة الثقافة ولغة التخاطب ، فضلا عن انها لغة السياسة والدين". [٤] والملاحظ ان تعريب الدواوين لم يقض

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٠١ — ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع والثلاثون ص٢٤٤

(٢) الكندى : الولاة والقضاء ص٥٨—٥٩ — المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٨ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢١٠ — سيدة كاشف : الوليد بن عبدالملك ص١٨٦.

(٣) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الرابع والثلاثون ص٢٤٣—٢٤٤

(٤) سيدة كاشف : عبدالعزيز بن موان ص١٤٥ — الوليد بن عبدالملك ص١٨٤

نهائيا على استخدام اليونانية فى كتابة الوثائق الرسمية . فكان من الضرورى ان يكـون هناك فترة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية فى الاعمال الرسمية . فقـد استمرت اللغة اليونانية تدون بها الوثائق الى جانب العربية ويؤيد ذلك بعـض الوثائق المكتوبة بين سنتى ٨٦ هـ ، ٩٦ هـ ". (١) . وهناك بردية مؤرخة سنة ١٣٧هـ ــ ١٤٠ هـ (٧٥٧/٧٥٤م) تتضمن تظلم بعض القرى المصرية من عمال الضرائب ــ كتبت باللغات الثلاث : القبطية واليونانية والعربية. (٢) وتشير اوراق البردى العربية الـى ان اللغة القبطية كانت تستخدم فى كتابة بعض الوثائق فى مصر الاسلامية وكانت تأتـى فى المرتبة الثالثة بعد اللغتين العربية واليونانية ". (٣)

على ان اهم عوامل تعريب مصر هـو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانب الشريط الخصيب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى الـى اختلاطهـم بالاقباط اختلاطا كبيرا ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تعريب البلاد ". (٤) ذلك لان الريف المصرى جماع الشعب كله .

وكان أغلب الولاه الذين حكموا مصر يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهايـة العصر الاموى أو عربية ومن شعوب اخرى غير العرب كالخراسانيين والاتراك فى العصر العباسى . او يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد ". (٥) وكانت نتيجة ذلك ازدياد اعداد القبائل العربية فى مصر ومما يدل على ذلك اعادة تدوين الديوان ثلاث مرات فى فترات متقاربة " منذ ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ٤٣هـ حـتى

---

(١) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ١ طراز ٦ ص ١١ ــ طراز ٦١ ص ١٣ ، طراز ٦٢ ص ١٤ ، طراز ٦١ ص ٢٠

(٢) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ٣ ص ٦٧ : ٧٠

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ١ ص ٤٥١ ــ ٤٥٢
جروهمان : اوراق البردى العربية جـ١ الطراز رقم ٩ ص ٤١ ــ الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ــ الطراز رقم ٦ ص ١١

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٤

(٥) المرجع السابق ص ٢٢١ ــ ٢٢٢

عهد بشر بن صفوان سنة ١٠٢ هـ ". (١)

وفى خلافة هشام بن عبد الله بن عبد الملك حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر " ذلك ان عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة " فى سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ". وسأله ان ينقل الى مصر بيوتا من قيس أو عرب الشمال وكانوا أقلية بها فأذن له الخليفة بترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل دواوينهم الى مصر على ألا ينزلهم بالفسطاط. فقدم بهم ابن الحبحاب وانزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه وحين توفى هشام بن عبد الملك ١٢٥هـ / ٧٤٢م كان ببلبيس الف وخمسمائة أهل بيت من قيس ". (٢)

وقد تخلى العرب عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالاهالى وعن الاشتغال بالزراعة فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالاهالى وكان لهذا الاختلاط اثره فى انتشار الاسلام بمصر نتيجة للتزاوج او للموالاه بينهم وبين اهالى البلاد ". (٣) ويشير المقريزى الى تحول العرب الى سكنى الريف ويوضح الاثر الكبير الذى احدثه هذا التحول فى انتشار الاسلام. فيقول مانصه (.... فانظر ماكان عليه الصحابة وتابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف. ومع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الاقليم أعلاه وأسفله مملوءه بالقبط والروم. ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجره عندما انزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجره كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها. (٤)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٠٢
(٢) الكندى : الولاه وكتاب القضاه ص٧٦ـ٧٧ ـ المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٨
(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٢٤
(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٢٦١

وقد كان نتيجة الاختلاط امتزاج الفاتحين العرب بالمصريين الاقباط في المدن والقرى ، ولعل في اباحة الاسلام لمثل هذا الزواج كان المشجع الاول للعرب على الاقدام عليه مما كان له اثر في الامتزاج الجنسي ، قال تعالى : (اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الاخرة من الخاسرين)[١] وبذلك احل زواج المسلم العربى بالكتابية المسيحية المصرية ، ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) بزواجه من مارية القبطية وما أثر عنه من احاديث فى هذا الصدد منها : " اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما ".[٢] وفى خلافة المعتصم بالله العباسى ثم اندماج العرب بالمصريين ، فقد حدثت تغييرات جوهرية فى اجناس الجند واجناس الولاة ايضا فقد ظهر منذ بداية عهد الدولة العباسية العنصر الفارسى والعنصر التركى الذى استكثر منه الخليفة العباسى المعتصم "فلما بويع بالخلافة (٢١٨هـ / ٨٣٣م) ـ ارسل الى واليه على مصر كيدر نصر ابن عبدالله يأمره باسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعل ذلك ".[٣] وكان من أثر هذا ان انتشر العرب فى أرجاء مصر من اقصاها الى اقصاها يلتمسون الرزق ويسعون وراء القوت عن طريق اخر غير الجندية والحرب " فنزل منهم الكثيرون بأرياف مصر واستوطنوها واتخذوا الزرع معاشا وكسبا . وانقاد جمهور القبط الى اظهار الاسلام واختلطت انسابهم بانساب المسلمين لنكاحهم المسلمات."[٤] كما احترف منهم من أحترف التجارة والصناعة وغير ذلك من الاعمال التى كانت

---

(١) سورة المائدة الاية ٥

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية جا ص٨ ـ ابن عبدالحكم : فتوح مصر واخبارها ص٢٨٦

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص١٩٣ ـ المقريزى : الخطط جا ص ٩٤

(٤) المقريزى : الخطط جا ص ٨٢ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٢٩

كانت وقفا على أهل البلاد المصريين" • ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول فى تاريخ مصر الاسلامية • ويمكن اعتباره بداية لظهور المجتمع المصرى العربى الاسلامى • فبعد ان كان العرب يعيشون فى نطاق ضيق وكان تأثيرهم ضعيل • أصبحوا منذ ذلك الوقت يختلطون بالمصريين اختلاطا كاملا ويتزجون بهم مما كان له اثره فى خلق مصر العربية الاسلامية من النواحى السياسية والاجتماعية واللغوية والادبية وبمرور الوقت ترك العرب الانتساب الى قبائلهم والافتخار بأصولها والانتساب الى الجهة أو الاقليم الذى عاش فيه الشخص منهم • ففى شواهد القبور التى اكتشفت فى مقابر اسوان والفسطاط كان اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الاولين للهجرة ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد ان اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ". (١) فنرى ان شاهد قبر ابن لهيعة المحدث الشهير كان مكتوبا عليه (بسمله هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة الحضرمى المتوفى ١٧٤هـ) (٢) وكذلك (عبد الرحمن بن يحيى المعافرى المتوفى ١٩٠هـ) (٣) وفى القرنين الثالث والرابع نجد الانتساب الى الجهة أو الاقليم واضحا فهناك شاهد قبر (يوسف بن مراد المصرى المتوفى سنة ٣١٠هـ) (٤) وشاهد قبر (زينب ابنة عيسى المدنى المتوفى ٣١٦هـ) (٥) كما صار يكتب فلان المصرى أو الاسوانى أو الادفوى وهذا يدل على انه فى القرن الثالث الهجرى اصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن اهل البلاد • ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين والقبائل العربية الوافدة الى مصر فأختلطوا بالمصريين وكان هذا الاختلاط مما قوى عروبة مصر فتعرب المصريون وتمصر العرب • (٦)

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٢٩ — وما ذكرته من مصادر

(٢) Wiet(G.): Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. Steles Funéraires.Vol.I, P.2.

(٣) Wiet (G.): Op. Cit. Vol.I, P.13.

(٤) Wiet (G.): Op. Cit. Vol.V. P. 5.

(٥) Wiet (G.): Op. Cit. Vol.V. P. 2.

(٦) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٢٩ — ٢٣٠

ومن العوامل البارزة فى تعريب مصر ايضا انتشار الدين الاسلامى ، فقد كان يجب على من يعتنق الدين الاسلامى ان يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن واداء الصلاة وانما كان انتشار اللغة العربية أبطأ من انتشار الدين الاسلامى . (١) وكان التسامح فى الدعوة اليه واضح كما تشير الاية (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) . (٢) " ولذلك لم يكره أحد عليه بالسيف او اللسان ". (٣) وقد اخذ الدين الاسلامى ينتشر تدريجيا كلما تقدم العهد بالعرب فيها على انه وجدت هناك فترات معينة كان التحول فيها الى الاسلام بكثرة . وكان هذا تحت ظروف وعوامل نشأت من جراء سياسة الخلفاء وولاتهم المنفذين لتلك السياسة . ومن ابرز هذه العوامل (الرغبة فى التخلص من الجزية التى كان يدفعها الذميون نتيجة بقائهم على دينهم . وكانت الجزية سببا فى اسلام كثير من الاقباط الذين أرادوا التخلص منها) (٤) وكانت موجات الداخلين فى الاسلام من القبط تتابع وشهد النصف الاول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) انتشارا واسعا للاسلام فى مصر . حتى اذا كانت امارة احمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤ هـ . كان اكثر مسيحى مصر قد تحولوا الى الاسلام . وصار المسلمون يكونون الاغلبية العظمى بين سكان مصر وصار أهل الذمة اقلية قليلة . ومن ثم اخذت الصبغة الاسلامية نتيجة لذلك تشكل المجتمع المصرى وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد ، وفى الحياة الاجتماعية بصفة عامة ". (٥)

---

(١) سيدة كاشف : السابق ص ٢٣٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٣) دى كاسترى : الاسلام خواطر وسوانح ص ٩٤ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٩٧ .

(٤) سيدة كاشف / مصر فى فجر الاسلام ص ١٩٣ ـ بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤١

(٥) D. Zaki Hassan: Les Tulunides. P. 216.
حسن محمود : حضارة مصر فى العصر الطولونى ص ٩٥

ولذلك لم تعد الجزية من أهم موارد بيت المال منذ عصر الطولونيين ومن جاء بعدهم من الحكام المسلمين لتناقص عدد من كان يؤديها آنذاك ، عما كانوا عليه فى عصر الولاه ، وصارت موارد البلاد تعتمد الى حد كبير على خراج الارض الذى كان يؤديه الذمى المحتفظ بدينه والذمى الذى اعتنق الاسلام وتطور نظام جباية الخراج فى مصر واتبع نظام قبالات الاراضى ". (١) والى جانب ذلك لا يمكن ان نغفل أن كثيرا من المصريين اعتنقوا الاسلام عن عقيدة وايمان راسخين ". (٢)

"وقد أخذ الاسلام ينتشر بصورة واضحة فى القرن الثالث الهجرى مما كان له أعمق الاثر فى الاسراع نحو التعريب . يقول يوهان فك " ان تعريب مصر تم بصورة أسرع وأعمق من العراق . ففى القرن الثانى كانت قبائل عرب الشمال قد هاجرت اليها وفق نظام مرسوم كما يبدو ان تكاثر الدخول فى الاسلام قد ازداد بقوة فى نفس الوقت بعد ان كان لا يتقدم فى القرن الاول الا فى حدود معتدلة ، وحيث رجحت كفة العربية فى القرن الثالث ". (٣)

ويذكر اسرائيل ولفنسون " ان من أهم الاسباب التى أدت الى تدهور اللغة القبطية اعتناق كثير من العناصر المصرية للدين الاسلامى فكثرت جموع المسلمين فى مصر وأشتد تأثير العصبية العربية التى كانت من اهم اغراضها التى تسعى للوصول اليها بهمة ونشاط نشر اللغة العربية فى جميع أنحاء البلاد ، وتعميم استعمالها بين كل الطبقات ". (٤)

وهكذا مهد الاسلام تمهيدا كبيرا للغة العربية ، لان انتشاره قد تقدم انتشار اللغة العربية فى الزمن . وكان المسجد الاسلامى مركزا للاشعاع الفكرى والثقافى الى جانب كونه مقرا للعبادة ". (٥)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٨٢
(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ـ ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ص ٩٥
(٣) يوهان فك : العربية ـ ترجمة د . عبد الحليم النجار ص ٢٢
(٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٢
(٥) على حسنى الخربوطلى : الحضارة العربية الاسلامية ص ١٥٤

وقد أشاد بعض المستشرقين بأهمية المسجد كمركز لنشر اللغة العربية والفكر العربي الاسلامي ، فيقول اسرائيل ولفنسون (انه يرجع تثبيت قدم العربية فى مصر الى توطيد دعائم الملك والجاه الاسلامي فى عهد الدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية وساعد المعهد الدينى الاكبر (الازهر) على نشر الفصحى بين طبقات رجال الدين). (١)

وهكذا تضافرت العوامل السابقة من اعتناق الدين الاسلامي ـ وتعريب الدواوين ٨٧هـ / ٧٠٥م ، فضلا عن هجرة القبائل العربية واستقرارها بمصر ونزولها بالريف واختلاطها بالاهالى ـ تضافرت جميعها فى نشأة مصر العربية الاسلامية من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلى جعل اللغة العربية لغة التخاطب بين اهل البلاد وتشير اوراق البردى الى انتشار اللغة العربية فى القرن الثالث الهجرى بين الاقباط حتى صارت أغلبيتهم تجيدها قراءة وفهما فقد جاء فى بردية مؤرخة سنة ٢٧٤ هـ وفيها ادلاء لاحد القبط بشهادته فكتب ما نصه " اقرار دانيال بجميع ما فى هذا الكتاب بعد ان قرئ عليه حرفا حرفا ، فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه ". (٢) وهناك بردية آخرى تتضمن عقد زواج " تم فى الاشمونين بين يحنس بن شنوده وبين زوجته القبطية ". (٣) كما ان هناك بعض عقود البيع والشراء التى كتبت باللغة العربية. (٤)

وبالرغم من اننا لانعرف بالضبط متى اصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين الا ان آثار القرن الرابع الهجرى المدونة من الكتب تدل على سيادة اللغة العربية وانتشارها بين الاقباط ". فقد ألف سعيد بن بطريق البطرك الملكانى كتابا فى التاريخ باللغة العربية فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى ". (٥)

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص٢٢٣
(٢) جروهمان : اوراق البردى العربية جـ١ ص ١١٦ ـ ١٧٠
(٣) جروهمان : السابق جـ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦
(٤) جروهمان : السابق جـ١ ص ١١ ـ ١٧
(٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٣١

وهـــو كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ـ ثم تلاه ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونيين فى اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى أرخ للبطاركة باللغة العربية • فكان يقوم بجمع ما وجد بدير نهيا (عند الجيزة) وبدير ابى مقار • وما وجده بأيدى النصارى بالقلمين اليونانى والقبطى ويترجمه الى اللغة العربية ويشير فى مقدمة كتابـه الى سيادة اللغة العربية وانتشارها بين المصريين • فيقول مانصـــه: (• • • فاستعنت بمن أعلم باستحقاقهم من الاخوه المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها بديار مصر بالقلم القبطى واليونانى الى القلم العربى الذى هـــو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديار مصر • لعدم اللسان القبطى اليونانى مـــن أكثرهـــم) • (١)

ويقول المستشرق الالمانى متز " • • • ان القبط لم يبدأوا فى ترك لغتهم القبطية الا حوالى آواخر القرن الرابع الهجرى " • (٢)

وبسيادة اللغة العربية " اخذت اللغة القبطية فى الاضمحلال • بـــل وفقدت اهميتها تدريجيا لان المستخدمين القبط لم يعودوا يستخدمونها فى حديثهم وفى كتاباتهم وانما كانوا يستخدمون اللغة العربية " • (٣) واستمر تدهور القبطيـــة شيئاً فشيئاً حتى حصرت فى الاديرة والكنائس ثم اضمحلت بمضى الزمن حتى صـــار الكهنة الذين يستعملونها للصلوات فى بعض الكنائس لا يفهمونها جيدا ويستعملون الى جانبها الترجمة العربية " • (٤) وقد ترتب على التقاء اللغات المختلفة التى كانت متداولة فى مصر فى فترات زمنية معينة مثل اليونانية والسريانية ثم القبطية على اللغـــة العربيـــة ان تأثـــرت اللغـــة العامية بمصـــر ببعض الالفاظ والعبـــارات مـــن

---

(١) ساويرس : سير الاباء البطاركة م١ ج١ ص٦

(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص٨٩ •
سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٢

(٣) Quatremére: Recherches Critique et Historique sur la Langue. P. 37.

(٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص٢٢١

تلك اللغات الى العامية المصرية ، كما اننا نستعمل فى الوقت الحالى بعض الالفاظ والكلمات التى ترجع الى اللغة المصرية القديمة والى القبطية التى اشتقت منها ومن هذه الكلمات (طوب) ومعناها بالقبطية حجر ، " و " ميت " ومعناها ريف وهى اسم لكثير من قرى مصر مثل " ميت رهينة " و " ميت ابو الكوم " وشونة : ومعناها مخزن ، وبولاق ومعناها شاطئ النهر .. الخ ". (١) ولكن اللغة العامية المصرية حافظت على اللسان العربى الفصيح اكثر من اخواتها فى بلاد العراق والشام والمغرب حيث كثرت العناصر الاعجمية. (٢)

ولا ريب فى ان انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين فان الشعوب المختلفة التى توالى على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين ". (٣) ولم يقف الامر عند انتشار اللغة العربية بل كانت هذه اللغة محورا وأساسا لجوانب النشاط الفكرى فى مصر ، وقد قامت بمصر نهضة ثقافية عظيمة ، كانت دعاماتها الدين الاسلامى واللغة العربية.

وفى القرن الثانى الهجرى نشأ جيل من العلماء من أصل مصرى قبطى صاروا ائمة فى القراءات والادب واللغة " مثل عثمان بن سعيد المعروف بورش المقرى المتوفى سنة ١٧٩هـ " (٤) وسج الفول عالم مصر باللغة ". (٥)

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص٢٢٢

(٢) اسرائيل ولفنسون : السابق ص٢٢٣

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٣٢

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٠٧

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص٢٥٢ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٣٢

٢ ـ أثر التعريب فى قيام المدرسة العلمية الاسلامية

بعد هدوء موجة الفتح العربى لمصر ، وأستقرار العرب واختطاط مدينة الفسطاط واستقرارهم بها ، واتخاذ العرب المسلمين من هذه المدينة عاصمة لمصر الاسلامية . صارت مدينة الفسطاط أحدى المراكز العلمية فى الدولة العربية الاسلامية وكان مسجد عمرو بن العاص الجامع بالفسطاط يعد مدرسة علمية ومنارة تشع بنورها على البلاد المجاورة . وكانت العلوم والمعارف السائدة تلقى باللغة العربية " لسان الامة والجيل الغالبين عليها والمختصين لها " . (١)

وكانت العلوم السائدة ضربان :

(أ) العلوم النقلية :

وهى العلوم أو الاداب الاسلامية .

وهى العلوم الدينية الاسلامية (الحديث والتفسير والقراءات والفقه) والعلوم اللسانية (النحو واللغة والبيان والادب) (٢) والتاريخ .

(ب) العلوم العقلية :

وهى العلوم الفلسفية أو علوم الأوائل التى نقلت الى العربية من اللغات الاخرى " كالطب والعلوم الطبيعية والرياضيات " . (٣) وكانت العلوم العقلية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الثانى والعشرين ص٣٧٩

(٢) ابن خلدون : السابق ـ الفصل الرابع ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ ـ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٥

(٣) ابن خلدون : السابق ـ الفصل الثالث عشر (فى العلوم العقلية واصنافها ص ٤٧٧ ، ٤٧٩ . الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٥ ـ جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج٣ ص٤٢

محدودة ، ضئيلة الانتشار اذا ما قورنت بالعلوم النقلية وخاصة فى بداية النشاط العقلى .

" كانت العلوم النقلية ـ التى اساسها الشرعيات من الكتاب والسنة هى اساس العلوم فى الملة الاسلامية ". (١) ولقد نمت العلوم العربية فى مدينة الفسطاط فى ظل الدين الاسلامى نموا مضطردا كما نمت فى غيرها من الامصار الاسلامية الاخرى فالقرآن الكريم به آيات كثيرة تحث على العلم وتدعو الناس الى التزود منه " قال تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ". (٢) " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون " (٣) ، وقال جل شأنه : " وقل رب زدنى علما ". (٤) وقال تعالى : " فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ".(٥)

وهناك احاديث مأثورة عن الرسول (صلعم) تحمق من معنى هذه الآيات وتفسرها . قال عليه الصلاة والسلام " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ، " اطلبوا العلم ولو فى الصين ". (٦)

وكانت الحركة العلمية فى مدينة الفسطاط فى بدايتها مثل سائر مراكز الثقافة الاسلامية فى العالم الاسلامى فى بداية عهدها بالاسلام ـ فقد بدأت هذه النهضة الدينية ـ لان القرآن الكريم كان هو محور الحياة الدينية والدنيوية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الرابع ص٤٣٥
(٢) سورة المجادلة : الاية رقم ١١
(٣) سورة الزمر : الاية رقم ٩
(٤) سورة طه : الاية رقم ١١٤
(٥) سورة النحل : الاية رقم ٤٣
(٦) الغزالى : احياء علوم الدين جـ١ ص٨ ـ ابن عبد البر : جامع بيان العلم جـ١ ص١٠ ، ٣٨

فكان لابد من فهم هذا القرآن وكشف جوانب محتواه، ومن ثم كان الاقتداء بالرسول (صلعم) الذى عزى اليه تبليغ الرسالة ، فقد جاء فى الاية الكريمة (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم). (١) وقد أجمع العلماء على فرض تعليم القرآن – قال صاحب مفتاح السعادة (أعلم ان حفظ القرآن فرض كفاية على الامة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه فلا يتطرق اليه التبديل ولا التحريف). (٢) وقد جاءت الاثار عن الرسول (صلعم) تحث على الاخذ بهذا الدين الجديد وتعليمه – فقد جاء الاثر (خياركم من تعلم القرآن وعلمه ..). (٣) ... وفى قول آخر (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) (٤)

ولذلك بدأت النهضة العلمية دينية فى بدايتها تتمثل فى علوم القرآن الكريم بمعناها الواسع مثل القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته الذى كان مادة غزيرة للعلوم الدينية، وقد صار أوسع مادة وأكثر تداولا – ثم الفقه أو " استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة النبوية ثم علم قراءات القرآن الكريم ...) (٥) .. وكانت مدينة الفسطاط الاسلامية هى مركز الاشعاع العلمى ، كما كان " جامع عمرو بن العاص بهذه المدينة هى ملتقى العلماء والفقهاء والائمة واليه يلجأ الناس للاستفتاء واليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت فى ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء " فلذلك كان قلب هذه المدينة النابض .. "(٦) على ان هذا لم يكن غريبا على البيئة المصرية – فقد كان رجال الدين هم الذين يقومون بمهمة التعليم .. .(٧)

---

(١) سورة البقرة : الاية ١٢٩

(٢) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص٢٥٩

(٣) صحيح البخارى ج١ ص٢٧ – سنن ابن ماجة ج١ ص ٨٠ – طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج٢ ص٢٥٩

(٤) سنن ابن ماجة ج١ ص٧٧

(٥) الاستاذ : احمد امين : فجر الاسلام ص١٨٣

(٦) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٨٨

(٧) Marron (H.) : Histoire de L'education dan L'antiquité. PP. 133 - 413.

وقد كان نواة الحركة العلمية في مدينة الفسطاط الصحابة الذين جاءوا مع جيش الفتح وبعده واستقروا بمدينة الفسطاط بعد ان اختطوا مساكنهم حول المسجد الجامع ...

وقد كان لهؤلاء الصحابة تلاميذ ينقلون عنهم العلم ، فتخرج عليهم التابعون، ثم تابعوهم ... (١) وقد كان منهم العلماء والزهاد والشعراء والادباء وكان معظم ما قاموا به من جهود علمية تتمثل في العلوم الدينية، يقول جب Gibb " لم يكن جيش المسلمين مجرد معسكر حربي وانما كان مع ذلك مركزا تنبعث منه الدعوة للدين الجديد ". (٢) ولعل هذا يعد أبلغ جواب على الكونت دى كاسترى الذى قال (ان الاسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه ، كما في الديانة المسيحية ،ولو كان للاسلام انا سرقوا مون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع). (٣) وقد حرص الحكام المسلمون على العناية بنشر الدين الجديد فقد بعث امير المؤمنين عمر بن الخطاب بعض كبار الصحابة والمتفقهين في الدين الى الامصار الاسلامية ليقوموا بتعليم اهالى تلك الامصار القرآن الكريم وأصوله (عن سالم بن عبدالله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت ،فقلت : مات عالم الناس اليوم، فقال ابن عمر يرحمه الله : فقد كان عالم الناس وحبرها ، فرقهم عمر في البلدان). (٤) وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يحث الصحابة والمعلمين على نشر العلم ويحث الناس ايضا على الاخذ عنهم.

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص١٨٦

(٢) Gibb : Mohammedanism. P. 404.

(٣) دى كاسترى : الاسلام خواطر وسوانح ص٣٩ ـ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص١٦٧

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٤ ص٦١

فكتب الى اهل الكوفة (••• انى بعثت اليكم بعبدالله بن مسعود معلما ووزيـــرا واثرتكم على نفسى • فخذوا عنه• فقدم ابن مسعود الكوفة ونزلها وابتنى بها دارا الى جانب المسجد)• (١)

وتشير الرواية التاريخية الى ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العـــاص (٢) امير مصـــر يأمره ان يقرب دار ابن ملحم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقه ففعل عمر• "وقد اختار امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١هـ) عشرة من كبار العلمـــاء المصريين وبعثهم الـــى القيروان يعلموا أهلها السنن ويفقهوهم فى الدين •وكـــان نقيب هذه البعثة من أشهر نابغى مصر وهو ابو عبد الرحمن الحبلى الذى توفى هنـاك سنة مائة بعد ان نشر فيها علما كثيرا "• (٣)

وقد حظيت مدينة الفسطاط بعدد كبير من الصحابة (٤) • الذين نزلوا مصـــر معلمين أو فاتحين او ولاة حاكمين ــ وقد أثر عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب قولـــه : "ألا انى انما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم ويعلموكم سننكم ولا أبعثهم ليضربوا ضهوركم • ولا يأخذوا اموالكم "• (٥) ولئن كان قدر هؤلاء الصحابة أكبر من غيرهم فى تعليـــم القرآن الكريم وعلومه فى تلك الفترة المبكره• فكان هذا العمل من جانبهم (اقتـــداء بالرسول (صلعم) الذى بعث اصحابه من قبل فى الناس ليفقهوهم فى الدين • ويعلموهم ماكتب عليهم• وكان اصحاب الرسول قد اخذوا عنه الامر وعلموا اسباب النزول والاوامـــر والنواهى • وشاهدوا قرائن الامور وثاقبوا فى أكثرها النبى (صلعم) واستفسروه عنهـــا • مع ماكانوا عليه من صفة العلم ومعرفة معانى الكلام وتنوير القلوب •فكانوا أعلم الامـــة وأولاهم بالتقليد "• (٦)

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٦ ص ١١

(٢) ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٦

(٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ١ ص ٤٨٣ ـ جـ٢ ص ٧٩

(٤) افرد السيوطى اسماء هؤلاء الصحابة فى فصل خاص اسماه (دار الصحابة فيمن نزل مصر من الصحابة) نقل معظمه من كتاب محمد بن الربيع الجيزى وزاد عليه (السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٩٩ـ١٤٠)

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها جـ٢ ص ١٣١ـ الماوردى : الاحكـام السلطانية ص ٣٠

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢

كانت العلوم السائده اذن دينيه (نواتها القرآن الكريم ، ومنذ بداية الحركة العلمية فى مدينة الفسطاط وغيرها من الامصار الاسلامية كانت مسائل العلم تقريبا تدور حول علوم القرآن من تفسير وقراءات وحديث وفقه ، (فكان لابد من النظر بالكتاب ببيان الفاظه أولا . وهذا هو علم التفسير . ثم بأسناد نقله وروايته الى النبى (صلعم) الذى جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراءات ـ ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الرواه الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الموثوق بأخبارهم بعلم مايجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث . ثم لابد من استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو علم الفقه وأصوله) . (١)

ويلحق التصوف بالعلوم الدينية الاسلامية لانه كان لايزال خاليا من النواحى الفلسفية المعقده . وكان يستمد اصوله من مصادر اسلامية .

وقد كانت البحوث حول القرآن الكريم تتخذ شكلا آخر فكانت ذو طبيعة دينية ". (٢) (فقد كان النظر فى القرآن الكريم والحديث لابد وان تتقدمه علوم اللسان العربى (اللغة والنحو والبيان والآداب) الذى هو لسان الملة وبه نزل القرآن) . (٣)

كما نشأت الدراسات التاريخية فى كنف الدراسات الدينية فكانت متأثرة بعلوم القرآن الكريم مثل الحديث ". (٤)

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الرابع ص٤٣٥

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٥

(٣) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الرابع ص٤٣٦ ـ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٥ ـ جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج٣

(٤) سيدة كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ص١٣

كانت العلوم العقلية " علوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الامم مثـــل العلوم الفلسفية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبية ". (١) قليلة ولم تشع بيـــن العرب شيوعا تاما بنسبة واحدة ، وقد شجع عليها وجود الخلفاء ببغداد ورغبتهـم فى نقـــل علوم الامم الى العربية ، ليجمعوا فى مدينتهم اسباب مدنيات الامـــم التى سبقتهم ، " وفى مصر وجدت نواه تجمعت حولها العلوم الدنيوية وهـــى نواة الطـــب ". (٢)

وكانت الناحية العلمية الطبيعية بمصر امتداداً لمدرسة الاسكندرية قبل الفتح (٣) ثم تكونت دراسة الكيمياء والهيئة والالهيات.

وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ويمزجها يسع كل هــــذه الاشياء ويلاحظ هذا حتى فى فلاسفة العلوم المسلميـن ، أمثال الفارابـــى وابـــن سينا . فكلاهما طبيب وفيلسوف ". (٤) وقد تطورت دراسة الطب فى مصـــر فيما بعد تطورا ظاهرا " فكان على ابن رضوان الطبيب المصرى المتوفى سنـــة ٤٦٠ هـ كثير الرد على معاصريه من الاطباء فى غير مصر — كحنين بن اسحاق ، وابن بطلان البغدادى ". (٥)

---

(١) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الثالث عشر ص ٤٧٨ — ٤٧٩

(٢) احمد امين : ضحى الاسلام ص ١١

(٣) احمد امين : السابق ص ٩٥

(٤) احمد امين : السابق ص ١٢ — القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكمـــاء ص ٢٧٧ — ٤١٣

(٥) القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٩٤ — ٤٤٣ — يوسف شخت وماكس مايرهوف : خمس رسائل ص ٧

كان الصحابة هم المعلمون الأول فى مدينة الفسطاط وغيرها من الامصار الاسلامية ثم تلاهم التابعين وتابعيهم ، حتى صار العلم الى الموالى — وكانت المدرسة العلمية بالفسطاط يشتد آزرها كلما أقبل الناس على هذه الثقافة الجديدة ومن نبغ من ابناء الموالى فى القرن الاول الهجرى (عبيد بن جبر القبطى — مولى ابى بصره للغفارى — وكان أحد ثقات التابعين من اهل مصر — قال سعيد بن عفير : ان القبط كانوا يفخرون به — وقد روى عن مولاه ابى بصره وغيره من شيوخ ذلك العصر ، وروى عنه كليب ابن ذهل الحضرمى • وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ٧٤هـ) . (١)

وكذلك (عبد الرحمن بن معاوين بن حديج من ابناء السلطيسيات (٢) الذى كان قاضى مصر لعهد العزيز بن مروان سنة ٨٦هـ وصاحب شرطته ونائبه على مصر اذا غاب) . (٣)

الرحلات العلمية :

وباتساع رقعة الدولة الاسلامية ودخول امم كثيره فى الاسلام ازدادت الحركة العلمية نشاطا وشهد العالم الاسلامى مولد مدارس اسلامية كثيرة تختلف فى ميدان الثقافة من حيث العمق وغزارة الانتاج العلمى — فأخذ المصريون اساتذة وطلابا يرحلون الى تلك الامصار مثل المدينة المنورة أو دمشق او الكوفة أو البصرة بالعراق " موطن ائمة النحو واللغة) — ومن أبرز علماء الدين الذين رحلوا الى المدينة المنورة حيث موطن الامام مالك — الليث بن سعد وعبد الله بن وهب " . (٤)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٢٨٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٧ ص ٦١ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٦٠

(٢) سلطيس — قرية مصرية استولى عليها المسلمون عنوه وسبوا أهلها ، فردهم عمر بن الخطاب وخيرهم بين الاسلام والبقاء على ماكانوا عليه (على بهجت : قاموس الامكنة والبقاع الواردة فى كتاب فتوح البلدان ص٨٣/٨٤) .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٢٦ — الكندى : الولاة والقضاة ص٣٢٤ — ٣٤٩ — الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٤ ص ٢٦

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٥ ، ١٩ ، ١٣٢

ولا شك انهم كانوا يعودون من هذه الرحلات بزاد جديد من العلم وينكبون لمتابعة حياة البحث والدراسة. لذلك كانت الرحلات تحظى بمكانة بارزة. كأسلوب من أساليب التعليم وخاصة في القرنين الاول والثانى للهجرة ". (١) ومما زاد من أهمية هذه الرحلات ان العلوم والمعارف السائدة فى تلك الفترة وهى العلوم الدينية ـ كانت تتناقل شفاها (ويرجع ذلك الى ان طبيعة هذه العلوم من تفسير واحاديث ـ كانت تمتاز بقلة الاختلاف والسهولة والمراجعة والاستقصاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهد هم من صاحب الشريعة. فكانوا فى غنى عن تدوين تلك العلوم. (٢)

ولذلك ظل هؤلاء العلماء يحفظون ما أخذوه عن الرسول (صلعم) دون تدوين وكانوا يسمون المختصين بحمل العلم ونقله القراء أى الذين يقرأون الكتاب وليسوا اميين. لان الامية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عربا اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله..). (٣)

وقد جاء فى القرآن الكريم (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون). (٤) ولذلك صار هناك بعضا التمييز بين هؤلاء القراء من الصحابة وبين فريق آخر منهم انتشرت بينهم الامية وانما كانت صفتهم العلمية المسبغة عليهم نتيجة ملازمتهم للرسول (صلعم) واحتكاكهم به فأخذوا عنه الكثير من الاحكام مشافهة. وان كانوا يشتركون مع القراء فى افتقارهم الى تدوين ماتلقوه من النبى (صلعم) ويعلل العلامة ابن خلدون تلك الظاهرة بشيوع الاميةوعدم الدراية بأمور التأليف فيقول (... انما احكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين

---

(١) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص٤٣ ـ ٤٥
(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج٣ ص ٥٩
(٣) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الخامس والثلاثون ص٥٤٣
(٤) سورة العنكبوت الاية ٤٨

ولا دفعوا اليه ولا دعتهم الحاجة اليه . وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين) (1)
كما ارجع البعض قلة التدوين او كره كتاب العلم الى وجهين : احدهما الا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به . ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ) (2)
وقد روى ابو سعيد الخدرى : " انه استأذن النبى (صلعم) فى كتابة العلم فلم يأذن له " وروى عن ابن عباس انه نهى عن الكتابة لانهم ان تركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم ..) . (3)

بين الحفظ والتدوين :

كانت نتيجة لذلك ان ازداد الاعتماد على الحفظ والذاكرة التى صارت أهم وسائل التحصيل فى تلك الفترة — وكان المحدثون واللغويون اكثر المشتغلين بالعلم اعتمادا على الحفظ وكان الحافظ (اسمى درجات العالم بالحديث أو المشتغل باللغة ..) (4) وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية .. " (5) والذى أخذ عنه المصريون اكثر من مائة حديث .. " (6) " قد حفظ عن النبى (صلعم) ألف مثل ... " (7)

وبفضل هذا العالم الجليل انفردت مدينة الفسطاط التى اتخذ فيها " عبد الله بن عمرو بن العاص دارا له " . (8) بأول صحيفة مدونة فى التفسير فى عصر كان فيه التدوين مشوبا بالكثير من الغموض بل كانت له اوجه كثيرة من الرفض والنقد ، وكانت مثل هذه الامور تؤخذ بحذر شديد . (قال مجاهد : اتيت عبد الله بن عمرو ، فتناولت صحيفة تحت مفرشه . فمنعنى ، قلت : ماكنت تمنعنى شيئا ،

---

(1) ابن خلدون : المقدمة — الفصل الخامس والثلاثون ص٥٤٣
(2) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص٣٤—٣٥
(3) حاجى خليفة : كشف الظنون جـ١ ص ٢٥
(4) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة جـ٢ ص ١٩٩
(5) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٩٧
(6) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٥٤ — الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٣٩
(7) ابن عبد البر : الاستيعاب جـ٣ ص٩٥٧ — ابن الاثير : اسد الغابة جـ٣ ص٣٤٩
الذهبى : سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٥٧
(8) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص٢٣٨ — ابن دقماق : الانتصار جـ١ ص٦
المقريزى : الخطط جـ١ ص٣٠٣

قال هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه احد" (١) وربما كانت هذه الصحيفة هى التى دار عليها الحديث بين حيوة بن شريح وحسين بن شفى (٠٠ قال ابو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر ان حيوة بن شريح قال : دخلت على حسين بن شفى بن مانع الاصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ٠٠ فقلت ماله فقال عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ احدهما قضى رسول الله (صلعم) فى كذا ٠ وقال رسول الله (صلعم) كذا ، والآخر مايكون من الاحداث الى يوم القيامة فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب ـ قال ابو سعيد بن يونس : يعنى بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط يجوز تحتهما لكبرهما المراكب ٠٠) (٢) وربما تؤيد هذه الحادثة خوف هؤلاء العلماء من الاحتفاظ بهذه المدونات معولين ذلك الى ضرورة الالتزام والاخذ باقوال السلف السابقة عليهم " الذين كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ٠٠) ٠ (٣)

ولذلك حرصوا أشد الحرص على عدم التقيد بالكتابة ، ألتزاما بالسمو برفع مكانة العقلية الحافظة لانه على حد قول العلامة ابن خلدون (٠٠ اذا تلونت النفس بالملكة الاخرى (الكتابة) وخرجت عن الفطره ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة بعد ذلك أضعف ٠٠) (٤) ولذلك صارت للرحلة اهمية كبرى فى فترة افتقرت الى المدونات ـ (وكان التلقين بالمباشرة

---

(١) ابن الاثير : أسد الغابة ج٣ ص٣٥٠ ـ الذهبى : سير اعلام النبلاء ج٣ ص٥٨ ـ المقريزى : الخطط ج٢ ص٣٢٣

(٢) المقريزى : الخطط ج٢ ص٣٢٣

(٣) ابن عبدالبر : مختصر جامع بيان العلم ص٣٥

(٤) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الثانى والعشرون ص٤٠٥

"اى لقاء الشيوخ الكبار" هو المعول الاساسي لحصول الملكات . وكان اشد استحكاما وأقوى رسوخا . (١) ولذلك كانت الرحلة معولا هاما لتصحيح المعارف وتميزها عن سواها مع تقوية الملكة بالمباشرة والتلقين ـ وكان لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء الشيوخ .. " (٢)

وظلت الرحلة زمنا طويلا معولا اساسيا للدرس والبحث . (٣) وان لم يقلل من اهميتها شيوع المؤلفات العلمية فيما بعد . قال نيكلسون (وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ثم يعودون الى بلادهم . كما يعود النحل محملا بالعسل . ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم . ليرضوا شغف الناس التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم . فينالون من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عميقا . كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون احيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبا اشبه بدوائر المعارف مع نظام رائع وبلاغة عذبة . وهذه الكتب هى المصادر الاولى للعلوم الحديثة بأوسع ماتحمله كلمة العلوم من معنى . وهما مرجع العلماء والباحثين ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون .) (٤)

وكان تقييد العلم بالكتابة قد صار أمرا لازما فيما بعد فبتباعد الزمن وانتهاء عهد الصحابة بعد المائة من تاريخ الهجرة تضاءلت النزعة العربية الى حظر التدوين وصار تقييد العلم أمرا ضروريا وخاصة تدوين السنن (الاحاديث) وذلك لشيوع رواية الحديث وقلة الثقة ببعض الرواه وظهور الكذب فى الحديث عن الرسول (صلعم) (٥)

---

(١) و (٢) ابن خلدون ـ المقدمة ـ الفصل الثالث والثلاثون ص٥٤١

(٣) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٣٣٦

(٤) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص٤٥

Nickolson : Literary History of the Arabs. P.281.

(٥) ابن قتيبة : المعارف ص٦١١ ـ حاجى خليفة كشف الظنون جـ١ ص ٨٠ .

وكان السبب المباشر للتدوين هو الخوف من ذهاب العلم بوفاة الرواه وكان اول من تنبه الى ذلك هو أمير المؤمنين (الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ فقد أمر واليها المدينة ابى بكر بن عمر وبن حزم : بالنظر الى ما كان من حديث رسول الله (صلعم) ليكتبه لخوفه من دروس العلم وذهاب العلماء .. وأمر ولاته ان يفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم . فان العلم ليهلك حتى يكون سرا ..) (١) وقد اشار امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى كتابه صريحا بنشر العلم المدون قائلا لعماله على الامصار الاسلامية (... اما بعد ، فمر اهل العلم والفقه من جندك ، فلينشروا ما علمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به فى مساجدهم ..) (٢) على ان التدوين بالمعنى الحقيقى ابتدأ بتدوين الحديث (فكان اول من دون العلم محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ) (٣) ـ ثم شاع امر التدوين فى الامصار الاسلامية قبيل منتصف المائة الثانية من الهجرة ، وقد اشترك بعض اعلام المدرسة الدينية بمدينة الفسطاط فى تلك الحركة التى كان لها أثر بعيد فى حفظ العلم وشيوع المؤلفات العلمية فى الامصار الاسلامية بعد ان كان العلماء يقتصرون على الحفظ ويتناولون العلم بطرق اخرى مثل التلقين (... فكان اول من صنف وبوب سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٥هـ والربيع بن صبيح المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠هـ ـ ومعمر بن راشد الصنعانى المتوفى سنة ١٤٥هـ باليمن) (٤) ثم من بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ثم ابن المبارك وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه . وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة . فسهل تناول العلم) (٥) وكان لجهود علماء مدينة الفسطاط مثل ابن وهب والليث بن

---

(١) البخارى : الصحيح ـ كتاب العلم جـ١ ص ٣٦

(٢) عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمرو بن عبد العزيز ص ٨٠
ابن عبد البر : جامع بيان العلم ص ١٢٤

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٤٨٨ ـ الغزالى : احياء علوم الدين جـ١ ص ٧٩ (بولاق) ـ ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم ص ٣٧ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٤) الغزالى : احياء علوم الدين جـ١ ص ٣٩ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص ١٤٤ ـ حاجى خليفة : كشف الظنون جـ١ ص ٨٠ .

(٥) المقريزى . الخطط جـ٤ ص ١٤٤ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٥١ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

سعد وابن لهيعة أثر بعيد في المساهمة ببعض مدوناتهم " فقد كان ابن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين . وله من تصنيفه نحو مائة جزء .. (١) قال ابن أبي الحاتم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ما نصه : " .. قيل لي بمصر ان احمد بن عيسى المصري المعروف بالتستري المتوفى ٢٤٣هـ قدم مصر واشترى كتب ابن وهب وكتاب المفضل بن فضاله " . (٢)

وكان لشيوع هذه المدونات أثر في ظهور طريقة اخرى للتحصيل والدراسة (وهي طريقة الاملاء التي كانت أعلى مراتب التعليم وكثيرا ماكان المتكلمون واللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الاملاء .. " وكانت مجموعة المحاضرات التي تلقى بطريقة الاملاء تسمى الامالي ..) . (٣) فكان الربيع بن سليمان أول من أملى الحديث بجامع احمد بن طولون " . فكان الاولاد يخرجون بعد الصلاة الى مجلس الربيع ابن سليمان ليكتبوا العلم مع كل واحد منهم وراق وعدة غلمان " (٤) وقد اضطردت الحركة العلمية في القرن الرابع الهجري نتيجة لشيوع الورق . واقتصر الامر على تدريس كتاب يقرأ فيه احد الطلبة والمدرس يشرح) . (٥)

---

(١) عمر بن محمد الكندي : فضائل مصر ص ٤٠

(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال جـ١ ص ٥٩ — ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ١ ص ٦٥

(٣) السيوطي : المزهر في علوم اللغة جـ٢ ص ١٩٩ — متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ١ ص ٣١٦

(٤) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢٦٦ — السيوطي : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٧ .

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ١ ص ٣١٦—٣١٧

ولم يقتصر الامر على ذلك ، وأنما كان لشيوع هذه المؤلفات ان كان بعضها يؤلف بتكليف خاص من الامراء (.. فقد أمر ابو المسك كافور الاخشيدى : عمر بن محمد ابن يوسف الكندى بجمع وتأليف كتاب يذكر فيه أخبار مصر وما خصها الله تعالى به من الفضل والبركات والخيرات ..) .(١)

التخصص العلمي :

وكان للعلوم التى سادت فى الفترة المبكرة من تاريخ الحياة العلمية طابع مميز . انعدم فيه التخصص . فكان العالم الواحد يجمع بين انواع مختلفة من صنوف العلم (لانه لم يكن هناك تخصصا دقيقا بين العلماء كالذى نعلمه اليوم . فلم يكن هناك من تخصص فى الفقه فحسب أو الحديث أو التاريخ أو ما يشبه ذلك بل كان العالم يلم بفروع مختلفة من العلوم) .(٢) (.. فقد كانت حلقة الامام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ـ بالمسجد الجامع بمدينة الفسطاط ـ تدور على كثير من العلوم العربية" . فكان يبدأ حلقته بدروس القرآن ثم يأتى اليه طلاب الحديث وفى الضحى تدور حلقته حول علوم اللغة والعروض والشعر والنحو ..)(٣) (وكان عبدالله بن وهب بن مسلم القرشى المتوفى سنة ١٩٧ هـ فقيها ، محدثا .. وكان احد اعلام المدرسة المالكية البارزين ..)(٤) (قال عطاء بن رباح : ما رأيت قط اكرم من مجلس ابن عباس اكرم فقها واعظم خشية ، ان اصحاب الفقه عنده واصحاب القرآن عنده وأصحاب الحديث عنده يصدرهم كلهم من واد واسع .(٥)

---

(١) عمر بن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص١

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Art Masdjid, Vol.3. P.365

(٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٧ ص ٢٩٩ـ٣٠١ ـ ابن حجر : توالى التأسيس ص ٦٢ ـ النووى : تهذيب الاسماء جـ١ ص ٤٩ـ٥٠ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٣٠٥

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٢

(٥) ابن حجر : الاصابة جـ٤ ص ٩٤

" وكان الليث بن سعد (٩٤ هـ / ١٧٥هـ) امام اهل مصر في الفقه والحديث معا ". (١) قال يحيى بن بكير : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث بن سعد ، وما رأيت اكمل منه ، كان فقيه البلد ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو والشعر والحديث ـ حسن المذاكرة ". (٢)

خضعت العلوم والمعارف الاسلامية فيما بعد لعامل التطور الزمني وشهدت في القرنين الثالث والرابع الهجريين ما يمكن ان نسميه بقدر من التجاوز التخصصي العلمي بين صفوف العلماء. وقد بدأت الدعوة نحو التخصص تأخذ طابعا خاصا ويتمثل هذا في دعوة العلماء اليه (فكان العلماء يفرقون بين انفسهم وبين الادباء، حتى قال ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٨٦هـ) : " من أراد ان يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد ان يكون اديبا فليتسع في العلوم وان يأخذ من كل شيء أحسنه). (٣) ورغم ان مثل هذه الدعوة لم تتحقق الا في وقت متأخر الا انه صار لابد من تمايز العلماء انفسهم بالتركيز على مجال واحد او مجالين تبرز فيهما الملكة الحقيقية التي يتمتع بها هذا العالم أو ذاك (قال يوسف بن عدي (المتوفى سنة ٢٣٢هـ) ادركت الناس فقيها غير محدث ومحدثا غير فقيه ، خلا عبد الله ابن وهب ، فأني رأيته فقيها محدثا زاهدا ، صاحب سنة واثار) . (٤) وهكذا نجد ان بعض العلماء امتازوا في بعض الميادين دون غيرها .ومما يذكر ان الدعوة الى التخصص النسبي كانت مقدمة نحو تمييز بعض العلوم " ، فقد خرجت من بين فنون الاداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمي وأسلوب علمي ، سوى الفلسفة وعلم الكلام. ثم صار لكل من التاريخ

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٨١

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٨٣٦ ، ٨٣٧ ـ ابن حجر : الرحمة الغيثية ص٦

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٧٥ ـ ابن عبد البر : جامع بيان العلم جـ١ ص ١٠٩ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣ ـ ١٤

(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٤٢٧ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٣

والجغرافيا واللغة منهجه الخاص ". (١) وترك العلماء ماكانوا قد ألفوا قبل من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية كما انهم أصبحوا لايغالون في حشد المعارف على تنوعها بل أقبلوا على الدراسة العلمية وعلى تنظيم المعارف وشحوا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدوينها ". (٢) جاء في مقدمة كتاب المقصور والممدود لابن ولاد النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٢هـ (هذا كتاب نذكر فيه المقصور والممدود ، ماكان مقيسا وغير مقيس مؤلفا على حروف المعجم ، ليقرب وجوه الحرف على طالبه ويسهل استخراجه من موضعه). (٣)

وقد كان لحركة الترجمة ونقل العلوم والمعارف القديمة أثر كبير في ظهور بعض المؤلفات التي لاشك انها أفادت من تلك الحركة. وكان ذلك بعد مرحلة الاستقرار وضعف العقول الى معرفة ماتحويه الثقافات القديمة (الاغريقية ، واليونانية) من علوم ومعارف. (٤)

" فكان سيبويه المصرى يتمثل بأقوال فلاسفة الاغريق ". (٥)

وقد ألف ابن الداية كتاب (السياسة لافلاطون وشرح كتاب الثمرة " وهو كتاب بطليموس). (٦) وقد صار للعلوم الدنيوية كالطب والفلسفة أثر مذكور في القرنين الثالث والرابع من الهجرة.

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٣٠١

(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٣٠١

(٣) ابن ولاد : المقصور والممدود ص٣

(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ص١٣

(٥) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى ص ٣٥

(٦) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء جـ١ ص ٢١ ـ ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٥ ص ١٥٤.

وكان هناك تغييرات أخرى خاصة بعلوم الدين (فقد تميز علم الفقه عن غيره من علوم الدين، واصبح العلماء فريقين: الفقهاء والعلماء على الحقيقة). [١]

وكانت هناك طريقتان منهجيتان لضربى العلوم السائده (النقلية والعقلية):

" فالعلوم العقلية مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول ". [٢] ولذلك اعتمدوا منذ البداية على الرواية وصحة السند، فهم يجمعون ما قاله السابقون وقد يرجحون قولا على قول ويكاد يقتصر علمهم على التحقق من صحة النقل ". [٣]

" لأن اصل هذه العلوم هى الشرعيات من الكتاب والسنة ". [٤] قال تعالى: (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون). [٥] وجاء فى سورة القمر: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر). [٦] ومن هذا نجد ان الآثار قد جاءت بالقرآن الكريم الكتاب المنزل على عباد الله، تؤكد احتوائه على جماع الحقائق، وغاية المعارف، ولذلك لم يكن هم المسلمون الوصول الى الحقيقة والبحث عنها. ومن أراد الوصول الى الحق، فليحفظ القرآن، ويع مافيه ". [٧]

---

(١) متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٣٠٢

(٢) ابن خلدون: المقدمة ـ الفصل الرابع ص ٤٣٥

(٣) احمد امين: ضحى الاسلام ص ١٦

(٤) ابن خلدون: المقدمة ـ الفصل الرابع ص ٤٣٩

(٥) سورة فصلت آية ٣

(٦) سورة القمر آية ١٧.

(٧) احمد فؤاد الاهوانى: التعليم فى رأى القابسى ص ١٩٢.

وقد اختلف منهج أصحاب العلوم العقلية من دارسى الطب وخلافه عن المنهج النقلى فقد ركن اصحاب العلوم العقلية الى معقولية الحقائق وامتحانها • متخذين اما سبيل المنطق وأما التجريب العملى • (١) فهم يحكمون بالصواب والخطأ بعد تمحيص للوصول الى الحقيقة • قال ابن خلدون : " ان العلوم العقلية هى العلوم التى يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية المى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها • حتى يقف نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها ". (٢) وكانت هذه العلوم قد رسخت فى دولها من قبل فاستقرت مناهجها •

فيما يتعلق بنظم تعليم العلوم النقلية مثل الحديث والفقه ـ فلم يكن هناك اجازة يشترط ان يحصل عليها المعلم ليكون صالحا للتعليم • حتى يرخص له بمزاولة المهنة وانما كان رسم ذلك كما يقول السيوطى : " ان من علم من نفسه الاهلية جاز له ذلك وان لم يجزه أحد • وعلى ذلك السلف الاولون والصدر الصالح وكان هذا الرسم سائدا فى أفرع العلوم النقلية ـ مثل الاقراء والافتاء ". (٣)

ويبدو ان الرسم الذى استجد بعد ذلك بمنح الاجازات للقائمين بأمر تدريس العلوم الدينية كان لارشاد طلاب العلوم الآخذين عن هؤلاء العلماء • قال السيوطى فى الاتقان (وانما اصطلح الناس على الاجازة لان أهلية الشخص لايعلمها غالبا من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم) • (٤)

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص١٦

(٢) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الرابع ص٤٣٥

(٣) السيوطى : الاتقان جا ص ١٧٨

(٤) السيوطى : السابق جا ص ١٧٨ •

وقد اشار الفقهاء الى " انه لايجوز أخذ المال فى مقابل هذه الاجازات ولا الاجرة عليها ". (١) وكان هناك بعض الاجازات التى منحها ائمة الفقه لبعض أعلام المدرسة الدينية بالفسطاط " فقد رحل ابن القاسم الفقيه المالكى المتوفى سنة ١٩١هـ للاخذ عن الامام مالك بالمدينة ـ وقد أجاز له مالك الرواية عنه وقال له : اتق الله وعليك بنشر هذا العلم ". (٢)

وفى الفترة المبكرة ظهرت بعض البوادر التى ربما توحى بادراك ائمة الفقه لمعنى التخصص المبدئى " فكان الامام مالك يقول : " ابن وهب عالم ، وابن القاسم فقيه ". (٣)

أجور التعليم :

ومنذ البداية كان تعليم العلوم الدينية " يدرس بدون مقابل وقد ذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وابن حنبل وسفيان الثورى وغيرهم الى انه لايجوز ان يأخذ المعلم اجرا على تعليم القرآن والحديث". (٤) ذلك لان اقامة سنة رسول الله (صلعم) وتشييد قواعد الاسلام وارشاد عباد الله الى الحق. قد استوجبت على القائمين بأمر التدريس (ان يكون تعليمهم العلوم الدينية ـ ابتغاء وجه الله تعالى والقيام بتعليم تلك العلوم تطوعا). (٥) وفى عصر الصحابة والتابعين ازداد التشدد فى عدم اخذ الاجر عن العلوم الدينية ". فحين فرض سعد بن ابى وقاص ابان ولايته على العراق (١٤ـ٢٠هـ) عمن يقرأ القرآن فى الفين الفين ، كتب اليه عمر بن الخطاب ان لايعط على القرآن احدا ". (٦) ولعل هذا يوضح

---

(١) السيوطى : الاتقان جـ١ ص١٧٨.

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص٢٥٧ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٤٦

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٤٧

(٤) السمرقندى : بستان العارفين ص٤ ـ متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى.

(٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص٥٢ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص١٣ و١٤ ـ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة جـ١ ص٢٣

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص٥٨.

ما أشار اليه ابن خلدون " من ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والآذان ونحو ذلك لاتعظم ثروتهم فى الغالب ". (١) وقد فرض الاجر فقط على القصص " فقد كان رزق القاضى عبد الرحمن بن حجيرة الذى ولى القضاء والقصص من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ ـ ألف دينار ـ مائتى دينار من القضاء ـ وكان عطاؤه مائتى دينار ـ وكانت جائزته مائتى دينار ". (٢) ومن المعلوم انه " قد فرض للعرب المستقرين بمصر العطاء الذى كان يعطى لهم من بيت المال ". (٣) وكان هذا العطاء يمثل الدخل الرئيسى لكثير من طلاب العلم فى تلك الفترة " . ولم يكن طلب العلم عملا يدر دخلا . وكان هذا العطاء قائما "ويقدر من ثلاثة أوجه : احدها عدد مايعوله الشخص من الذرارى والمماليك . والثانى : عدد مايرتبطه من الخيل والظهر ثم الموضع الذى يحله من الغلاء والرخص " . فيقدر كفايته فى نفقته وكسوته لعامة كله . فيكون هذا المقدر فى عطاء ، ثم تعرض حالة كفى كل عام . فاذا زادت رواتبه الماسة زيد . وان نقصت نقص ". (٤) وظل الامر على هذا الامر الى ان أمر الخليفة العباسى المعتصم باسقاط العرب من الديوان سنة ٢١٨ هـ ". (٥) ، فأتخذ العرب من الزرع معاشا وكسبا . ونزلوا القرى واختلطوا بالمصريين . (٦) وزاولوا بعض الاعمال الاخرى الى جانب الزراعة مثل التجارات وغيرها .

ولاشك ان مسألة الاجر كانت قد نشأت عن علة دينية ـ ولكن عندما صارت علوم القرآن الكريم علوما تدرس ـ أجاز بعض الائمة أخذ الاجر عن تعليم القرآن ـ مثل مالك بن انس ". (٧) وان كانوا قد اجازوا الاجر على تعليم القرآن ، فلا ريب

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل السابق ص ٣٩٣

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ٢٣٥ ـ الكندى : الولاة والقضاة ص ٣١٤ ـ ٣١٧ ـ الذهبى : تاريخ الاسلام ج٣ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

(٣) ابن عبد الحكم : السابق ص ١٠٢

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٠٥

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٧ ـ المقريزى : الخطط ج١ ص ٣١١

(٦) المقريزى : الخطط ج١ ص ٨٢

(٧) القابسى : الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين . ملحقة بكتاب د . عبد العزيز الاهوانى : التعليم عند القابسى ٢٦٩ ـ ٢٧٠

انهم لم يحرموه على بقية المواضيع المدرسية. (١) وفى مصر " كان أول من عرف اقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله — نزار بن المعز — فى وزارة يعقوب بن كلس . فعمل ذلك بالجامع الازهر ". (٢)
ولا شك ان الفترة التى حرم فيها أخذ الاجر على تدريس العلوم الدينية كانت تتطلب من دارس العلوم الدينية شيئا من اليسر المادى الذى يتيح لاصحابه فرصة للتنقل والترحال للاخذ عن الائمة والعلماء ولذلك كانت القدرة المادية عاملا هاما فى اذكاء قرائح اصحاب الملكات العلمية لانها كانت لاتشغلهم بطلب المعاش . وقد ذهب البعض الى ان العلم لايصلح الا لاصحاب الحسب والدين والسلطان (قال ابو بكر بن عبد الرحمن : ان العلم لواحد من ثلاثة : لذى حسب يزينه . او لذى دين يسوس به دينه . او لمن يختلط بالسلطان ويدخل اليه بتحفة تعلمه وينفعه به) (٣) واذا ألقينا نظرة فاحصة على اعلام المدرسة الدينية بمدينة الفسطاط نجد ان معظم هؤلاء الاعلام كانوا ذوى جاه ونفوذ وكان لبعضهم أملاكا واسعة " . فقد كان الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ هـ كبير الديار المصرية وعالمها الانبل حتى ان نائب مصر وقاضيها من تحت اوامره . واذا رابه من أحد منهم امر كاتب فيه الخليفة فى عزله . وقد طلب منه المنصور ان يعمل نيابة الملك فامتنع ". (٤) كما كانت له ضياع واملاك واسعة كانت تدر عليه فى كل عام خمسة آلاف دينار . وكان قد وصل مالك بن انس وعبد الله بن لهيعة كلا منهم بألف دينار .. ". (٥) وكانت اسرة بنى عبد الحكم من ذوى الجاه والنفوذ " فكان عبد الله بن عبد الحكم عميد هذه الاسرة والمتوفى ٢١٤ هـ — قد استقبل الامام الشافعى حين قدومه الى مدينة الفسطاط ووصله

---

(١) د . عبد العزيز الاهوانى : التعليم عند القابسى ص ١٩٢ — وما ذكره من مراجع.
(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٦٣
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص ٧٦
(٤) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٧ ص ٥١٧ — ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٨٠ — ٢٨١ — ابن حجر : الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية ص ٦٢٥ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٨٢ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٠١

بألف دينار ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفا آخرى كي يستعين بها على أمره). (١) وكان بعض اعلام المدرسة الدينية يغدقون على غيرهم من العلماء الوافدين.
قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : " لما وردت مصر سنة ٢٥٦ هـ نزلت على الربيع بن سليمان ، فأمر من يأخذ لي دارا قريبة منه ، وجاءني أصحابه فقالوا : تحتاج الى . . . ". (٢)

وكان عبد الرحمن بن القاسم ـ الذي كان رئيسا للمالكية بمصر ـ قد ورث عن والده القاسم بن خالد العتقي الذي كان يعمل في الديوان ما يقرب من ألف مثقال . وقد رحل للاخذ عن الامام مالك بالمدينة ". (٣)

وأعطى محمد بن عبد الله المعافري المالكي ـ المتوفى سنة ١٧٣ هـ ـ خمسين دينارا ". (٤)

وتذكر الرواية التاريخية " ان صالح بن علي العباسي لما خرج من مصر الى الشام سنة ١٣٧ هـ ـ خرج بنفر من وجوه أهل مصر منهم غوث بن سليمان الحضرمي وعمرو بن الحارث الفقيه ". (٥)

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص٤٣٦ ـ ٤٤٠ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ٢٢٩ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٤ ـ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٢ ص ٣٤ ـ سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص٢٨٠

(٢) ياقوت الحموي : معجم الادباء جـ١٨ ص ٦٥٩

(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص ٦٥٤ ـ ٦٥٩

(٤) القاضي عياض : السابق جـ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٦٥٩

(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٠٥

ومهما يكن من الامر فقد استقطب القرآن الكريم وعلومه الدراسات العلمية بالفسطاط . وقد تهيأت السبل أمام دارس القرآن والتفسير.

فبالاضافة الى تشجيع الولاه وأولى الامر كانت هذه الدروس تلقى على الطلبة والراغبين فيه دون مقابل لان العلماء الدينيين كانوا يكرهون ان يأخذ المسلم على القرآن أجرا ". (١) وقد كان الكثير من أفراد الشعب يتطوعون للتعليم والدرس ونشر المعارف ". (٢)

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ١٧٥ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣ و ١٤ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة جـ١ ص ٣٢١

(٢) على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ص ١٨٤ .

٣- دور الذميين المصريين فى الحياة الفكرية العربية

يمكننا ان نميز بين نوعين من الدراسات الادبية فى مصر قبيل الفتح العربى وهما : الادب القبطى الذى كان يكتب باللغة القبطية ، والادب الرومانى الذى كان يكتب باللغة اليونانية . وكل منهما - فى الواقع - كان يختلف عن الاخر فى الاهمية ونوعية الدراسة . والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها ان أغلبية المصريين آنذاك كانوا يعملون فى الزراعة ويتحدثون باللغة القبطية بينما يجهلون اللغة اليونانية لغة الحكام الرومان . ومن ثم كان النشاط الفكرى للقبط ودراساتهم الادبية يتركز فى الاديرة حيث توجد المكتبات الفنية ، ويأتى فى مقدمة هذه الاديرة الدير الابيض بسوهاج . (١) ودير سانت ميخائيل ودير سانت مقار فى وادى النطرون .

وكان كل دير من هذه الاديرة وغيرها يضم عددا من الرهبان المثقفين الذين يقومون بترجمة الكتب اليونانية الى اللغة القبطية وايضا يقومون بنسخ الكتب القديمة .

---

(١) ويعرف ايضا بدير بوشنوده - ويوجد بأخميم على جبل يسمى جبل ادريب غربى النيل . ويمتاز هذا الدير بحسن البناء وباللون الابيض الذى اشتهر به . ولتحق به افنية واسعة . ويشرف الدير على حقول واسعة مزروعة يحيط بها اشجار النخيل . وتصفه بعض الروايات : " ويجرى من النيل خليج طويل المدى كأنه السيف النقى من الصدأ ، وينتهى الى قلمة متسعة وبركة فيها امداد المياه مجتمعه شرقى الدير يفصل بينهما الطريق لا يرى مثل نزاهته فى زمن الشتاء والربيع . يتضاحك فى جنباته النوار ، وتخضر فيه شقائق الزروع وتكثر فيه مصايد الطير ويكون من الحسن فى غاية تملأ الهصو" انظر : العمرى : مسالك الابصار جـ١ ص ٣٧٤-٣٧٥

(٢) دير سانت مقار من أشهر الاديرة بوادى النطرون بل من أشهر الاديرة المصرية جميعها . وقد جرت العادة بين القبط انه لا تتم بطركية البطرك حتى يقوم القداس فى هذا الدير بعد تقديسه فى كنيسة الاسكندرية عقب اختياره بطركا ويقول المقريزى ان المقارات ثلاثة اكبرهم صاحب هذا الدير ثم ابو مقار الاسكندرانى ثم ابو مقار الاسقف . ووضعت هذه الجثث فى توابيت خشبية . ويزورها القبط دائما . ويوجد بهذا الدير كتاب عمر بن العاص لرهبان وادى النطرون .

انظر المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٤٢٩-٤٢٠

وقد اشتهر بعض الرهبان بجودة الخط. ومن الامثلة على ذلك رهبان دير تطوان جنوب الفيوم ويعتبرون من أشهر النساخ القبط وأحذقهم. (١)

ويؤكد لنا اهمية الدير في النشاط الفكرى والثقافة القبطية ماتشير اليه بعض الروايات التاريخية من انه عند غزو الفرس لمصر في عهد الرومان — اوائل القرن السابع الميلادى أخذوا من بين الغنائم كنوزا علمية كانت تملأ مكتبات الاديرة. وتقول بعض المصادر: " واكبر ماحدث ان الدير الكبير دير الهانطون لم يصل اليه اذى لبعده عن الاسكندرية . وأغلب الظن ان ماكان فيه من الكتب والمنسوخات لم يمسسه سوء ". (٢) كما ان القديس بيزنتيوس اسقف قفط — قد أوصى وهو على فراش الموت بكل ماعنده من الكتب الى صديقه موسى الذى خلفه مطرانا على الابروشية وكتب ترجمة حياته. (٣)

وهذه المكتبات الديرية كان اهم محتوياتها الكتب الدينية المسيحية التى كان لزاما على الرهبان قراءتها يوميا الى جانب مايقوم الرهبان بتأليفه من كتب تتضمن اعمال الشهداء وأخبار القديسين وترجمة المؤلفات اللاهوتية وتراجم مؤسسى المذاهب الدينية . وايضا تصنيف كتب فى الحياة الديرية وقواعدها . ولم يعن هؤلاء الرهبان بدراسة التاريخ الا بتاريخ بطاركة الكنيسة القبطية وخاصة رهبان وادى النطرون ولم يعن القبط بالعلوم الاخرى اللهم الا عنايتهم بالطب وبعض تركيبات الادوية القديمة التى ترجع الى العصر الفرعونى. (٤)

ونلاحظ ان مؤلفات القبط بصفة عامة كانت كثيرا ماتتضمن اشارات الى اسماء البطالمة ودقلديانوس وزينون. وبعض الاشارات الجغرافية لارمنيا والفرس والحبشة. (٥)

---

(١) Munier : L'Egypte Byzantine. P. 87.

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦٢

(٣) نفس المصدر ص ٦٦

(٤) Munier : Op. Cit. PP. 87 - 88.

(٥) Ibid. PP. 88 - 89.

وفى الحقيقة لم يكن الادب القبطى أدبا دينيا فحسبه فقد كانت الاثار الدنيوية فى الادب القبطى لاتقل روعة عن الاثار الدينية اذ حفظت لنا بعض الاديرة بعض الاداب الدنيوية بالرغم من انصراف القبط فى العصور الاولى عن تدوينها لارتفاع ثمن البردى أوالرق وقصرهم التدوين على الادب الدينى وهناك كثير من الوثائق والرسائل التى توضح الحياة الديرية ونشاط الرهبان فى الاديرة• وقد ازدهر الادب القبطى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين• ثم خمد هذا النشاط نتيجة لاضطهاد الاباطرة الرومان وحكامهم وماتعرضت له البلاد من الغزو الفارسى• (١)

والى جانب الدراسات الادبية للقبط • آنذاك • نجد الدراسات الادبية الرومانية الفنية• فقد ورثت الثقافة الرومانية الدراسات البطلمية الى جانب الثقافة الهيلينية • والواقع ان ازدهار الثقافة اليونانية الرومانية فى مصر جعلها من أهم مراكز الثقافة والنشاط الفكرى فى الشرق حتى الفتح العربى • وكان اهم المراكز العلمية فى مصر فى ذلك الوقت مدينة الاسكندرية • وظهر من بين الرومان الكتاب البارعون والفلاسفة والعلماء وكانت لغة هؤلاء هى اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية فى مصر فى الحكومة والكنيسة والمعاملات والتجارة• (٢) واستمرت هذه اللغة محتفظة بمكانتها بعد الفتح العربى لمصر•

ونلاحظ وجود دراسات ادبية سريانية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين• ويرجع وجود هذا الادب السريانى الى نتائج غزو الفرس لبلاد الشام وهجرة كثير من العلماء السريان والادباء الى مصر خوفا من اضطهاد الفرس ونقل هؤلاء العلماء والادباء معهم كثيرا من كتبهم وأساليبهم الادبية وقبل هجرة هؤلاء العلماء • كان فى الاسكندرية بعض العلماء السريان الذين قدموا اليها بغرض دراسة علوم الطب• وهكذا ظهرت اللغة والاداب السريانية فى مصر • ولاسيما فى الاديرة التى نزلها هؤلاء السريان — وقد قام بعض هؤلاء السريان بترجمة بعض اجزاء الكتاب المقدس وكتب الطب الى اللغة السريانية وقد حفظتها

---

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص١١٥—١١٦

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine. P. 89.

لنا مكتبات بعض الاديرة • (١)

وهكذا استمرت حركة النشاط الفكرى التى بدأتها المدارس الوثنية ثم واصلها المسيحيون على شواطئ النيل • فظهرت دراسات فى الفلك والادب والعلوم اللاهوتية والفلسفة والطب وقواعد اللغة وغيرها من مختلف العلوم والاداب التى كانت مصدرا للنشاط الفكرى بعد الفتح العربى لمصر • (٢)

كان الفتح العربى ضربة قوية للادب القبطى ولكنه مالبث ان صحا صحوة عظيمة وخاصة ان الفتح العربى ساعد على انتعاش اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية • فقد شهد النصف الثانى من القرن السابع والقرن الثامن الميلاديين (القرنين الاول والثانى الهجريين) نهضة ادبية قبطية عظيمة تجمع بين الطابعين الدينى والدنيوى • ولعل اكبر العوامل التى ساعدت على هذه النهضة ان نظام الاديرة قد اصبح فى ذلك الوقت أقل صرامة مما كان عليه من قبل وانه اتيح للرهبان فرصة القيام بشتى الحرف والاعمال كما سمح لهم بقراءة الكتب الدنيوية فى الاديرة ومن ثم بدأ هؤلاء الرهبان الكتابة والتأليف فى الشئون الدنيوية • وشجعهم على ذلك ايضا ظهور الورق ـ الذى حل محل البردى ورخص ثمنه حتى صار فى متناول الجميع • (٣)

وكان الادب القبطى يكتب باللهجة الصعيدية • ونجد فى هذا الادب الروايات القصصية والاشعار الدينية • واشتهر من بين القصص الدنيوية فى الادب القبطى

---

(١) Ibid., P.89 ومحمد كامل حسنين : ادب مصر الاسلامية ص٥

(٢) Munier : Op. Cit. P. 90.

(٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى و William, H. Worrell: Short account of the Copts. P. 31.
وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب ص١٢٣ (ترجمة مراد كامل)

قصة ثيودوسيوس • وديونيسيوس ،وترجع الى اوائل القرن الثامن الميلادى • الثانى الهجرى — وبطل هذه القصة صانع مصرى خدمه الحظ وبلغ منصب امبراطور اليونان• ثم حدث بمحض الصدفة ان التقى بصديق قبطى له ،فعينه رئيسا لاساقفة العاصمة اليونانية• كذلك نجد من بين الاثار الادبية للقبط بعض اجزاء من قصة الاسكندر مترجمة الى اللهجة الصعيدية• وقد أوحت هذه القصة الى بعض الكتاب القبط بكتابة رواية قمبيز والقبطية الاصل• وهذه القصة والواقع كانت تاريخا خياليا لغزو قمبيز ملك الفرس لمصر• وتدل هذه القصة على وطنية عظيمة ومدى ما كان يعانيه القبط من كبت وضغط الحكام الاجانب • وقد عبر عنه الكاتب فى اسلوب روائى أدبى رائع• (١)

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عنى احد الاساقفة القبط وهو الاسقف انبا اثناسيوس اسقف قوص فى مصر العليا بدراسة اللغة القبطية وقواعدها وخاصة اللهجتين الصعيدية والبحيرية على نمط دراسة نحو اللغة العربية وقواعدها • وقد أخذت اللهجة البحيرية آنذاك تحل محل اللهجة الصعيدية فى الاهمية وفى الدراسات الادبية• وخاصة انها اصبحت لغة الكنيسة الرسمية منذ عهد البطرك انبا خريستودولس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)• (٢) وكان ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله•

وبالرغم من ذلك كان معظم اهتمام القبط فى مصر الاسلامية —كعادتهم دائما بالعلوم الدينية والكتابة عن اعمال القديسيين ومن اشتهر بالورع والتقوى وتركزت هذه الدراسة بصفة خاصة فى دور العبادة ولاسيما فى الاديرة• وكان من مميزات

---

(١) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١١٦ — ١٢٠ و William, H. Worrell : Op. Cit., PP.31-32,35-36

وفى الترجمة العربية ص ١٦٤—١٦٥

(٢) William, H. Worrell : Op. Cit. P. 46

والترجمة العربية ص ١٨١

الادب القبطى القصصى القصيرة لحياة الرهبان فى الاديرة. وكان هذا النوع من الادب يرمى فى الواقع الى التهذيب والاصلاح بين عامة القبط. (١) وكذلك كان القبط كثيرا ما يؤلفون كتبا فى آداب الكنيسة وطقوس العبادة وما يشابه ذلك من الدراسات الدينية التى كانت تجذب اهتمامهم دائما. (٢)

واذا كان هو شأن النثر فى الادب القبطى فى مصر الاسلامية، فاننا نجد ان نظم الشعر كان مقتصرا على مدح الملائكة والانبياء والقديسيين والشهداء الى جانب الاشعار الكنسية التى تتضمن الصلوات وبعض المزامير من الانجيل وهذه الاشعار تسمى (الابصاليات) وهذه التسمية مأخوذة من الكلمة القبطية (بصالموس) ومعناها مزمور. اما الاشعار الاخرى فتسمى (الهوسات) وأصلها من الكلمة القبطية (هوس) ومعناها التسبيح. وتتركز هذه الاشعار فى كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية. (٣)

ومما يذكر ان الادب الصعيدى فى العهد المتأخر قد كتب فى اسلوب شعرى وبالرغم من ذلك لم يصلنا من اشعار القبط سوى ما قد كتب بالفيوم. وكانت تمتاز بالصبغة الدينية. ونذكر من الامثلة على ذلك قصة آلام المسيح. وكانت الاشعار الصعيدية المتأخرة والاشعار الفيومية تكتب فى اسلوب وطنى بحت ولم تلتزم نهج الاشعار الاغريقية. ولم يكن ذلك معروفا من قبل فى الوثائق المصرية الاولى. وكانت هذه الاشعار لاتقرأ بل تلحن. وتتضمن معانى هذه الاشعار، الكثير من المعانى الادبية والحكم، وأولعوا بصفة خاصة بأمثال سليمان وقصة ملكة سبأ، كذلك كانت قصة قسطنطين وظهور الصليب رواية خيالية، ولكنها دينية. وأما تصورهم لتاريخ الكنيسة فكان اخلاقيا دينيا معا. (٤)

---

(١) The Encyclopaedia of Islam. Vol.2, Art Kibt.P.1002

(٢) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١٢

(٣) نفس المصدر ص ١٢١ــ١٢٢

(٤) وليم ورل : موجز تاريخ القبط ص ١٦٥ــ١٦٦

وتذكر بعض المراجع الحديثة انه " لاتستطيع اللغة القبطية ان تفخر بشعراء مجيدين أو مؤرخين ممتازين أو فلاسفة ، أو أحد من رجال العلم الفحول . فجل الاداب القبطية دينية لقلة ما كان لدى القبط من علم وفصاحة مما سبب أهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم مع انه لاتكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أوأغرب منها أو ذات تاريخ مجيد كتاريخها . (١)

واستمرت دور العبادة القبطية ـ أى الكنائس والاديرة ـ طوال تاريخ مصر الاسلامية مركزا للدراسة والعلم . وكان فى كل كنيسة كتاب باللغة القبطية عن حياة الاباء يقرأه القسس صباح كل يوم . ولا يسمح لاحد منهم ان يقتنيه . وترجمت كثير من هذه الكتب الى اللغة العربية . (٢)

وقد أهتم جل البطاركة بصفة خاصة بدراسة العلوم الكنسية فتحدث الرواية القبطية عن اهتمام البطرك شنودة بالعلوم الدينية فى عهد الامير احمد بن طولون ـ فتقول " وكان هذا الاب كثير الاهتمام بالكتب البيعية حتى انه كان له عدة من النساخ ينسخون له كتبا . وكان لايكتب له الا قوم علماء جيدين خبيرين بقراءة الكتب ما خلا خطوطهم ، وكان اذا فرغ له كتاب يفرح به ، كما يفرح ببناء بيعة ، فيأمر ان يصاغ عليه ذهبا وفضة . . " . (٣)

---

(١) Butler: The Ancient Coptic Churches, T.2, P.247.
كان الاهتمام بالدين وما يتعلق به من صفات قدماء المصريين المميزة . والواقع ان آثار قدماء المصريين ما هى الا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة . وان كل ما ظهر فى مصر القديمة من فن وعلم كان من اجل خدمة الدين . ومدنية قدماء المصريين مدنية فنية . ولكنها فى الحقيقة دينية قبل كل شئ . وذلك على عكس المدنية اليونانية التى كانت فلسفية ادبية ومن المعروف ان الحضارة اليونانية قد التقت بالحضارة المصرية القديمة وامتزجتا ومع ذلك ظل المصريون يميلون الى الدين وما يتعلق به ولم يتناولوا العلوم الفلسفية بشئ من الاهتمام . انظر : محمد كامل حسين : ادب مصر الاسلامية ص٧

(٢) Butler : Op. Cit., T. 1, P. 96.

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جا ص٦٣

وتتحدث الرواية القبطية ايضا عن اهتمام البطرك غبريال بن تريك الـذى عاصر الخليفتين الامر والحافظ الفاطميين بالعلوم والكتب المختلفة، فتذكر انه كان عالما حبيرا وانه كان مجتهدا فى قراءة الكتب وتفسير معانيها والبحث عنها ، ناسخ جيـد قبطى وعربى ينسخ لنفسه كتب كثيرة ومجلدات اشتراها من كتب العتيقة والحديثـة ، مما يصلح للبيعة المقدسة والدين المسيحى ... " (١)

ومن بين الموضوعات التى كانت الاديرة مراكزا لدراستها والتصنيف فيها تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية ، وما قاموا به من الاعمال ، وما تم فى حياتهم من كرامـات وعجائب ، وكانت هذه السير مكتوبة باللغتين القبطية واليونانية، ويؤكد ذلـك ماذكره ساويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه : " سير الاباء البطاركة " حيث انـه لما عزم على تصنيف هذا الكتاب جمع تراجم البطاركة السابقين لعصره من الاديرة ، وخاصة دير القديس ابى مقار ودير السيدة بنهيا ودياراات الصعيد الى جانب ما كان بكنيسة الاسكندرية، وهذه السير والتراجم كانت باللغتين القبطية واليونانيـة، وانه عمل بمساعدة بعض اخوانه القبط على ترجمتها الى اللغة العربية لغـة العصر الذى كان يعيش فيه (اى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ثم اضاف اليها تراجم البطاركة الذين عاصرهم وشاهد اعمالهم وماتعرضوا له من المصاعب وما تم على أيديهم من معجزات . (٢)

فلما عزم الشماس موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى على تكملة هذا العمل العلمى العظيم الذى بدأه ساويرس قال : " انه لما كان من تقدم من السلف الاخيـار رزقنا الله بركتهم ، قد اهتم وكتب سير البيعة ورتبها وشرح أمور البطاركة على كرسى البشير مارى مرقس الانجيلى بالاسكندرية وما جرى لهم وما أظهره الله سبحانه علـى أيديهم من العجائب وأيدهم به من الصبر والجهاد وقوة الامانة وارشادهم لرعيتهم ، وهدايتهم اياهم الى الامانة المستقيمة وتعليمهم الوصايا الانجيلية كما أمرهم الـرب

---

(١) المصدر السابق م٣ ص٢٥ ـ ٢٦

(٢) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م١ جـ١ ص٦ ـ ٨

جل اسمه " انا الخاطئ البائس ان اجمع سيرهم واكتبها ليكون ذلك ربط لـــــى ولمن يقرؤها بعدى.. "(١)

وكان مركز نشاط هذا الراهب الاديرة ايضا كمن سبقه وساعده فى هذا العمل الاسقف الذى ساعد ساويرس من قبل فى الترجمة الى العربية وهو ابو حبيب ميخائيـل ابن بدير الدمنهورى. ويصف موهوب ماوجده من هذه السير فى الاديرة قائلا : " فوجدنا بدير السيدة بنهيا منها سيره اثنين واربعين بطركا من مارى مرقص الانجيلى الــــى سيمون. ووجدنا فى دير الشهيد تادرس سيرة اربعة بطاركة من الاكسندروس الــــى خايال وهو تمام ستة واربعين بطركا. ووجدنا فى دير نهيا ايضا سيرة تسعة بطاركـــة من انبا مينا الى شنودة وهو تمام خمسة وخمسون بطركا. ووجدنا فى دير ابى مقار سيرة عشرة بطاركة من خايال السادس والخمسون الى سانوتيوس الخامس والستون كتبها انبا ميخائيل اسقف تنيس وهى بخط لقوط الراهب" فلما جمع هذه السير، بدأ فى تكملة الكتـــاب بكتابة تراجم من عاصرهم من البطاركة وما قاموا به من اعمال. (٢)

وبعد ذلك اكمل هذا العمل العظيم يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينــــا المعروف بابن القلزمى الكاتب. اذ جمع سير البطاركة التى انتهى موهوب مــــن كتابتها. ثم زاد عليها سير من عاصرهم من البطاركة وشاهد أعمالهم، وحضر قداساتهم وتحدث معهم. (٣)

ونلاحظ اهمية هذا الكتاب فى تاريخ مصر الاسلامية اذ لم يقتصر على ذكـــر تراجم البطاركة القبط وأعمالهم فحسب، بل انه يضم كثيرا من الاحداث السياسيـــة

---

(١) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م ٢ جـ٢ ص ١٥٩

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩-١٦١

(٣) نفس المصدر م ٢ جـ٣ ص ٢٢٢-٢٢٣

والاقتصادية والاجتماعية • فضلاً كثيرا مايشير الى صلات مصر بالخلافة الاموية ثم بالخلافة العباسية• ويذكر اسماء ولاة مصر وموظفيها الاداريين والماليين• ويتحدث عن استقلال مصر عن الخلافة العباسية فى عهد الامير احمد بن طولون• كذلك نرى فيه مايشير الى خراج مصر وايراداتها وماتتعرض له البلاد من سنوات القحط والغلاء ذلك الى جانب روايات كثيرة عن الاعياد والصور الاجتماعية المختلفة وبعض جوانب الحياة الثقافية•

ونستطيع القول بان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) قد تميز بكثرة ما ظهر فيه من المخطوطات باللهجة الصعيدية فى الاديرة المختلفة • وكان القبط آنذاك يكتبون على الرق• وكانت الصفحات كبيرة • كما كانت الكتابة تتميز بالحروف الكبيرة • وكانت تختلف كل الاختلاف عن المخطوطات التى ترجع الى القرن السادس الميلادى مثلا • وكانت هذه المخطوطات تتضمن فى الواقع • الآداب الصعيدية القديمة مثل الكتاب المقدس وسير القديسين والعظات وما الى ذلك • (١)

شهد العصر الفاطمى بصفة خاصة نهضة عظيمة للادب القبطى •وهذه النهضة تتمثل فى ترجمة الكتب القبطية الى اللغة العربية وتصنيف الكتب الجديدة باللغة العربية ايضا •ومن هذه الكتب ادب تاريخ القديسين وحياة الاب شنودة والاب باخوم والأب باخون والاب بيزنيتوس وغيرهم • وهذه التواريخ تتضمن اطراء وتقريظا لهؤلاء القديسين اكثر منه تاريخا أو تراجما لحياتهم • (٢)

وكان من بين العلوم التى يهتم بها القبط • السحر والطب • وكانوا فى الغالب ينظرون الى الطب على انه نوع من السحر• ولم يواجه القبط اى اعتراض

---

(١) وليم ورل : موجز تاريخ القبط ص• ١٨.

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1002.

على العمل فى هذه الميادين ، طوال تاريخ مصر الاسلامية ومع ذلك لم يصل
الينا من كتابات القبط فى هذا الشأن الا قدرا قليلا ، ولم يكن هناك فاصل
بين النصوص الطبية وبين النصوص السحرية ، وكانت هذه الكتابات فى الغالب تتكون من
فقرات يختص كل منها بمرض أو ألم معين مع الاشارة الى نوع العقاقير المناسبة لعلاجة
ثم تحتوى هذه الكتابات على بعض الكلمات المبهمة بعضها اسماء ملائكة والبعض الاخر
ليس الا خطوطا على هيئة حروف بغرض الايهام وكان القبط يتخذون العقاقير من كل
مصدر ممكن ، (١)

ويذهب بعض الكتاب المحدثين الى ان الثقافة القبطية ، مرت بمراحل ثلاثة :
أما الاولى فكانت قبل الفتح العربى لمصر ، وفيها كان الادب القبطى يقف جنبا الى
جنب مع الادب اليونانى وكان مكتوبا على ورق البردى ويرجع تاريخه الى القرن السادس
الميلادى او ماقبله وفى بعض الاحيان كانت الكتب تجمع بين اللغتين اليونانية
والقبطية ، أما المرحلة الثانية فهى مرحلة ضعف شأن اللغة اليونانية وآدابها ، وانتعاش
اللغة القبطية وآدابها عقب الفتح العربى لمصر واستقرار العرب فى البلاد المصرية ،
وقد ارتفع شأن القبط اليعاقبة آنذاك وكانت الاداب القبطية تدون باللغة القبطية
وحدها دون اللغة اليونانية ، اما المرحلة الثالثة فكان القبط خلالها يؤلفون كتبهم
فى مختلف المجالات باللغة العربية ، وقد بدأ تقريبا فى أواخر القرن الرابع الهجرى
(العاشر الميلادى) بعد ان اصبحت اللغة العربية هى اللغة الدارجة فى مصر
الاسلامية ، وصارت جميع الكتب فى الدراسات الادبية والدينية تؤلف باللغة العربية
منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو قبل ذلك
بقليل ، (٢)

وتؤكد لنا البعثات العلمية الاوروبية والامريكية الى دير سنت كاترين بشبه
جزيرة سيناء فى العصور الحديثة (اى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين)

---

(١) وليم ورل : موجز تاريخ القبط ص١٢٨

(٢) Butler: The Ancient Coptic Churches, T.2. PP.254-255

ان الدير كان دائما المركز العلمي لمسيحي مصر ، وأنه كان يضم مكتبة يوجد بها الكتب الدينية والدنيوية . وحدث في القرن التاسع عشر ان وصلت بعثات علمية روسية وألمانية الى هذا الدير للاطلاع على ما تضمه مكتبة هذا الدير . ثم جاءت بعثة امريكية في القرن العشرين (سنة ١٩٥٠ م) — بعثة طور سيناء لتطوير المخطوطات بالميكروفيلم واشترك في هذه البعثة احد علماء كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ، وهو الدكتور عزيز سوريال عطية ، الذي وضع فهارس علمية تحليلية للمخطوطات العربية المحفوظة بمكتبة هذا الدير والتي ترجع الى أقدم العصور . (١)

وفي أواخر سنة ١٩٦٣ م اشترك أحد علماء كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ايضا وهو الدكتور جوزيف نسيم مع بعثتي متشيجان وبرنستون بأمريكا في القيام ببعض الدراسات الفنية والاثرية والتاريخية في دير سنت كاترين المذكور آنفا . (٢) وقد اسفرت نتائج هذه البعثات العلمية عن مدى ثراء مكتبة الدير العلمي وما تضمه من المخطوطات والوثائق التي ترجع الى عصور تاريخية مختلفة ، والتي تدلنا على مدى ما كان عليه الدير من أهمية بالغة من النشاط الفكري للقبط في مصر الاسلامية .

وقد اسفرت نتائج هذه الدراسات على ان مكتبة هذا الدير تحتوي على اكثر من خمسة آلاف مخطوط ووثيقة . ويرجع تاريخ هذه المخطوطات والوثائق الى الفترة ما بين القرنين السادس والتاسع عشر الميلاديين . وان هذه المخطوطات والوثائق مكتوبة بلغات متعددة هي العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافية والجورجانية واللاتينية والارمنية والبولونية . واكثر هذه المخطوطات في اللاهوت والكتب الكنسية والدينية . ومنها ما هو في الفلسفة والموسيقى والرياضة والفلك والتاريخ والجغرافية والطب والقانون . أما الوثائق فأغلبها مكتوب باللغة العربية والقليل منها باللغة التركية وهذه الوثائق في الغالب تتضمن عقودا ومراسيم ومنشورات ومعاهدات وحجج وأوامر ادارية ، وأقدمها يرجع الى العصر الفاطمي . (٣)

---

(١) عزيز سوريال عطيه : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ص١ ا—٦١

(٢) جوزيف نسيم : دراسة وثائق العصرين الفاطمي والايوبي بمكتبة سانت كاترين ص١٧٩ .

(٣) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية جا ص ٢١—٦٢ . جوزيف نسيم : دراسة وثائق العصرين الفاطمي والايوبي ص١٨٠—١٨١

ومن بين مخطوطات الدير ، مخطوطات لاقدم التراجم العربية لبعض اسفار العهد بن القديم والجديد بالخطين الكوفى والنسخ ، ومن بين هذه المخطوطات ايضا التراجم العربية لمؤلفات القديس يوحنا الدمشقى الفيلسوف الشهير فى عهد بنى امية ، وكتاب طب العيون لعلى بن عيسى اما كتب الصلوات والتفاسير وتاريخ حياة آباء الكنيسة وقوانين الرهبان وغير ذلك من الكتب المسيحية البحتة فان مكتبة الدير تزخر بها . ومن الملاحظ ان هذه المخطوطات تنتهى بما يسمى القلوفونات (Colophons) ويتضمن بعضها معلومات تاريخية ذات اهمية بالغة لفهم حوادث العصر الذى يسجل فيه الكاتب مايتضمنه هذا الجزء الاخير من المخطوطات . (١)

ومما تجدر الاشارة اليه عناية القبط وخاصة الرهبان منهم فى الاديرة بتجليد الكتب والمخطوطات ، وزخرفتها . والواقع ان تجليد الكتب وزخرفتهما فن مصرى قديم ثم ازدهر هذا الفن فى مصر القبطية وخاصة بين الرهبان ، وكان اهتمامهم بتجليد الكتب ، شأنها شأن عنايتهم بنسخ الانجيل والكتب الدينية . (٢)

ويؤكد قيام الرهبان فى الاديرة بهذا الفن ما تمتاز به مخطوطات دير سنت كاترين من التجليد والزخرفة . ونذكر من الامثلة على ذلك مخطوطات ترجع الى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلادية (الثالث والرابع والخامس والسادس الهجرى) وموضوع هذه المخطوطات العهد القديم او مجموعة مزامير وتسابيح ورسائل بولس والاناجيل الاربعة ، وغير ذلك من الموضوعات الدينية البحتة . وقد جاء فى وصف بعض هذه المخطوطات انها مغلفة بغلاف خشبى يكسوه جلد بنى داكن ، مكتوب عليه بالخط الكوفى ، واحيانا اخرى يكون مكتوب بالخط النسخ . (٣)

---

(١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية جا ص ١٤

(٢) زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٧

(٣) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية جا ص ١٧ ، ٢٠ـ٢١ـ٢٢٧

وجاء فى وصف بعض المخطوطات الاخرى ان غلافها خشبى يكسوه جلد بنى ومزين باشكال هندسية على الطراز العربى ومحشو بقماش كتانى غليظ ومكتوب بالخطين الكوفى والنسخ .(١) وبعضها مغلف بغلاف خشبى مكسو بجلد بنى مزين بنقوش بارزة ومكتوبة بالخط الكوفى .(٢)

وجاء أيضا فى وصف بعض هذه المخطوطات ان غلافها من الخشب المكسو بالجلد البنى الغامق وانه من الواضح انه كان مرصعا بحليات معدنية لم يبق منها سوى حلية واحدة وصليب نحاس فى منتصف الغلاف الايسر . وكان ذلك فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .(٣)

ويبدو ان فن تجليد الكتب والمخطوطات فى مصر الاسلامية قد بلغ مداه فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فان مصر صارت تصدر الى بلاد الشرق الادنى كثيرا من المخطوطات المذهبة والمصورة الرائعة الجمال . وهناك انجيل يرجع تاريخ نسخه الى سنة ١٠١٠م وهو غنى جدا بزخارفه وألوانه الزرقاء والحمراء والذهبية .(٤)

وقد نقل المسلمون عن القبط اهتمامهم بتجليد الكتب والعناية بزخرفتها ويمكن القول ان المسلمين مدينون للقبط بمعرفة المصحف اى ما جمع من الصحف بين دفتى كتاب مشدود .(٥) ونتج عن ذلك عناية المسلمين بتجليد القرآن الكريم . شأنهم فى ذلك شأن عناية القبط بتجليد الانجيل والكتب الدينية . ومما ورثه المسلمون عن الفن القبطى فى صناعة التجليد اللسان الذى عرفه المجلدون فى

---

(١) عزيز سوريال : الفهارس التحليلية جـ١ ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق ص ١٤٥

(٣) نفس المصدر ص ١٩٤

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٠١

(٥) نفس المصدر ص ١٠٦

فى الاديرة القبطية. والواقع ان جلود بعض المصاحف المحفوظة فى دار الكتب المصرية تدل على الاثر القبطى الواضح . كما ان بعض هذه الجلود مزين بزخارف نباتية قبطية الطراز. (١) ولعل ذلك ناتجا عن اعتماد المسلمين على القبط فى تجليد كتبهم ، فى كثير من الاحيان ، أو تأثرهم بالفن القبطى فى ذلك الحين.

اذا كان ذلك هو شأن الثقافة والادب القبطى فى مصر الاسلامية فى ذلك العصر (من سنة ٢٠ هـ الى سنة ٥٢٧ هـ = ٦٤١ ـ ١٢٧١ م) نجد ان اليهود ايضا كان لهم ثقافتهم وآدابهم الخاصة بهم.

وكما تميزت الثقافة القبطية وآدابها بالاهتمام بالدراسات والعلوم الدينية فقد اهتم اليهود بالدراسات الدينية والعلوم العبرية. والحقيقة التى لا يمكن تجاهلها اننا نكاد لا نسمع شيئا عن اليهود ودورهم فى المجتمع المصرى قبل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وعليه نجد ان ازدهار الدراسات العبرية والادب اليهودى فى مصر كان حوالى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلاديين). ونلاحظ بصفة عامة عدم اهتمام مؤرخى مصر الاسلامية ، المسلمين منهم والقبط بالاشارة فى كتبهم الى اليهود ، ودورهم فى الحياة المصرية. ومن ثم كان جل اعتمادنا يكاد يقتصر على المصادر الاجنبية الحديثة التى تعتمد على بعض الوثائق والمصادر اليهودية (وخاصة ال Cairo Geniza) التى نقلت الى اوروبا وأمريكا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

كان جل اهتمام اليهود كما ذكرنا من قبل بالدراسات الدينية العبرية وبدراسة اللغة العبرية وقواعدها وبدراسة الفلسفة وادخالها فى الدراسات العبرية.

---

(١) زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص١٧ ـ ١٨

وقد زاد في نشاط الدراسات الدينية والادبية ماكان بين الربانيين والقرائين من جدال ومناظرات . وهذا النشاط الفكرى الواضح يتمثل في جهود أحد اليهود الربانيين ويسمى سعيد الفيومى (وقد تحدثنا عنه في الفصل الاول من هذا الباب .وقد نشأ بالفيوم ووجد بيئة مناسبة لتوسيع مداركه ومعارفه عن العلوم والكتب اليهودية. (١)

وقد ألف سعيد الفيومى عددا من الكتب اليهودية باللغة العربية . فكان له مؤلفات في العقائد والمذاهب . كما أنه قام بأول ترجمة عربية للتوراه (أى كتاب اليهود المقدس) مع اضافة بعض التعليقات والتفسيرات والشروح لبعض محتوياته . حتى يسهل على عامة اليهود فهمه واستيعاب ما جاء فيه. كما قام بدراسة علمية لقواعد اللغة العبرية وصنف معجما لها مع مايقابلها باللغة العربية أى انه صنف قاموسا عبريا عربيا . (٢)

وكان هذا اليهودى أول من اهتم بدراسة الفلسفة وادخالها بين الدراسات اليهودية . ومن ثم يعتبر مبتدع الفلسفة الدينية في العصور الوسطى . كما تبحر في دراسة التلمود الذى يتضمن شرائع وسنن اليهود كما اهتم بدراسة أدب القرائين. (٣)

---

(١) Mann : The Jews. T.1. P.15.

(٢) The Itinarary Benjamin: T.2? P.244 et, Maurice Fargon: Les Juifs, P.115.

(٣) القراءون احد طوائف اليهود الثلاثة ـ الربانيون والقراءون والسامرة وكانت لهم مدارسهم الخاصة في الدراسات العبرية والادب اليهودى. ونبغ منهم في اوائل القرن العاشر الميلادى عدد كبير منهم سلمان بن جروهام - Soloman b. Jerehom - الذى كان اول من صنف كتابا في تفسير التواره وناقش ايضا الكتب التى تدور حول المعتقدات ومنهم ايضا ميناهم غزنى Menahom Gizni في مدينة الاسكندرية واشتهر بنظم الشعر. وازدهرت مدارس القراءين في الاسكندرية في القرن ١٢ م . انظر The Jewish Encyclopaedia, Vol.V.,P.70

وصنف كتابا في صلوات اليهود وما تجب ان تكون عليه صلاة اليهودى الورع. [١] وقد زاد اهتمام اليهود بدراسة الكتب المقدسة والكتب الدينية في أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكان على رأس اليهود المهتمين بذلك شماريا بن الحانان Shamarya b.Elhanan وكان واعظا مشهورا ، امتاز بمواعظه وخطاباته وشرحه وتفاسيره لكثير من الامور الدينية حتى انه اشتهر بتأسيس مدرسة لدراسة التوراة انضم اليها اليهود المتحمسون لتعاليمه وآرائه . [٢] كما أهتم بعضهم بتصنيف الكتب في الطقوس الدينية. [٣]

وهكذا مارس كل من القبط واليهود نشاطهم الفكرى في مختلف الميادين بحرية كاملة دون محاولة من جانب الحكام المسلمين في مختلف العصور لايقاف هذا النشاط أو اضعافه ولعل ذلك يؤكد ماتراه من انه من العسير قبول الروايات التاريخية المتأخرة القائلة بان العرب قد أحرقوا مكتبة الاسكندرية عقب استقرارهم في مصر. وموضوع حريق العرب لمكتبة الاسكندرية قد أفاض بعض المؤرخين المحدثين البحث فيه [٤] ورأوا جميعا عدم التسليم بهذا الاتهام الباطل وفندوه بآراء وحجج مختلفة.

ومما لاشك فيه ان التأثير والتأثر كان متبادلا بين المسلمين والقبط طوال تاريخ مصر الاسلامية. فالعرب كما ذكرنا — انفا — لم يتعرضوا للنشاط العلمى لاهل الذمة في مصر ، وتركوهم يبحثون في الميادين الفكرية المختلفة الادبية والعقلية التى عمل العرب على الاستفادة منها . وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره ابن النديم [٥]

---

(١) Maurice Fargon : Les Juifs. P. 115.

(٢) Mann : The Jews, T. 1, PP. 27 - 28.

(٣) Ibid. P. 28.

(٤) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٣٢٣ — ٣٢٦ — بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب الثانى ص ١٥ — ٢٠ .

(٥) الفهرست ص ٣٥٢ — مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

من ان خالد بن يزيد بن معاوية لما رغب فى دراسة علم الكيمياء والاحاطة بكل جوانبه استعان ببعض المصريين المشهورين فى هذا الميدان • وكان هؤلاء المصريين فى الغالب من الفلاسفة اليونان الذين فضلوا البقاء فى مصر فى ظل الحكم الاسلامى وألم الكثير منهم باللغة العربية • فعهد اليهم خالد بن يزيد بترجمة الكتب اليونانية والقبطية التى صنفت فى هذا الميدان (اعميدان الكيمياء او الصنعة كما يسميها العرب) الى اللغة العربية وذلك حتى يمكنه دراستها والاستفادة بما جاء فيها • كما كان ذلك اول ترجمة من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية •

لم يقف الامر عند هذا الحد بل نجد ان القبط الذين تحولوا الى الاسلام أو الذين ينحدرون من أصل قبطى ، وأسلم اجداده ، قد شاركوا فى الحياة الادبية العربية مشاركة واضحة فعالة • وأقبلوا على دراسة العلوم الاسلامية وظهر هذا واضح منذ آواخر القرن الثانى الهجرى فقد تفوق مثلا فى قراءة القرآن ، أحد المصريين المنحدرين من أصل قبطى وهو عثمان بن سعيد الملقب بورش • وقد انتهت اليه رئاسة الاقراء بالديار المصرية • وكان الى جانب ذلك متميزا فى علوم اللغة العربية وآدابها وتوفى ورش فى سنة ١٩٧ هـ • (١)

وظهر ايضا من بين المصريين من له شأن فى اللغة العربية وآدابها وتشير المصادر الى ما يوضح ذلك • فحين قدم الامام الشافعى مصر (وهو الامام الحجة فى اللغة العربية وعلوم الدين) التقى باحد المصريين ويعرف باسم سرج الغول وكان حجة فى فقه اللغة • وقد اشتد انس الامام الشافعى به وكان يذاكره ويناظره ويبدى اعجابه بغزارة علمه • (٢)

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص١٥٥ ـ ١٥٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٨٥ ـ احمد امين : ظهر الاسلام جـ١ ص ١٦٢ ـ ويقال انه لقب بورش لشدة بياضه وقيل انه لقب ايضا بالورشان وهو طائر معروف ثم خفف الى ورش • انظر السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٨٥ • ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ١٥٥

(٢) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص٢٥٢

ومن نبغ من المصريين وشارك فى الحياة الادبية العربية فى القـــــرن الثانى الهجرى وبداية القرن الثالث الهجرى ابو عبدالله احمد بن يحيى التجيبى ولاء المصرى الحافظ النحوى احد الائمة • وكان اكثر اهل زمانه الماما بالشعر والادب والتاريخ والعلوم الدينية • وفى هذا يشهد باشتراك مصر فى الحركة الادبية العربية اشتراكا قويا منذ ذلك العهد ". (١)

كذلك شهد عصر الولاة العباسيين نبوغ بعض العلماء المسلمين الذيـــن ينحدرون من أصل قبطى • ومن أمثلة هؤلاء ابن الفطاس سعيد بن زياد • وكـــان من اهل الديانة والفضل • كما كان له حلقة فى المسجد يلقى فيها دروس الفقه • وايضا سعيد بن تليد • كاتب القضاء فى عهد لهيعة بن عيسى ويحيى بن بكير الفقيـــه المؤرخ وأحد تلامذة الليث بن سعد • ومن أساتذة المؤرخ المصرى عبد الرحمن بـن عبد الله بن عبد الحكم • وهؤلاء جميعا أحسنوا دراسة اللغة العربية والعلـــوم الاسلامية • (٢)

ولا غرو فان انتشار اللغة العربية تدريجيا كان عاملا مساعدا علـى وجــود بعض فقهاء فى اللغة القبطية من القبط وأصبحوا فى المقدمة بين فقهاء النحـــو واللغة • وقد تشبع هؤلاء بالثقافة العربية • وأتخذوا علماء النحو العرب نموذجا لهم يعملون على نمط اعمالهم فى دراسة نحو اللغة وقواعدها • واول من نبـــغ فى ذلك اثناسيوس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وألـــف اثناسيوس كتبا فى نحو اللغة القبطية وقواعدها كما يفعل العلماء المسلمون فى دراسة قواعد اللغة العربية ونحوها • (٣)

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٦١

(٢) محمد كامل حسنين : أدب مصر الاسلامية ص١٤٥

(٣) Worrell : A Short Account of the Copts. P. 45, and The Encyclopaedia of Islam, Vol.2. P. 1003.

وظهر بوضوح عناية من أسلم من أهل الذمة بالدراسات الاسلامية الدينية والادبية منذ أواخر عهد الامراء الاخشيديين وطوال عصر الخلفاء الفاطميين بصفة خاصة • ونذكر من أصدق الامثلة على ذلك يعقوب بن كلس اليهودى الاصل الذى أسلم فى امارة كافور الاخشيد فى منتصف القرن الرابع الهجرى• (العاشر الميلادى) فيقول ابن سعيد الانطاكى [(١)] كان يعقوب بن كلس يحب العلم وأهله ويقرب اليه أهل العلم والادب• وبلغ ماكان يجريه الوزير شهريا على أهل العلم من المقربين اليه والوراقين والناسخين ومجلدين الدفاتر ، ألف دينار فى كل شهر "•

ولما تحول يعقوب بن كلس الى الاسلام بادر بدراسة القرآن وتتلمذ على علماء الفقه والنحو وسائر العلوم الاسلامية• [(٢)] ولما ارتفع شأنه فى عهد الخليفتين الفاطميين المعز والعزيز زادت عنايته بالدراسات الاسلامية الدينية والادبية • كما عنى بدراسة الطب وقرب الاطباء اليه• وتذكر المصادر انه كان يجمع الاطباء فى داره كل يوم ، ليشرفوا على حالة الغلمان الصحية ، وعلاج من يحتاج العلاج منهم • [(٣)]

ويبدو انه كان فى داره مكان مخصص للعلماء والادباء والشعراء والفقهاء وكان يجتمع بهؤلاء مرة كل اسبوع ، ويعقد معهم المجالس والمناظرات العلمية• كما كان يخصص فى داره مكان للنساخ ومنهم من أختص بنسخ القرآن ، أو بنسخ كتب الفقه والنحو ، أو نسخ كتب الطب أو كتب الادب والحديث وغير ذلك من مجالات الفكر• وكان هؤلاء يعارضون الكتب ، اى يوازنون بين نسخ الكتاب الواحد ، ويشكلونها ، وينقطونها "• [(٤)]

---

(١) صلة تاريخ أوتيخا ص ١٦٤

(٢) ابن زولاق : كتاب اخبار سيبويه ص ٧٥

(٣) المقريزى: الخطط ج٣ ص٨

(٤) نفس المصدر ص ٨و٩

وامتدت عناية ابن كلس بمختلف العلوم والاداب الى تأليف كتب فى الدراسات الاسلامية منها كتاب فى القراءات وكتاب فى الاديان وآخر فى آداب رسول الله ورابع فى علم الابدان وصلاحها وخامس فى الفقه. (١) وهذا الكتاب الاخير فرغ ابن كلس منه فى سنة ٣٧٠هـ فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله . وقد قرأه على جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا . وقال انه أخذ هذا الكتاب عن الخليفة العزيز بالله عن آبائه الكرام . واشتهر هذا الكتاب باسم الرسالة الوزيرية. وقد اجتمع على تصنيف هذا الكتاب اربعون فقيها . (٢)

والى جانب ذلك كان ابن كلس يجلس كل يوم جمعة فى الجامع ويقرأ مصنفاته المختلفة على الناس ويجلس اليه القضاة والفقهاء والقراء واصحاب الحديث والنحاة والشهود . وبعد ان ينتهى مما يقرأه ينشد بعض النظم فى مدحه والاشادة بأعماله. (٣)

ويبدو ان ابن كلس كان ينشد الشعر. فتشير بعض المصادر الى انه كان له وللخليفة طيور حسنة يعنى كل منهما بتربيتها وكان يجرى بينهما سباق. فحدث ان سبق طائر ابن كلس طائر الخليفة. مما أغضب الخليفة واتاح الفرصة لبعض خصوم ابن كلس للطعن فيه لدى الخليفة . فأنشد ابن كلس قائلا :

قل لامير المؤمنين الذى ... له العلى والنسب الثاقب
طائرك السابق لكنــــه ... جاء وفى خدمته الحاجب (٤)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٣ ص٩
(٢) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص٢٢
(٣) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩
(٤) ابن زولاق : اخبار سيبويه ص٧٥

واستفادت مكتبة القصر الفاطمى استفادة عظيمة من شغف ابن كلس بالعلوم والاداب ، وولعه بجمع الكتب المختلفة ، ونقلت معظم كتبه الى مكتبة القصر ، بعد وفاته ، حيث استفاد منها الفقهاء والعلماء وكتاب الحديث والادب والطب . (١)

ومن الذين تحولوا الى الاسلام ، وعنوا بالدراسات الدينية ابو على الحسن بن ابى محمد ابراهيم بن سهل التسترى وكان يهوديا ثم اسلم فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وعنى بدراسة القرآن وحفظه . (٢) ومنهم ايضا ابن أبى زكريا بن ابى غالب ، وكان قبطيا وأسلم فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وعنى بدراسة العلوم الاسلامية الدينية — فحفظ القرآن ونسخه بخطه ودرس كتب الحديث والفقه ، وصنف كتبا فى هذه المجالات . (٣) وهكذا ساهم القبط واليهود الذين تحولوا الى الاسلام بدور فعال فى الحياة الثقافية ، والنشاط الفكرى فى مصر الاسلامية الى جانب نشاط القبط فى العلوم والاداب فى دور العبادة ، ونشاط اليهود ايضا فى الدراسات العبرية .

والى جانب الدور الذى قام به أهل الذمة فى مصر وخاصة من اسلم منهم فى الدراسات الاسلامية الدينية واللغوية ، كان هناك اهتمام بالعلوم الفلسفية التى كانت تشمل دراسة الطب والفلك والالهيات وما الى ذلك . وهذه الدراسات فى الواقع من بقايا مدرسة الاسكندرية التى ضعف شأنها بعد الفتح العربى الى جانب اقبال المصريين على الثقافة العربية وتعلمهم لغتها ، والبحث

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٤٣٢

(٢) ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ص٥٢

(٣) ابن سعيد الانطاكى ص٢٣٨ — وقد عاد الى المسيحية فى خلافة الظاهر والتمس منه المسلمون ان يعيد اليهم ماكتبه وما اقتناه من العلوم الاسلامية .

فى علومها الدينية • بينما اهتم رجال الدين المسيحى بدراسة الفلسفة وغيرهما من العلوم • وقد ساعدهم على ذلك اختلاف العقائد والمجادلة بين المذاهب المسيحية المختلفة اذا التجأ كل مذهب الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية فى تأييد رأيه• نضيف الى هذه الميادين ايضا اهل الذمة• وكان عملهم فيها يتطلب قراءة الفلسفة اليونانية • (١) وسنذكر امثلة لاشهر الاطباء من اهل الذمة فى مصر الاسلامية •

وشارك بعض القبط واليهود فى مجالس الادب والعلم فى بلاد الامراء والخلفاء المسلمين وفى مقدمتهم احمد بن طولون الذى كان مولعا بمعرفة علوم المصريين وآثارهم وتاريخ مصر وجغرافيتها • فاستدعى الى دار الامارة احد القبط اليعاقبة ـ وكان مقيما فى بلاد الصعيد ـ وكان مشهورا بالعلم ودراسة المذاهب الفلسفية والملل والنحل المختلفة عالما بأخبار البلاد والملوك وبالفلك وبالنجوم وغير ذلك من العلوم• وقد استفسر منه الامير ابن طولون عن كثير من اخبار مصر وجغرافيتها • (٢)

وكان احمد بن طولون يدعو هذا القبطى الى مجالس العلم والادب • فيشترك فى المناظرات والجدل بين العلماء والمسلمين او بين القبط واليهود• وقد سأله ابن طولون عن مهمة دين النصرانية• (٣) وكان من بين الحاضرين طبيب

---

(١) احمد امين : ظهر الاسلام ص١٧٣ ـ ١٧٤

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص٣٤٧ ـ ٣٥٣ ـ الاستبصار فى عجائب الامصار ص١٠٢ ـ ١٠٣

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص٣٥٣ ـ اجاب القبطى على سؤال ابن طولون قائلا " دليلى على صحتها وجودى اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولا جدل يصححها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها •ورأيت مع ذلك امما كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن رأى قد انقادوا اليها وتدينوا بها فعلمت انهم لم يقبلوها ولم يتدينوا بها •• الا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين

الامير اليهودى سعيد بن نوفيل ـ فاستأذن ابن طولون فى مناظرة هذا القبطـى الذى اخذ يحط من شأن اليهود • (١) وأقام هذا القبطى فى ضيافة الامير ابـن طولون مايقرب من سنة ثم عاد الى بلاده مكرما "• (٢)

لمسنا فى دراستنا لدور اهل الذمة فى الحياة السياسية ، ان المستخدمين من القبط واليهود كان يخدم كل منهم اخوانه فى الدين ويراعون مصالحهم ـ وقـد علا شأن كل من القبط واليهود فى عصر الخلفاء الفاطميين • وقامت المناظـرات بينهم • اذ كان كل فريق منهما ـ اى القبط واليهود ـ يحنق على الفريق الاخـره ويحسده لمكانته لدى الخلفاء • وطلب بعض اليهود من الخليفة المعز لدين اللـه ان يسمح لهم بمناظرة القبط فى حضرته فكان ذلك • (٣)

ومن ثم كان كل من اليهود والقبط يلم بعلوم الدينيين اليهودى والمسيحى ويعرفون ماجاء فى التوراة والانجيل وتصدى كل فريق منهما لمجادلة الفريق الآخـر والحط من شأنه وأبراز مايراه نقائص فى دينهم •وكثيرا ماشهدت بلاط الامـراء والخلفاء المسلمين مثل هذه المناظرات والمجادلات الدينية•

= بها "فلما سأله الامير عن القضاد الذى فيها قال : وهل يدراه أو يعلم غايته منها قولهم بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووضعهم الاقانيـم والجوهر ، وهو الثالث وهل الاقانيم فى انفسها قادرة عالمة ام لا ؟ وفـى اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وماجرى فى ولادته•وصلبه•• ووصف للامير ماحدث فى صلبه•

انظر : نفس المصدر السابق ص٣٥٣ـ٣٥٤

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص ٣٥٤ـ٣٥٥

(٢) نفس المصدر ص٣٥٥ـ٣٥٦

(٣) ابن المقفع : سير الاباء البطاركة م٢ جـ٢ ص ٩٢ـ٩٤ وص ٣١٠ـ٣١١
Le Synaxaire Arabe Jacobite, T.2, PP.310-311.

وهكذا كان لاهل الذمة فى مصر الاسلامية نشاطهم الفكرى الذى تميز بالاهتمام بالدراسات الدينية خاصة الى جانب بعض الدراسات الادبية الدنيوية . وكانت مراكز نشاطهم فى دور عبادتهم المختلفة التى اشتهرت بالمكتبات الفنية القيمة وضمن الكتب والمخطوطات فى مختلف المجالات . هذا الى جانب مشاركة البعض منهم فى الثقافة العربية وقيامهم بدور له اهميته فى الدراسات الاسلامية الدنيوية والادبية . واشتهر من بينهم كثير من المفكرين والكتاب والاطباء .

٤ـ دور الصحابة والتابعين والقضاة في التعريب وفي النهضة الفكرية

ظفرت مدينة الفسطاط بعدد كبير من الصحابة الذين وفد بعضهم مع الجيش العربي الفاتح الى مصر ، ومن هؤلاء الصحابة من كان يفتي زمن النبي (صلعم) وكانت له به صحبة ، ومن أبرز هؤلاء " عمرو بن العاص ، قائد الجيش العربي الاسلامي الذي فتح مصر وأميرها بعد الفتح ـ وقد استقر بمدينة الفسطاط بعد تأسيسها ".(١) ومنهم ايضا " ابو هريرة المتوفى سنة ٥٨هـ بالمدينة الذي صاحب الرسول (صلعم) ـ وقد زار مصر وصلى في مسجدها ووقف على قبلته ".(٢) وكان فقيها مجتهدا ، حافظا ..".(٣) وكان " عبد الله بن العباس بن المطلب ابن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، ابن عم الرسول ".(٤) صاحب فقه ".(٥)

وكان عبد الله بن عباس قد دخل مصر مرتين في اثناء خلافة عثمان بن عفان (٦)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٩٥ـ٩٦ ـ ابن حجر : الاصابة ج٣ ص٣ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص٩٩ ـ ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام ج٥ ص٩٢

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ص٣٢٩ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٢٨٢ ـ الذهبي : سير اعلام النبلاء ص٤١٧ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص١٠٨ ـ ابن حزم : الاحكام ج٥ ص٩٢

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٢٢٦ ـ الذهبي : سير اعلام النبلاء ج٢ ص٤١٧

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ج١ ص٣٤٢ ـ ابن حجر : الاصابة ج٤ ص٩٠ ـ ابن الاثير : أسد الغابة ج٣ ص١٩٢ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص١٠٩

(٥) السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص١١ ـ ابن حزم : الاحكام ج٥ ص٥٣

(٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص١١٥ـ١١٦ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص٩٠

(٢٤ـ٣٥ هـ) وكان واسع المعرفة متبحرا فى الفقه وتفسير القرآن ". (١) وقد كان مجلسه خاصا باصحاب الفقه ـ الذى كان يتناول هو مسائله ". (٢) وكان عبد الله ابن عباس أعلم الفقهاء بسياسة أبى بكر وعمر بقضائهما ولم يكن أحد أفقه فى رأى منه ولقد كان يجلس يوما ما يذاكر فيه الفقه ". (٣) وقد ألتف حوله المصريون للاستفادة من علمه ". (٤)

كان أعظم الصحابة شأنا وأعمقهم أثرا فى الحياة الفقهية بمدينة الفسطاط عقبة ابن عامر الجهنى وعبد الله بن عمرو بن العاص الذى أتبع اهل مصر فتاويه ". (٥)

أما عقبة بن عامر الجهنى " ابو عمرو " فقد تولى امارة مصر من قبل الخليفة الاموى معاوية بن أبى سفيان على صلاتها وخراجها ٤٤ هـ ". (٦) وقد اتصل بالمصريين وكان يفتيهم ". (٧) فقد كان عقبة " عالما بالفرائض والفقه ". (٨)

وقد صار بمصر " مفتى البلد وكان فقيه مصر من غير مدافع ". (٩) وكان عقبة يفتى فى المسائل الفقهية التى كان يتعرض لها فى مجالسه ". (١٠)

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ١١٥ـ١١٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٩٠

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٤٠ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٢ ص ٣٦٨

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٩٠

(٥) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٣٣

(٦) الكندى : الولاة ص ٣٦و٣٧ ـ ابن حجر : الاصابة جـ٢ ص ٤٨٢ ـ ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٤٥

(٧) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٢٥٩

(٨) الكندى : الولاة ص ٣٧ ـ ابن حجر : الاصابة جـ٢ ص ٤٨٢ .

(٩) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٢٩٤ ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٤٠ المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٠١

(١٠) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٢٨٧ـ٢٩٣

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يفتى فى الصحابة "(١).
وتذكر الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم أمر عمرو بن العاص وعقبة ابن عامر الجهنى ان يحكما بين خصمين وقال لهما : ان اصبتما فلكما عشر حسنات وان اخطأتما فلكما حسنة واحدة ". (٢) وفى صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم اذن النبى (صلعم) لعبد الله بالكتابة عنه فى عامة احواله : " قال ابن عباس : انه كان يسأل رسول الله (صلعم) فى مسائل الحلال والحرام ودون ذلك فى صحيفته الصادقة ". (٣)

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص هو الفقيه الذى اتبع اهل مصر اكثر فتاويه يقول المقريزى " ان التابعين من اهل مصر كانوا يتبعون فى الاكثر فتاوى عبدالله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ". وذلك لان كل طبقة من التابعين فى البلاد انما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة . فكانوا لايتعدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير ماكان فى بلادهم من الصحابة رضى الله عنهم ". (٤)

قال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم (٥) المتوفى سنة ١٨٢هـ أما فى مصر فقد كان هذا الصحابى (عبدالله بن عمرو بن العاص) استاذها الاول وصاحب الاثر الاقوى بين تابعيها . وبفتاويه تخرج أغلب فقهائها). (٦)

---

(١) الذهبى : سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٥٣ ـ الشيرازى : طبقات الفقهاء ص١٣
(٢) الامدى : الاحكام فى اصول الاحكام جـ٤ ص٢٣٦ـ٢٣٧
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٧ ص٣٧٣ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص٣٦ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص١٧١ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٩٢ ـ الاتقان جـ١ ص٧٠ ـ محمد يوسف موسى : تاريخ الفقه الاسلامى جـ١ ص١٨٦
(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٣٣
(٥) هو عبدالرحمن بن زيد بن اسلم المتوفى سنة ١٨٢هـ المفسر المدنى صاحب كتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب التفسير (ابن النديم / الفهرست ص ٢٢٥) والاستاذ المباشر لابن وهب .
ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٦ ص١٧٨ .
(٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٣٣

كان امير المؤمنين " الخليفة عمر بن الخطاب " يحرص على ان يعلم المصريين اصول الدين الاسلامى . لذلك فقد ارسل الى اهلها " عبدالرحمن بن ملجم المرادى الخارجى من قدماء التابعين والمتوفى سنة ٤٠ هـ وكان من قراء القرآن وأهل الفقه وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص — امير مصر — يأمره ان يقرب دار ابن ملجم من المسجد . لكى يعلم الناس القرآن والفقه . ففعل عمرو .. ". (١)

ولا شك ان مصر " الفسطاط " كانت فى أشد الحاجة الى التشريع العلمى لان استنباط الحكم من مصادره الاصلية وتطبيقه يكون اقوى أثرا فى توجيه الحياة الفقهية وتنظيمها — لذلك اهتمت الدولة الاسلامية الناشئة بهذا الشأن — واتجهت الى تعيين القضاه والمفتيين فى الامصار الاسلامية — هذا الى جانب وجود افراد غير معينين من قبل الدولة استقلوا بالفتوى بما كان لهم من قدرات علمية توفرت على دراسة النص القرآنى واستنباط الاحكام منه بالرجوع الى مصادرها الاصلية وكان من هؤلاء كثيرون من استقروا بالفسطاط وصار لهم شأوا بعيدا فى ميدان الاجتهاد الفقهى " .. وكان الناس يستفتونهم فيفتون لايبتغون من وراء ذلك غير ابلاغ الامانة وماتوصلت اليه قرائحهم من احكام .

ومن أبرز الفقهاء الذين نأوا بأنفسهم عن وظائف الدولة واستقروا بين الاهالى يفتونهم " ابو الخير مرثد بن عبدالله اليزنى الحميرى التابعى المصرى المتوفى سنة ٩٠ هـ الذى كان مفتى اهل مصر فى زمانه ". (٢) فقد تتلمذ على ائمة الفقه فى مصر والذين كانوا من أبرز فقهائها مثل عقبة بن عامر الجهنى وعبدالله بن عمرو بن العاص وكان يلازم عقبة ولايفارقه . "(٣) وقد بلغ من عظم شأنه فى مجال الفقه وتوافره

---

(١) السمعانى : الانساب ص ٢٣٥ — ابن دقماق : الانتصار جـ٤ ص ٦

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٦٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٨٢ — المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٥٤ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١١٨ — السيد احمد خليل : الليث بن سعد ص ٣٧

(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٦٣ — ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٨٢

على دراسة النص القرآنى " ان عبد العزيز بن مروان والى مصر فى تلك الفترة وأميرها الاموى ـ كان يحضر مجلسه ليسمع منه ، فقد كان رجل صدق ـ وكان عبد العزيز بن مروان يجلسه للفتيا ". (١)

ومن هؤلاء الفقهاء ايضا " بكر بن سواده الجذامى المصرى الفقيه ، الذى كان مفتى اهل مصر ، قال حيان انه كان من ثقات مصر وأفضل قرائهم وقد توفى سنة ١٢٨ هـ). (٢)

وفى مجال القضاء كانت الدولة تعين القضاة وتخول لهم حق الافتاء فيما يعرض لهم من مشاكل أو نزاعات فقد كانوا يمثلون الفقه الاسلامى فى مراحله الاولى ، وربما قد طبقوه بهذه الصور فى مصر ـ ولاشك انه قد امتازت منهم جماعة بالاجتهاد والمشاركة العميقة فى تدبير شئون الحياة العملية وتنظيما على أسس مدروسة ومن هؤلاء القضاه " سليم بن عتر التجيبى ـ قاضى مصر وقاصها وناسكها ". (٣) وقد ولى قضاء مصر من قبل معاوية بن ابى سفيان سنة أربعين وكان قبل القضاء قاصا فجمعا له وصار ذلك له الى سنة ستين. ". (٤)

وكان سليم بن عتر اول قاض بمصر سجل سجلا بقضائه " فقد ذكر ابن ابى ميسره ان معاوية بن ابى سفيان كتب الى القاضى سليم بن عتر يأمره بالنظر فى الجراح وان يرفع ذلك الى صاحب الديوان وكان سليم اول قاض نظر فى الجراح وحكم فيها ـ قال ابو ميسره : فكان الرجل اذا اصيب فجرح آتى الى القاضى وأحضر بينته على الذى جرحه فيكتب القاضى بذلك الجرح قصته على عامله الجارح ويرفعها الى صاحب الديوان فاذا حضر العطاء اقتص من اعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح ،

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٣ ص٣٠٣ ـ ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ١ ص٨٢ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١١٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٦٢

(٣) الكندى : الولاة وكتاب القضاة ص٣٠٣ ـ ٣٠٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٦١

(٤) الكندى : المرجع السابق ص٣٠٣ ـ ٣٠٦

وينجم عن ذلك فى ثلاث سنين ،فكان الامرعلى ذلك ".[1] تتبين من النص السابق ان هذا القاضى قد عنى بأحوال الشهود ـ وتدوين بيانات المجنى عليه لتكون هناك بينه عند الحكم للقصاص ويوضح هذا ماوصل اليه نظام القضاء من رقى فى الفترة المبكرة من تاريخ مدينة الفسطاط.. ويبدو انه كان هناك من يقوم بمساعدة القاضى فى تسجيل احكامه بسرعة الحكم على المجروحين . وقد فرضت لهولاء المساعدين رواتب معينة .. فيقول : زيد بن بشير مانصه : " ادركت رجلا فى بيت المال اذا شج الرجل أو جرح بعث به القاضى الى ذلك الرجل فيقول : هذه موضحة وهذه مقتلة وهذه كذا وهذه ..كذا .. فيكتب القاضى بدية ذلك الجرح الى صاحب الخراج ، قال زيد ، وكان على ذلك الرجل ارزاق جارية .. ".[2]

وكان سليم بن عتر يسجل أقضيته عندما تعرض عليه مسألة يقضى فيها ويدون احوال الشهود فى القضية . يروى عبد الرحمن بن حجيرة : انه اختصم الى سليم ابن عتر فى ميراث فقضى بين الورثة . ثم تناكر فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . قال : فكان اول القضاه بمصر سجل سجلا بقضائه).[3]

وكان قيس بن العاص السهمى اول قاض بها فى الاسلام وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتوليته اول سنة ثلاث وعشرين ".[4] وكان قد شهد فتح مصر مع ابيه وكان شريفا سريا . واول من بنى بمصر دارا للضيافة ".[5]

وكان عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى فقيها من أفقه الناس ".[6] وكان قد ولى القضاء بمصر من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩ هـ ومات بمصر وهو قاض سنة ٨٣ هـ فوليها اثنتى عشره سنة ".[7]

---

(١) الكندى : الولاة وكتاب القضاة ص٣٠٩

(٢) الكندى : المرجع السابق ص٣٠٩

(٣) الكندى : المرجع السابق ص٣١٠

(٤) الكندى : الولاة وكتاب القضاه ص٣٠٠ : ٣٠١ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٢٥.

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٥

(٦) الكندى : الولاه وكتاب القضاه ص٣١٤

(٧) الكندى : المرجع السابق ص٣١٤ ـ ٣٢٠

وقد كان ابن حجيرة قاضى مصر وقاضيها وامين بيت المال فيها ". (١)

وقد كان ابن حجيرة تلميذا لابى ذر ، وأبى هريرة وعقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو وغيرهم " (٢) وهم من أئمة الفقه والفتوى " ويبدو ان ابن حجيرة قد بلغ قدرا عظيما من الاجتهاد والتفقه، فقد اجازه ابن عباس امام اهل المدينة وخبره عن نفسه فروى عبدالله بن المغيرة ان رجلا من اهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة ،فقال: من أى الاجناد انت ـ قال : من أهل مصر، قال : تسألنى وفيكم ابن حجيرة " (٣) وقد كان ابن حجيرة يحكم فى كثير من الاقضية التى كان يتعرض لها بتكافؤ الشهود وبكثرة الرجال عند احد الطرفين او بشهادة العدول " قال ابن لهيعة : قضى ابن حجيرة فى الشهود اذا تكافأوا ان يسهم بينهم فان كان لاحد المدعين أكثر شهودا برجلين او اكثر كان الحق معه واذا كانت السلعة بيد أحدهما فجاء بشاهد عدل كانت له وان جاء الاخر بأكثر من ذلك .. " (٤)

وبذلك كان ابن حجيرة يحكم بالعدل وقد أثر عنه انه قال : " .. ان القاضى اذا قضى بالهوى احتجب الله عز وجل منه واستتر. " (٥) ويبدو ان مسألة تدوين القضايا كانت قد شاعت فى الفترة المبكرة فتذكر الروايات انه لما سأل عبدالرحمن ابن حجيرة عمن ولى جدة القضاء : قال لا ادرى غير انى رأيت له قضية عند آل قيس ابن زيد الخولانى تاريخها شهر رمضان سنة سبعين ولا أعلم انى رأيت اقدم منها ". (٦)

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص٢٣٥ ـ الكندى : الولاة والقضاة ص٣٠٧ ـ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ص٩٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص٥١

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٣ ص٢٧١، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٦ ص١٦٠.

(٣) الكندى : الولاة وكتاب القضاة ص٣١٦

(٤) الكندى / المرجع السابق ص٣١٨

(٥) الكندى : السابق ص٣١٩

(٦) الكندى / السابق ص٣١٥

وقد توالى على مصر كثير من القضاة الذين كان لهم شأن عظيم فى اصلاح الدواوين مثل " توبة بن نمر الحضرمى الذى ولى قضاء مصر سنة ١١٥ هـ من قبل والى مصر الوليد بن رفاعة والذى ظل قاضيا عليها الى حوالى سنة ١٢٠هـ" (١) وكان توبة اول قاض بمصر وضع يده على الاحباس زمن هشام بن عبد الملك وقد كانت الاحباس فى أيدى اهلها وفى أيدى أوصيائهم فلما كان توبة قال : ما أرى موجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى ان أضع يدى عليها حفظا لها من التواء والتوارثه فلم يمت توبة حتى صارت الاحباس ديوانا عظيما " (٢) ـ لم يكن هناك أعدل من خير بن نعيم ولا أفقه منه ـ كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود . ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم " (٣) وكان يخصص وقتا للحكم بين أهل الذمة . قال يحيى بن عثمان بن صالح ان خير بن نعيم كان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى ". (٤)

وكان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصوم من الكلام " (٥) وكان خير بن نعيم قد ولى على القضاء والقصص بمصر من قبل الامير حنظلة بن صفوان الكلبى سنة ١٢٠ هـ : سنة ١٢٨هـ) (٦) .. هكذا كان لقضاة مصر دور كبير فى تدبير شئون الحياة العملية والدينية وتنظيمها على أسس مدروسة وقواعد محكمة " ولم يكن القاضى ليرضى بان يتدخل فى أحكامه احد ، اذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والاجلال . كما كان لصاحبها نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه ". (٧)

---

(١) الكندى : الولاة وكتاب القضاة ص٣٤٦ـ٣٤٧

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٥١ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٩٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٥١

(٥) المرجع السابق ص ٣٥١

(٦) الكندى / الولاة ص٣٤٨ـ٣٥٢

(٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٩٢.

كما ان الاختصاص النوعى Ration Materide للقاضى كان غير محدود أكان فى الامور المدنية أو الجنائية ". (١) وكان القاضى يستمد احكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامى وهى : " القرآن - السنة - الاجماع - الاجتهاد أو القياس ". (٢)

كانت أعظم محاولة لخدمة التشريع الاسلامى هى التى قام بها " امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (المتوفى ١٠١هـ) فقد أمر بجمع السنة وتدوينها ونشرها ". (٣) وكان الدافع الى ذلك ظهور الكذب فى الحديث ، وتأتى اهمية السنة (الحديث) من انها مكملة للتشريع ببياناتها للكتاب ". (٤) وكان امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حريصا على بعث علماء السنة فى الامصار الاسلامية ". فأرسل الى مصر نافع بن أبى نعيم سنة ١١٧ هـ ليعلم أهلها السنن ". (٥) وهو فقيه أهل المدينة ومولى عبد الله بن عمر بن الخطاب وأصله من أصبهان ". (٦)

وقد بلغ نافع بمصر شأنا عظيما فكان استاذا لكثير من أعلام النهضة التشريعية بمدينة الفسطاط " فمن تلاميذه بمصر بكير ابن عبد الله بن الاشج ويزيد بن أبى حبيب وعبيد الله بن ابى جعفر والليث بن سعد ". (٧)

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٣ — وما ذكرته من المراجع
(٢) سيدة كاشف / المرجع السابق ص٩٣
(٣) ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص٣٣
(٤) محمد الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامى ص١٤٠
(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جا ص٩٩ — تاريخ الاسلام جه ص١٠ ، ١١
ابن حجر : تهذيب التهذيب جا ص ٤١٢ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص١٥٠ — السيوطى : حسن المحاضرة جا ص٢٩٧
(٦) ابن النديم : الفهرست ص٤٨
(٧) الذهبى : تاريخ الاسلام جه ص١٠ ، ١١ — تذكرة الحفاظ جا ص٩٤
ابن حجر : تهذيب التهذيب جه ١ ص٤١٢

٥ ـ دور الموالي في النهضة العلمية

ارتفع شأن الموالي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وصارت لهم مكانة بارزة في عالم التاريخ التشريعي لمدينة الفسطاط ـ وعلى رأس المائة الثانية من تاريخ الهجرة صار العلم في جميع الامصار الى كثير من الموالي وخاصة الفقه، وذلك بعد انقراض عهد الصحابة والتابعين" ... قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : لما مات العبادلة ، عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمرو ابن العاص ، صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي ..". (١) ويعلل الاستاذ احمد امين ظاهرة نبوغ الموالي في العلم فيقول : انه بتوالي الفتوحات الاسلامية ، توالي دخول أمم كثيرة في الملة الاسلامية ـ وصار هناك عنصرين في الدولة الاسلامية ـ العنصر العربي والعنصر الاعجمي ـ وكان اكثر حملة العلم في عصر الصحابة العرب ـ لان اكثر الصحابة عرب ـ وقد استكثر الصحابة من الموالي يستخدمونهم في بيوتهم وفي اعمالهم ، فاذا كان الصحابي عالما فمواليه اعوانه وتلاميذه في العلم ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا بحكم مخالطتهم لسادتهم مثل نافع مولى عبد الله بن عمر ، الذي أخذ عنه اكثر علمه ـ ولما أخذ الصحابة يحلون في الامصار المفتوحة ، اشترك العرب والعجم أيضا في تلقي العلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم، كان بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالي أو ابناء الموالي ". (٢)

ويعلل ابن خلدون ظاهرة اشتغال الموالي بالعلم ونبوغهم بانشغال العرب بالرئاسة والسياسة الى أوائل الدولة العباسية وبالتالي انصرافهم عن العلم ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصناعات وأهل الرئاسة يستنكفون من الصناعات ". (٣)

---

(١) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين جـ١ ص ٢٥ ـ الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٢١

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص١٨٣ ـ ١٥٠

(٣) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل الخامس والثلاثون ص٥٤٤ ـ ٥٤٥

ولعل ظاهرة نبوغ الموالى فى تلك الفترة مدينة لما أتاحه امير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز لهم من فرص لاستظهار مواهبهم وعلومهم ، فكان عمر بن عبد العزيز القاعدة الشاذه من خلفاء بنى امية الذين تعصبوا للعنصر العربى فكان يساوى بين رعاياه من العرب والموالى . ويعزى اليه الفضل فى رد مظالم بنى امية (قال قائل : الخلفاء ثلاثة، ابو بكر الصديق يوم الرده ، وعمر ابن عبد العزيز فى رده مظالم بنى امية ، والمتوكل فى احياء السنة ". (١)

ومن أبرز الموالى العلماء الذين رفع امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من شأنهم بالفسطاط (يزيد ابن ابى حبيب الازدي ، حبيب بن قيس ، وقيل سويد مولى بنى عامر بن لوى ، وكنيته ابو رجاء المصرى ، وهو من أصل نوبى من دنقله ، وقد ولد بمصر سنة ٥٣ هـ) (٢) .. كان يزيد حليما عاقلا " (٣) ويعد من الشخصيات العظيمة فى تاريخ مصر العلمى ... فقد كان له أعظم الاثر فى أنه لون مدرسة مصر الدينية بلون جديد هو التشريع فهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل فى الحلال والحرام ومسائل الفقه. (٤) وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن " (٥) هذا يعنى انه كان المؤسس الاول للحركة الفقهية التى امتازت بها مصر والتى مهدت الطريق لمن جاء بعده من الفقهاء . ويدل هذا ايضا على انه قد جهد فى ان يلفت الناس يومئذ الى دراسة منظمة للفقه الاسلامى فى مختلف فروعه وتباين اشكاله ، ذلك لان التعبير بالحلال والحرام يلخص هذا ويدل عليه ". (٦) - اما الترغيب فى الملاحم والفتن فهى

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٧٥ - السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٠ - سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٦٢

(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ١٢٩ - تاريخ الاسلام جـ٥ ص ١٨٤ - العبر فى خبر من غبر جـ١ ص ١٦٨ - ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ١١ ص٣١٨ - السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٤٥ - طبقات الحفاظ ص٥٢ - الزركلى / الاعلام جـ٩ ص ٢٣٦

(٣) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٥ ص ١٨٥

(٤) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص١٣ - الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص١٢٩ - تاريخ الاسلام جـ٥ ص ١٨٤ - العبر جـ١ ص ١٦٨ - المقريزى : الخطط جـ٤ ص ١٤٣ - الزركلى : الاعلام جـ٩ ص ٢٣٦ - ابو المحاسن / النجوم جـ١ ص ٣٠٨

القصص بما تحويه من روايات وقصص دينية وخلقية ـ فقد كانت رواية القصص تحتل مكانا بارزا في مجال العلوم الدينية ـ وكان كثير من القضاة يجمعون بين القضاء والقصص. (١)

ويبدو ان يزيد بن ابى حبيب كان له أثر في احتواء هذا اللون " القصص" بما أسبغه عليه من مسائل الفقه لان القصص كانت قد جذبت اليها انظار العامة بما خشى عليه من انصياعهم اليها وخاصة انها تحوى الكثير من الاساطير فكانت تدخل عليها الشوائب بمرور الوقت مما أدت الى مقت الكثير لهذا اللون لانه كان يحيد عن غرضه الاول وهو " الوعظ والارشاد " .. وقد بلغ من سمو منزلة يزيد العلمية ان صار " مفتى أهل البلد " . وكان احد الثلاثة الذين جعل الخليفة عمر بن عبد العزيز اليهم الفتيا بمصر ". (٢) وكانت تلك الفتيا لرجلان من الموالى ورجل من العرب . فأما العربى فهو جعفر بن ربيعة والوليان فيزيد بن ابى حبيب وعبد الله ابن ابى جعفر فكأن العرب انكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبي اذا كانت الموالى تسمو بانفسها صعدا وانتم لاتسمون ". (٣)

= (٥) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٥ ص١٨٥ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص١٤٣

(٦) السيد احمد خليل : الليث بن سعد ص٥٨ ـ ٥٩

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص٢٣١ـ٢٤٧ ـ الكندى : الولاه وكتاب القضاه ص٣٠٣ ـ ٣١٤ ـ ٣٣١ ـ ٣٤٢ ـ ٣٤٨ ـ ٣٦٨ ـ ٣٩٤ المقريزى : الخطط جـ٤ ص١٧

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٥ ص١٨٥ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص١٤٣ ابو المحاسن / النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣٨ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٩٩

(٣) المقريزى : الخطط جـ٤ ص١٤٣ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣٨ .

وكانت البيعة اذا جاءت الخليفة ، كان اول من يبايع عبيد الله ثم يزيد بن ابى حبيب ثم الناس .. "(١) وقد كان ليزيد شأن عظيم فى مجال الافتاء فكان يستفتيه أبرز شخصيات مصر " قال سعيد بن عفير ان زياد بين عبد العزيز بن مروان أرسل الى يزيد بن ابى حبيب قائلا : اننى لا سألك عن شىء من العلم ، فارسل اليه : بل انت فاتنى فان مجيئك الى زين لك ، ومجيء اليك شين عليك "(٢)

وكان ليزيد بن ابى حبيب الفضل فى تنشأة جيل من العلماء المصريين الذين صار لهم أثر كبير فى النهضة التشريعية وفى نمو المدرسة الدينية بمدينة الفسطاط ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ـ الذى كان يقول : يزيد عالمنا وسيدنا ". (٣)

أما المولى الاخر الذى كان له أثر هام فى الحياة الفقهية فى مدينة الفسطاط فهو (عبيدالله بن ابى جعفر المصرى ـ أبو بكر الفقيه (٦٠ ـ ١٣٦ هـ) قال ابن سعد عنه : هو ثقه ، فقيه زمانه ". (٤) سئل تلميذه عمرو بن الحارث الانصارى فقيل له أيهما تفضل يزيد بن أبى حبيب ، أو عبيدالله بن أبى جعفر؟

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٥ ص ١٨٥ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص ١٤٣.

(٢) الذهبى : المرجع السابق جـ٥ ص ١٨٥.

(٣) الذهبى / السابق جـ٥ ص ١٨٥ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٠٨ ـ السيوطى / حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٩٩

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٧ ص ٥١٤ ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢٩٩ ـ ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٧ ص ٥ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٩٩.

قال عمرو : لو جعلا فى ميزان مارجح هذا على هذا ..." (١) وكان عبدالله من مشهورى شيوخ المصريين• اهل العلم والخبرة والذكاء والفطنة والتفتيش والرحلة والطلب ." (٢) وكان عمرو بن الحارث الانصارى المتوفى سنة ١٤٨ هـ من أبرع تلاميذ يزيد بن ابى حبيب وعبيدالله بن ابى جعفر فقد تتلمذ عليهما • وروىعنهما الكثير". (٣) لقد كان محدثا اشتهر بقوة الحفظ وكان من مجتهدى فقهاء مصر ". (٤) قال ابن وهب " لو بقى لنا عمرو بن الحارث ما احتجنا الى مالك) (٥) وكان الليث بن سعد وابن وهب من أبرز تلاميذه كما يعد الاخير روايته ". (٦)

كان لهذه الشخصيات العلمية أثر هام فى نمو الحياة العقلية فى تلك الفترة فقد مهد هؤلاء العلماء السبيل بعطهم التشريعى وفهمهم المستقل الى تكوين بعض الشخصيات العلميةمثل عبدالله بن لهيعة ـ والليث بن سعد • اللذين عاصرا النهضة التشريعية فى الاسلام والتى اقترنت بتقييد العلم وتدوينه فى صحائف مرتبة بعد ان كان مايزال فى طور الحفظ والرواية الشفهية • وتذكر بعض المصادر ان ابن لهيعة والليث بن سعد قد شاركا فى حركة تدوين العلوم الاسلامية•

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٥ ص ١٨٥

(٢) عمربن محمد بن يوسف الكندى : فضائل مصر ص ٢٠

(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ١٧٣ ـ ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٨ ص ١٥ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٠٠

(٤) الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٥٧ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٠٠

(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ١٧٣

(٦) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ١٧٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٠٠ ـ الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٥٧

" قال الذهبي : في سنة ثلاث واربعين ومائة شرع علماء الاسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير • فصنف ابن جريج (المتوفى سنة ١٥٥هـ) التصانيف بمكة وصنف سعيد بن ابي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ وحماد بن سلمه وغيرهما بالبصرة• وصنف ابو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة• وصنف الاوزاعي بالشام وصنف معمر باليمن وصنف سفيان الثورة كتاب الجامع ثم من بعد يسير صنف هشيم وصنف الليث بن سعد • وعبدالله لهيعة ثم ابن المبارك والقاضي ابو يوسف يعقوب وابن وهب وكثر تبويب العلم وتدوينه وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة ". (١)

وكان ابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤هـ) اول علماء الفسطاط مشاركة في حركة التدوين "(٢) فقد كان من الجامعين للعلم والرحالين فيه وكان يدون في الخريطة التي يمنقه مايسمعه او يراه ". (٣) وكان عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها ". (٤) فقد ولى القضاء بمصر في مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل امير المؤمنين ابي جعفر وهو اول قاض ولى مصر من قبل الخليفة ". (٥) وقد صرف عن القضاء في سنة أربع وستين ومائة ". (٦) وكان ابن لهيعة اول قاض حضر في طلب هلال رمضان بالجيزة •• ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان ابن ابي الليث فطلبه في اصل المقطم ". (٧)

---

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر ص٢١٢-٢١٣ ـ ابوالمحاسن : النجوم الزاهره جا ص ٣٥١ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٦١ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون جا ص٨•

(٢) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج٣ ص٤ ١٥ ـ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي جا ص ٢٦٩

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ جا ص ٢٢٨ ـ ميزان الاعتدال ج٢ ص٦٧ ـ تهذيب التهذيب ج٥ ص١٧٣ ـ العبر جا ص ٢٦٤ ـ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٢ ص٧٧ ـ السيوطي : حسن المحاضرة جا ص١٤٥

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص٧٧ ـ السيوطي : حسن المحاضرة جا ص ١٤٥•

(٥) الكندي : الولاه وكتاب القضاه ص٣٦٨

(٦) الكندي / السابق ص٣٧٠

(٧) الكندي / السابق ص٣٧٠

كان رائد النهضة التشريعية بالفسطاط الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي (٩٤ هـ / ١٧٥ هـ) العالم الذى اختار نفسه " الا ان اصحابه لم يدنوا مذهبه ". (١)

وكان الليث امام اهل مصر فى الفقه والحديث معا ". (٢) وكان من سادات زمانه فقها وعلما وحفظا وفضلا وكرما ". (٣) وقد تناهى اليه علم التابعين. فقد ادرك نيفا وخمسين تابعيا ". (٤)

وكان كثيرا ما يرحل الى البلاد الاسلامية للاستزادة من العلم وقد سمع ببلاد الحجاز والعراق كثيرا من الاحاديث النبوية ونقلها الى مصر ". (٥) قال الشافعى " العلم يدور على ثلاثة مالك والليث وسفيان بن عيينة ". (٦) فقد كان لليث مكانة بارزة فى العلوم العربية المختلفة فقد كان غزير المادة متعدد الجوانب ". قال عنه يحيى بن بكير : ما رأيت ممن رأيت مثل الليث بن سعد وما رأيت اكمل منه. كان فقيه البدن عربى اللسان يحسن القرآن والنحو والشعر والحديث وحسن المذاكرة ". (٧)

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٨١ ـ الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٢٨ ـ ابن حجر : الرحمة الغيثية ص٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٢٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص٢٨٠ ـ السمعانى : الانساب ص٥٣٩

(٣) ابن حجر : الرحمة الغيثية ص٦

(٤) ابن حجر : المرجع السابق ص٣و٩ ـ ابو نعيم : حلية الاولياء جـ٧ص٣٢٤ ـ الشيرازى : طبقات الفقهاء ص٥٧

(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٣٨

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٥

(٧) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ابن حجر : الرحمة الغيثية ص٦

٦ـ أثر التعريب في ظهور الفكر الصوفي ودوره في الحياتين السياسية والاجتماعية في مصر

حركة الزهد في القرنين الاول والثاني للهجرة :

دخلت مصر ميدان التصوف في فترة مبكرة ، وقد قامت حركة التصوف في اول الامر على أيدى الزهاد والعباد واهل الورع والتقوى وكان اول هؤلاء الصلحاء والزهاد على حد قول السيوطي هو " سليم بن عتر بن حجيره التجيبي المصرى ـ أبو سلمه قاضى مصر وقاصها وناسكها من الطبقة الاولى من التابعين شهد خطبة عمر بالجابية وكان يسمى بالناسك لكثرة فضله وشدة عبادته وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات. (١) وهو أحد قضاة مصر ولى قضاء مصر سنتاربعين من قبل معاوية بن ابى سفيان ـ وكان قبل القضاء قاصا فجمعا له ، ويعد اول من قص بمصر وقد أقام قاضيا عشرين سنة ، وتوفى بدمياط سنة خمس وسبعين ". (٢) وقد كان ينحو في حياته منحى الصوفية في الانقطاع للعبادة والانـزواء بعيدا عن الناس . يقول الكندى: " ... عن الحسن بن ثوبان قال : ركب سليم بن عتر البحر فلما قفل نزل وأقام سبعة ايام لايدرى اين هو ثم جاءهم فقالوا له : أين كنت ؟ فقال : انى ذهبت الى هذا الغار فأقمت هذه السبعة شكرا لله عز وجل ". (٣)

تطورت حياة الزهد والعبادة في مصر بعد ذلك واسهم كبار الزهاد والمتنسكين المسلمين في اثرائها . وتعد السيدة نفيسة ممن ساهم من آل البيت في حركة الزهد في مصر . وهى ابنة الامير حسن بن زيد بن الحسن بن على بن ابى طالب (رضى الله عنه ". (٤) ودخلت مصر مع زوجها المؤتمن اسحق بن جعفر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة " در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة " جـ١ ص ٢١٨

(٢) الكندى : الولاه ص٣٠٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة "در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة جـ١ ص ٢١٨ ".

(٣) الكندى : الولاه ص٣٠٣

(٤) المقريزى : الخطط جـ٤ ص ٣١٢ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨ ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٥

الصادق فى رمضان سنة ١٩٣ هـ فأقامت بها . (١) وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير، وكانت ذات مال فكانت تحسن الى الزمنى والمرضى وعموم الناس". (٢) وكان يفد على السيدة نفيسة فى مصر ائمة الفقه الاسلامى وكبار العلماء فقد زارها الامام الشافعى وبصحبته عبد الله بن عبد الحكم واستقبلتهم من وراء حجابه . ولما توفى الامام الشافعى سنة ٢٠٤ هـ ادخلت جنازته اليها وصلت عليه فى دارها وكانت موضع مشهدها الحالى وقالت رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء". (٣) وقد احبها أهل مصر ويعتقدون فى كراماتها فكانوا اذا نزل بهم أمر جاءوا اليها يسألونها الدعاء. وقد ادى ازدحام الناس عند بابها الى ان فكر زوجها فى الارتحال معها الى الحجاز ولكنها قالت له : لا استطيع ذلك وانى رأيت رسول الله (صلعم) فى المنام وقال لى لاترحلى من مصر ، فان الله تبارك وتعالى متوفيك بها ". (٤) وقد أقامت السيدة نفيسة بمصر الى ان توفيت بها . ولما أحست بدنو اجلها كتبت الى زوجها اسحق المؤتمن بالحجاز كتابا وحفرت قبرها بيدها فى بيتها . وكانت تنزل فيه وتصلى كثيرا وقرأت فيه مائة وتسعين ختمة وكانت اذا عجزت عن القيام لضعفها تصلى قاعدة وتسبح وتقرأ وكثيرا وتبكى كثيرا ولما حانت الساعة وكان ذلك لاول جمعة من شهر رمضان قرأت سورة الانعام . . ولما وصلت الى قوله تعالى : " لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) (٥) غشى عليها

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٤ ص٣١٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨

(٢) السيوطى : المرجع السابق جـ١ ص٢٠٨

(٣) المقريزى : الخطط جـ٤ ص٣٠٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨ ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩

(٤) المقريزى : الخطط جـ٤ ص٣١٣ ـ ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩

(٥) سورة الانعام ـ الاية ١٢٧

فضمتها ابنة اخيها الى صدرها فشهدت شهادة الحق رحمة الله عليها . (١)،
وكانت وفاتها بمصر سنة ٢٠٨هـ (٢) .. ودفنت السيدة نفيسة بدارها بدرب السباع
بين القطائع والعسكر التى عرفت فيما بعد بكوم الجارحى.. "(٣) وكان قبر السيدة
نفيسة ومايزال مزارا يتبرك به ، ولاهل مصر عنها اعتقاد عظيم ". (٤)

ظهور الصوفية بمصر :

لم تلبث حركة الزهد بالفسطاط ان تبلورت الى حركة تصوف اصبح لها ثقل اجتماعى خاص بمصر ،فقد جاء فى أقوال متواتره فى كتاب الولاه والقضاه للكندى انه فى ولاية السرى بن الحكم (سنة ٢٠٠ هـ) وفى اثناء الصراع السياسى بين السرى بن الحكم والجروى صارت لطائفة الصوفية تأثير قوى فى مجرى الاحداث السياسية فى مصر وأصبح الصوفية يمثلون هيئة اجتماعية لها ثقلها وتأثيرها فى مجرى الاحداث السياسية فى تلك الفترة (.. فقد ظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف فيما زعموا ويعارضون السلطان فى أمره فترأس عليهم رجل منهم يقال له ابو عبد الرحمن الصوفى .. "(٥) وكان هناك نزاع بين ابو عبد الرحمن الصوفى فوجد نفسه من ذلك وخرج الى الاندلسيين وألف بينهم وبين لخم ورجال اهل الاندلس ان يدركوا ابن هلال ـ وكانت لخم احد من ناحية الاسكندرية ـ فساروا جميعا الى عمرو بن هلال وهم زهاء عشرة الاف من لخم ومن الاندلسيين ومن غوى اليهم فحضروه فى قصره. "(٦) وانتهت الاحداث بمقتل ابن هلال واهله فى ذى القعدة سنة مائتين.. وولاية ابا عبد الرحمن

---

(١) السخاوى : تحفة الاحباب ص٩

(٢) المقريزى : الخطط جـ٤ ص٣١٤ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨ ـ السخاوى ـ تحفة الاحباب ص١٣ ـ ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩

(٣) البلوى : سيرة بن طولون ص٩٨ ـ المقريزى : الخطط جـ٤ ص٣١٤ ـ السيوطى / حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص٩و١٠ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٣٩

(٥) الكندى : الولاه وكتاب القضاه ص١٦٢ ـ ١٦٣ ، المقريزى الخطط جـ١ ص١٧٣ ـ متز / الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص١٦،١٧

(٦) الكندى :الولاه ص١٦٢ـ١٦٣،المقريزى : الخطط جـ١ ص١٧٣

الصوفى ـ فبلغ من الفساد بالاسكندرية ما لا يسمح بمثله الى ان عزله الاندلسيين انفسهم عنها ».(١) وبمرور الزمن صار للصوفية أثر كبير فى سير الاحداث السياسية وقد تعدى ذلك الى التدخل فى اعمال بعض القضاء ".. ففى ولاية القاضى عيسى ابن المنكدر لقضاء مصر من قبل عبد الله بن طاهر سنة ٢١٢هـ كانت له طائفة قد احاطت به من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلما ولى القضاء كانت تأتيه وهو فى مجلس حكمه فتقول : أيها القاضى ذهب الاسلام فعل كيت وكيت . فيترك مجلس الحكم ويمضى معهم فكلمه اخوانه مثل عبد الله ابن عبد الحكم وغيره فقال : لابد من القيام لله عز وجل بحقوقه ". (٢) هكذا تعدت آراء الصوفية فى تلك الفترة حياة الزهد والاعتكاف الى التدخل الفعلى فى شئون الجماعة تدخلا شديد الوطأة للامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى كان مبدأهم..

وقد أخذ هؤلاء الصوفية يتدخلون فى شئون المجتمع السياسية الى ان جعلوا القاضى ابن المنكدر يكتب كتابا الى المأمون بانه لايرضى بولاية ابا اسحاق بن الرشيد (المعتصم) مصر لانهم كانوا يخافونه ويخشون ان يشد على يد اهل العدوان ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب المأمون فاحضر ابا اسحاق فقال : ما الذى فعلت فى أهل مصر. فقال : مافعلت فيهم شيئا . فقال : هذا كتاب قاضيهم يزعم انه لا يرضى بولايتك عليهم . فقال : ما أسأت الى واحد منهم ولافعلن بابن المنكدر وافعلن . ".(٣) وانتهى الامر بان عزله ابا اسحاق عنها سنة ٢١٤هـ .(٤)

ذو النون المصرى الاخميمى ووضع أسس الحياة الصوفية :

لم تلبث الحياة الصوفية ان تطورت فى مصر بمدينة الفسطاط متبلورة فى حركة تصوف اصبح لها نظامها وتعاليمها وتقاليدها الخاصة بها ومعالمها الواضحة

---

(١) الكندى : الولاة ص١٦٣ـ١٦٤

(٢) الكندى : السابق ص٤٣٣ـ٤٣٠ ـ متز : الحضارة الاسلامية جـ١ ص١٧

(٣) الكندى : السابق ص٤٤٠

(٤) الكندى : السابق ص٤٤١ ـ متز : الحضارة الاسلامية جـ١ ص١٧

على يد أحد الزهاد من مدينة اخميم " موطن اهل الحكمة والمعرفة ". (وهو ذو النون المصرى الاخميمى ـ ابو الفيض ثوبان بن ابراهيم وقيل الفيض بن ابراهيم المصرى المعروف بذى النون ـ احد رجال الطريقة) [1] والذى يعد بحق واضع أسس التصوف بمصر ". [2] وكان ذو النون احد الموالى النابهين (... قال ابن يونس سمعت عليا بن عمر بن احمد بن مهدى الحافظ ببغداد يقول : اخبرت الحسين بن احمد بن الماذرائى قال : قرأ على ابو عمر الكندى فى كتابه " اعيان الموالى " فذكر فيه " ومنهم ذو النون بن ابراهيم الاخميمى مولى لقريش وكان أبوه ابراهيم نبيا ". [3]

ويعتبر ذو النون المصرى الاخميمى من اقطاب الصوفية وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الان. [4] و " القطب معناه رأس العارفين وقد ظهر فى كلام المتصوفة ويزعمون انه لا يمكن ان يساويه احد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لاخر من أهل العرفان. وقد أشار الى ذلك ابن سينا فى كتاب الاشارات فى فضول التصوف .. ". [5]

لم يكن التصوف قبل ذى النون علما بالمعنى المفهوم بل كان حركة زهدية يغلب عليها جانب العبادة . ولما جاء ذو النون اتخذ من هذه الوجهة وجهة

---

(١) ابو نعيم : حلية الاولياء ج٩ ص ٣٣١ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٨٠ ـ القشيرى : الرسالة ص ١١٢ ـ السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥ ـ السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٨

(٢) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٨

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٨٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٢٠ ـ السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥

(٤) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩٨

(٥) ابن خلدون : المقدمة الفصل الحادى عشر (فى علم التصوف) ص ٤٧٣

اخرى علمية فتعرض لمسائل هذا العلم بالتقرير والتوضيح والتحديد وكان ذو النون يجيد التعبير والاعراب عن مكنون نفسه فكانت عباراته تنطق بالبلاغة وحسن التعبير ويعد ذو النون من الاوائل الذين وضعوا اللبنات الاولى فى أصول التصوف الاسلامى يقول جامى (... انه رأس هذه الفرقة (طائفة الصوفية) فالكل قد اخذ عنه وانتسب اليه. وقد كان المشايخ قبله ولكنه كان اول من فسر اشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق. (١) ويقول نيكولسون : ان ذى النون المصرى هو أول من وضع الاسس الاولى للخصائص الثيوسوفية - Theosophia فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية ". (٢) وقد كان ذو النون اوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا ". (٣)

قال ابو نعيم : " ... انه القلم المضى والحكم المرضى الناطق بالحقائق الفائق للطرائق — له العبارات الوثيقة والاشارات الدقيقة ". (٤).

ولم ينفصل ذو النون عن المناخ العلمى السائد فى عصره فكان له نظر فى العلوم الدينية، فقد اشتغل فى أول امره بعلم الحديث ولابد انه تثقف فى صغره بثقافة دينية أهلته للاشتغال بهذا العلم " فهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن الامام مالك ". (٥)

---

(١) عبدالرحمن جامى : نفحات الانس ص٢٦

(٢) نيكلسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص١١٢

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص٢٨٠ — السيوطى : حسن المحاضرة جا ص٢١٨

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص٢٨٠ — السيوطى / حسن المحاضرة ج١ ص٢١٨

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص٢٨٠

قال السيوطى : انه حدث عن مالك والليث وابن لهيعة ". (١)

ولكن السمعانى يتشكك فى صدق أحاديثه فيقول : " انه اسند عنه احاديث غير ثابتة والحمل فيها على مادونه .. وحكى عنه من البغداديين سعيد ابن عامر الخياط ، وابو العباس بن مسروق الطوسى .. قال ابو الحسن الدارقطنى : ذو النون المصرى روى عنه مالك أحاديث فى اسانيدها نظر ". (٢) وقال فى موضع آخر : اذا صح السند اليه فأحاديثه مستقيمة وهو ثقة ". (٣)

انصرف ذو النون عن الاشتغال بعلوم الحديث، ويبدو ان سلوك اهل الحديث لم يرق الى ماتصبو اليه نفسيته الزاهدة . فقد سئل عن سبب تركه الاشتغال بالحديث ، فقال : " ... للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث من اركان الدين ولولا نقص دخل على اهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس فى ازمانهم ... الا تراهم بذلوا علمهم لاهل الدنيا يستجلبون به دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم . وافتتنوا لما رأووا حرص أهل العلم والمتفقهين عليها . فخانوا الله ورسوله وصار اثم كل من تبعهم فى عنقهم . جعلوا العلم فخا للدين .. وسلاحا يكسبونها به بعد ان كان سراجا للدين يستضاء به .. ". (٤)

ويقول ابو المحاسن : " ان ذى النون المصرى كان اول من تكلم فى الاحوال ومقامات أهل الولاية ... وانه انتقل الى الفسطاط وكانت له بها مجالس علم .. ". (٥)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢١٨

(٢) السمعانى : الانساب ص٣٢٤

(٣) السمعانى : السابق ص٣٢٤

(٤) الشعرانى : الطبقات الكبرى لواقح الانوار - جـ١ ص٧٠ - ١٤٩ -
السمعانى : المرجع السابق ص٣٢٤ - ٣٢٥

(٥) ابو المحاسن بن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٥٣ .

قامت فلسفة ذو النون الصوفية على دعامتين اساسيتين هما : المعرفـــــة، والمحبة .. " ... وكانت تدور عليهما تعاليمه وآراؤه الصوفية ،فهويرى ان غايـــة الطريق الصوفية الوصول الى مقام المعرفة الذى تتجلى فيه الحقائق فيد ركها الصـوفى ادراكا ذوقيا لا أثر فيه للعقل ولا للروية . وذلك لايكون الا لخاصة اهل اللــــه الذين يرونه بأعين بصائرهم .. " (١) وبذلك كان ذو النون اول من تكلم فى المعرفة بكلام نظرى دقيق ". (٢) وهو فى اقواله وشطحه فى فلسفته يتمسك بالمأثـــور من الكتاب والسنة.. فمن اقواله فى المحبة (.. علامات المحب لله متابعة حبيبه صلـــى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه ". (٣)

والمحبة عند ذى النون هى محبة العبد لله، ومحبة الله لعبده.. فهـــى متبادلة بين العبد والرب "... عن محمد بن سعيد الخوارزمى قال : سمعت ذو النون وسئل عن المحبة ـ قال : " ان تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغضه الله ... وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله، والا تخاف فى الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين وأتباع رسول الله (صلعم) فى الدين ". (٤) ومن مأثوراته عن المعرفة قوله (... لو ان الخلق عرفوا ذل اهل المعرفة من انفسهـم لحثوا التراب على رؤوسهم وفى وجوههم "(٥) وعن تعريف الصوفى قـــــال ذو النون : "انه اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق ". (٦)

---

(١) ابن عربى : الكوكب الدرى ورقة ١١٥

(٢) نيكلسون : فى التصوف الاسلامى ص٧٤

(٣) الحافظ ابى نعيم : حلية الاولياء جـ٩ ص ٣٦٢

(٤) السابق جـ٩ ص ٣٦٢

(٥) الحافظ ابى نعيم : حلية الاولياء جـ٩ ص ٣٦١

(٦) السلمى : طبقات الصوفية ص٢٩

ويتجه ذو النون الى ربط المعرفة بالشريعة • فيقول " علامة العارف ثلاثة : لايطفئ نور معرفته نور ورعه• ولايعتقد باطنا من العلم فينقض عليه ظاهرا من الحكم ولاتحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك استار محارم الله تعالى "• (١)

وكلما ازداد العارف معرفة بالله كان اكثر خضوعا • فيقول : " العارف كل يوم اخشع لانه كل ساعة أقرب "• (٢)

ومن أبرز مايميز تصوف القرنين الثالث والرابع اصطناع اصحابه لاسلوب الرمز فى التعبير عن حقائق التصوف وتعتبر هذه الرموز مبهمة على من ليس بصوفى • لان هذه اللغة تعبر عن اسرار وحقائق ذوقية وهبها الله لهم• ويوضح القشيرى هذه الدوافع فيقول (••• وهذه الطائفة " الصوفية " مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لانفسهم والاجماع والستر على من باينهم فى طريقتهم لتكون معانى ألفاظهم مستبهمه على الاجانب غيره منهم على اسرارهم ان تشيع فى غير أهلها "• (٣) ولعل اصطناع أسلوب الرمز من جانب الصوفية كان له أثر فى النزاع بينهم وبين الفقهاء الذين بدأت خصومتهم للصوفية منذ القرنين الثالث والرابع تشتد " لان الفقهاء يميلون دائما الى ظاهر القرآن والسنة النبوية • اما الصوفية فلا يفرقون بين واجب ومستور ولكل فرض من فرائض الدين اسرار• ولذلك عد الفقهاء واهل الفتيا اكثر آراء المتصوفة بدعا فى الدين يجب الرد عليها ودحضها "• (٤) •• وقد بدأت خصومة الفقهاء للصوفية منذ القرن الثالث والرابع تشتد وبدأ صراعهم

---

(١) القشيرى : الرسالة ص١٤٣

(٢) السلمى : طبقات الصوفية ص٢٦

(٣) القشيرى : الرسالة ص٣١

(٤) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ص١٥٧ ـــ محمد كامل حسين : آداب مصر الاسلامية جـ١ ص٦٥

مع الصوفية واضح من خلال محاكمات ذو النون المصرى الذى كانت آراؤه موضـــع نقد الفقهاء فاتهموه بالزندقة "٠٠ وأنكر عليه أهل مصر ذلك " اى أقواله الفلسفيـــة فى التصوف " وقالوا : أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعوا به الى الخليفة العباسى المتوكل على الله ورموه عنده بالزندقة وأحضر من مصر على البريد فلما دخل سرمن راى عاصمة العراق فى ذلك الوقت "وعظه ٠فبكى المتوكل ورده مكرما ٠٠ "٠ (١)

وكان ذوالنون حجة فى الاقناع مما جعله يؤثر فى نفس المتوكل فيطلق سراحه٠ وقد بلغ من منزلة ذى النون عند المتوكل " انه اذا ذكر اهل الورع بين يديه يبكى ويقول اذا ذكر اهل الورع فحى هلا بذى النون" (٢) وكان ذو النون قد اضطهد وأقسر بمحنة خلق القرآن ٠٠ فقد هرب ثم رأى ان يرجع فرجع الى مصر ووقع فى يد (قاضـى مصر فى ذلك الوقت " محمد بن ابى الليث " فأقر بالمحنة)٠ (٣)

لم يقتصر نشاط ذى النون على نشأة ووضع أسس علم التصوف بل كانت لـــه علوم ومعارف اخرى٠٠ فقد ألحقه القفطى " بطبقة جابر بن حيان فى انتحـــال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة ٠٠ "٠ (٤) ويذكر صاحب الفهرست "٠٠٠ انه كان متصوفا وله أثر فى الصنعة ٠ وكتب مصنفة ٠ فمـــن كتبه ٠ كتاب الركن الاكبر ٠ وكتاب الثقة فى الصنعة "٠ (٥)

---

(١) ابن خلكان ج١ ص ٢٨١ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص٢٥٨ ـ السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٢٥٨

(٢) ابن خلكان : وفيات ج١ ص٢٨٣ ـ الطوسى : اللمع ص٤٩٨ ـ السلمى : طبقات الصوفية ص٢١٣ ـ الشعرانى : الطبقات الكبرى لواقح الانوار ج١ ص٧٠

(٣) الكندى : الولاه والقضاة ص٤٥٣ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص١٦١

(٤) القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٥

(٥) ابن النديم : الفهرست ص١٥٧ـ١٥٨

ويشير أحد المصادر الى ان ذى النون كان يعرف اللغة السريانية وكان يقرأ ما دون بها من نصوص وأخبار ". (١) وانه كان يقرأ ما دون بالفرعونية على جدران الهياكل والاثار وكان يمتحن كثيرا بما صور منها ورسم على البرابى من النقوش والصور وانه تدبر بعضها مره فاذا مكتوب فيه " يقدر المقدرون والقضاء يضحك " وتبين بعضا منها فى ذلك القلم الاول فاذا معناه :

تدبر بالنجوم ولست تدرى •• ورب النجم يفعل ما يريد ". (٢)

وقد كان ذو النون كثير الملازمة لبربا بلده (٣) اخميم التى كانت تعتبر بيتا من بيوت الحكمة القديمة وفيها التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة التى تزيد المؤمن ايمانا والكافر طغيانا ويقال انه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية ." (٤) ومن المرجح ان ملازمة ذى النون للبرابى كانت نتيجة لتأثره بحياة الرهبان الذين كانوا يمارسون حياتهم فى الاديرة وفى الاماكن البعيدة النائية المعزولة وربما كانت ملازمة ذى النون لتلك البرابى لينشد مزيدا من التأمل بعيدا عن الاعين وليما رس عقيدته فى الخفاء فى تلك الاماكن البعيده المقفره ويصف الحافظ ابو نعيم أحوال الصوفية ، فيقول : (•• الصوفية قد فارقوا المروج والقفار وهربوا بدينهم الى الجبال والقفار فهم الاتقياء الاخفياء). (٥) وربما يكون اشتغال ذو النون بالكيمياء هو أحد الاسباب لملازمته البرابى (فقد كانت هذه المعابد مهدا لعلوم الكيمياء والسحر والاسرار والطلسمات فى نظر المسلمين ومن هذه البرابى بربا اخميم). (٦)

وقد كانت لذى النون مكانة عظيمة فى قلوب المصريين " فقيل انه لما توفى سنة خمس واربعين ومائتين بالجيزة لم يتمكنوا من نقل جثمانه عبر الجسر المقام على النيل خشية ان ينقطع من كثرة تزاحم المشيعين فعبروا وحملوه فى قارب تفاديا للزحام ". (٧)

---

(١) ابو نعيم : حلية الاولياء جـ٩ ص٣٣٩
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص٢٢٣
(٣) البربا ـ كلمة قبطية معناها المعبد ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين هامش ص٢٧٩ ـ وما ذكرته من مراجع.
(٤) القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٥
(٥) ابو نعيم : حلية الاولياء جـ١ ص١٧ : ٢٤
(٦) المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٣٨ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٨

كانت لذى النون مكانة مرموقة فى عالم التصوف وكان له اتباع ومريدين بل تأثر به كثيرين من مشايخ الصوفية فى المشرق مثل "ابى يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) (طيفور بن عيسى بن سردشان من اهل بلدة بسطام وكان جده سردشان مجوسيا أسلم)". (١) وابو سعيد الخراز "احمد بن عيسى (المتوفى سنة ٢٢٧هـ) من اهل بغداد وهو أول من تكلم عن علوم الفناء والبقاء". (٢) وطاهر المقدسى الملقب بحبر الشام". (٣) وقد سمع ذى النون ايضا وصحبه ابو عبد الله ابن الجلاء وهو من أكابر مشايخ الشام". (٤) وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى سنة ٣٠٤ هـ وكان شيخ الجبال والرى فى وقته". (٥) هكذا خلف ذو النون وراءه حركة صوفية قوية ساهمت مدينة الفسطاط فيها بفضله بنصيب كبير.

....

قويت الحركة الصوفية بمصر فى القرن الثالث الهجرى وصار لها ثقلها الاجتماعى ومكانتها السياسية وتأثيرها فى نفوس الناس ويذكر بعض المؤرخين ان نفر من هؤلاء الصوفية كان يتدخل فى شئون الولاه بالنصيحة والموعظة " مثل ابو الحسن بن بنان ابن محمد بن حمدان الحمال الزاهد الذى كان من كبار شيوخ الصوفية بمصر فى القرن الثالث الهجرى وكان جريئا فى الحق لا يهاب الامراء والحكام وكان

---

(٧) ابن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ورقة ١١٥ أ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٣٨٣ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٥٨ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٢٨ ـ الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ١ ص٧٠ ـ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٩.

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص٦٧
(٢) السلمى : السابق ص٢٢٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٢
(٣) السلمى : السابق ص٣١٢
(٤) القشيرى : الرسالة ص٢
(٥) القشيرى : السابق ص٢٢ـ٢٣

ذا منزلة عظيمة فى النفوس فكانوا يضربون بعبادته المثل. ويقال انه قد ضاق بجرأته احد القضاة فأتوا به الى احمد بن طولون الذى أمر ان يلقى به لسبع جائع لانه انكر على ابن طولون شيئا من المنكرات. ومن كراماته انه عندما ألقى به الى السبع كان يشمه ويحجم عنه فرفع من بين يديه وشاهد الناس عليه شيئا من الذهول فسألوه عن ذلك فقال : كنت افكر هل سؤر السباع طاهر أم لا ". (١) والواقع ان امثال هذه الكرامات كانت قد اختصت بصوفية القرنين الثانى والثالث وكان يتعلق بها عوام الصوفية ". (٢) وخلاصة القول انه قد زاد تعظيم الناس لابن بنان. لانه كان من جلة المشايخ والقائلين بالحق والامرين بالمعروف وقد سئل ابن بنان عن اجل أحوال الصوفية ؟ فقال : الثقة بالمضمون والقيام بالاوامر ومراعاة السر والتخلى عن الكونين والتثبت بالحق ". (٣) وقد كان لابن بنان مكانة عظيمة فى نفوس المصريين لكراماته " فلما توفى فى رمضان سنة ٣١٦ هـ خرج فى جنازته اكثر اهل مصر وكان شيئا عجيبا ". (٤)

ولم تقتصر حركة الزهد والتصوف على الرجال ،فقد كان لبعض النساء نصيب كبير فى المساهمة فى حركة الزهد والتصوف فى مصر فقد جاءت الى مصر فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح الحرانية الصوفية .. من الصالحات المتعبدات قال الخطيب ولدت ببغداد وحملت الى مصر فطال عمرها حتى جاوزت الثمانين وأقامت سنة لاتنام الا وهى فى مصلاها بغير غطاء .. سمعت من ابيها وروى عنها ابن اخيها عبد الرحمن بن القاسم وماتت سنة اثنتى عشرة وثلثمائة ". (٥)

---

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص٧ ــ السيوطى : حسن المحاضرة جا ص٢١٨

(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جا ص٤٧

(٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ٧١ ــ السيوطى : حسن المحاضرة جا ص٢١٩

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جا ص٢١٩

(٥) السيوطى : السابق جا ص٢١٩

وقد كانت مصر موطنا لكثير من الصوفية الوافدين الذين أتوا اليهـا ونشروا فيها حركة صوفية غنية وكانت لهم حوادث مع ولاة مصر تدل على سمو منزلتهم وتبرز كراماتهم ... ومن هؤلاء الصوفية (ابو بكر محمد بن احمد بن سهل الرملى النابلسى الذى كان عابدا صالحا زاهدا قوالا بالحق وقد حكى ان كافورا الاخشيدى بعث اليه بمال فرده. وقال : " قال الله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض وما بينهما وماتحت الثرى) . فأين ذكر كافور هنا . فقال ابو بكر " صدق الله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض وما بينهما وماتحت الثرى) . الملك والمالك كافور صوفى لا انا ثم قبل المال — توفى سنة ٣٦٣هـ .. "(١)

ومن الصوفية بمصر أيضا " ابو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى الصائغ الزاهد أحد المشايخ الكبار. ومن كراماته انه رؤى يصلى بالصحراء فى شدة الحر . وقد نشر طائر جناحيه يظله من الحر.. وقد انكر على تكين امير مصر اشياء فسيره الى القدس.. لكنه عاد الى مصر وتوفى بها فى رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ". (٢)

وكان ابو بكر الدقاق "ابو بكر نصر بن احمد بن نصر الدقاق " من كبار رجال الصوفية بمدينة الفسطاط بمصر وقد تأثر نشاط الحركة الصوفية بمصر بعد موته وقلت رحلة الصوفية اليها " قال الكتانى : لما مات أبو بكر الدقاق انقطعت حجة الفقراء فى دخولهم مصر ". (٣)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ٢١٩

(٢) السيوطى : المرجع السابق جا ص ٢٥٠

(٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ٣١٤ — السيوطى : المرجع السابق جا ص ٢١٩

ومن المتصوفة الذين وفدوا الى مدينة الفسطاط وتوفوا بها " ابو علي الروزباري " ابو علي احمد بن محمد بن القاسم بن شهريار الروزباري الذي يتصل نسبه بكسرى انوشروان ، فقد كان ببغداد ثم هجرها الى الفسطاط فأقام فيها وأصبح شيخا من شيوخ التصوف بها الى ان توفي سنة ٣٢٢ هـ ودفن بجوار ذي النون المصري ". (١) ويبدو ان ثقافته كانت واسعة . فقد كان يفتخر على اقرانه بسعة ثقافته ومعارفه ويباهي بشيوخه في الادب والعلم ، فكان يقول : شيخي في التصوف الجنيد وفي الفقه ابو العباس ابن سريج وفي الادب ثعلب ". (٢) ويشير احد المستشرقين الى ظهور بعض الفرق " الطرق " الصوفية على أيدي بعض هؤلاء المتصوفة مثل " الطيفوريه التي تنسب الى ابي يزيد البسطامي والخرازية نسبة الى ابي سعيد الخراز ". (٣)

هؤلاء هم بعض الصوفية بمدينة الفسطاط ولاشك انهم قد مهدوا بآرائهم وافكارهم الى علم التصوف الفلسفي فيما بعد لانهم بالرغم من ارتقاء أفكارهم الصوفية لم يتطرقوا الى النواحي الفلسفية المعقدة . يقول نيكولسن (.. وضع صوفية القرنين الثالث والرابع نظاما كاملا في التصوف من الناحيتين النظرية والعملية ولكنهم لم يكونوا فلاسفة ، ولم يعنوا الا قليلا بالمشكلات الميتافيزيقية ". (٤)

استمرت الحركة الصوفية بعد ذلك تتأرجح بين النمو والازدهار تارة وتعتريها موجة الانحسار تارة اخرى ، الى ان وصلت الى قمة مجدها في العصر الايوبي " حيث وفد الى مصر الكثير من المتصوفين .. الذين تعهدهم صلاح الدين يوسف بن ايوب بالعناية والرعاية وانشأ لهم دورا عرفت باسم الخانقاه الصلاحية للصوفية المنقطعين للعبادة ". (٥)

---

(١) الشعراني : الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار جـ١ ص ١٠٦ ـ السيوطي : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٦٨

(٢) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٠٦

(٣) نيكلسون : في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢٠

(٤) نيكلسون : السابق ص ١٥٤

(٥) المقريزي : الخطط جـ٤ ص ٢٧٤

٧ـ دور التعريب فى نهضة الدراسات اللغوية والنحوية

تأثرت مصر بأنواع الثقافات التى كانت موجودة بعواصم الدولة العربية الاسلامية سواء كانت مكة والمدينة فى عهد الخلفاء الراشدين أو البصرة والكوفة فى عهد الخلافة العباسية وخاصة فيما يتعلق بالدراسات العربية ، ومنذ البداية كان معلموا القرآن والسنة النبوية هم اساتذة العربية الاول بالفسطاط يقول د . شوقى ضيف (انه كان طبيعيا ان تنشط دراسات النحو فى مصر فى فترة مبكرة مع العناية بضبط القرآن الكريم وقراءاته مما دفع الى نشوء طبقة من المؤدبين كانوا يعلمون الشباب فى الفسطاط والاسكندرية مبادىء العربية حتى يحسنوا تلاوة الذكر الحكيم واسهم فى ذلك العلماء من ائمة القراءات الذين كانت تجذبهم مصر اليها ". (١) وكان أول هؤلاء القراء (عبد الرحمن بن هرمز الاعرج المدنى مولى ربيعة بن الحارث ان عبد المطلب الهاشمى الذى كان احد الحفاظ والقراء . أخذ القراءة عن ابى هريرة وابن عباس . وكان يكتب المصاحف ويقرىء القرآن ". (٢) " وقد اخذ عن ابى الاسود علم العربية فوضعه بالمدينة ". (٣) وقد خرج الى الاسكندرية وأقام بها الى ان ادركه أجله ومات سنة ١١٧ هـ فى ايام هشام بن عبد الملك ". (٤) ولكن تكاد تجمع المصادر على (ان كل القراءات فى مصر رواية عن نافع بن ابى نعيم . فقيه اهل المدينة الذى بعثه الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مصر ليعلم اهلها قراءة القرآن والسنة ". (٥).

---

(١) شوقى ضيف : المدارس النحوية ص٣٢٧

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ١١٧ ـ الذهبى : تاريخ الاسلام جـ١ ص١٩٥ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٩٥ ـ بغية الوعاه ص ٣٠٢

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص١١٧ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٩٥ ـ بغية الوعاه ص ٣٠٢ ـ الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص٩ او ٢٠ ـ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ١ ص ١٥٣

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٩٥ ـ بغية الوعاه ص٣٠٢ ـ الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص٢٠

(٥) المقريزى : الخطط جـ٤ ص١٤٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص١٦٦

وكان ورش المقرئ (١) من أجل تلاميذه " فقد انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية ".

والى جانب ما ساهم به ائمة القراءات فى تعميق آثار اللغة العربية بالفسطاط نبغت طائفة من فقهاء ومحدثى مدينة الفسطاط فى اللغة والنحو ، فقد كان الليث بن سعد عربى اللسان — فصيح البيان — يحسن القرآن والنحو . (٢) " وكان احمد بن صالح — أحد الحفاظ وكان اماما فى القراءات والنحو ". (٣) وكان احمد بن يحى الوزير بن سليمان التجيبى (١٧١هـ / ٢٥٠هـ) شيخا مبرزا من شيوخ الفسطاط — حافظا نحويا ". (٤) وكان أعلم أهل زمانه بالشعر والادب والغريب وأيام الناس وكان له مجلس عامر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقد صحب الشافعى ، أيام حضوره الى الفسطاط ، ولازمه وأخذ الكثير عنه ". (٥)

وقد كان للشيوخ الوافدين على " الفسطاط " أثر كبير فى تعميق آثار اللغة العربية ، بما كان لهم من ملكات لسانية قوية — ومن أبرز هؤلاء " الامام محمد بن ادريس الشافعى " — الذى كان حجة فى اللغة والنحو ". (٦)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ٢٧٧ — ياقوت الحموى : معجم الادباء جا ١ ص ١١٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ١١٨

(٣) القفطى : انباه الرواه جا ص ٥٢ — السيوطى : حسن المحاضرة جا ص ١١٨

(٤) القفطى السابق جا ص ٥٢ — السيوطى : بغية الوعاه ص ١٧٤

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص ١٧٤

(٦) السبكى : طبقات الشافعية جا ص ٢٧٤ — ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١٧ — ص ٢٢٩ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢٦

" وكان يحضر دروس الشافعى بالمسجد الجامع بالفسطاط طالبوا القرآن وطالبوا الحديث والفقه والعربية ". (١) ومن ائمة اللغة الذين وفوا على الفسطاط ايضا " عبد الملك بن هشام الذى كان اماما فى اللغة والنحو والعربية ". (٢) " وقد كان له مجلس ادبى كبير فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وصار من ائمة اللغة والنحو بمصر ". (٣) وكان للمصريين بمجالس ابن هشام وسيرته فرط غرام وكثير رواية ". (٤) وقد التقى ابن هشام بالشافعى فى المسجد الجامع بالفسطاط وقال فيه (لقد طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط . وما سمعته تكلم بكلمة الا اعتبرها المعتبر لا يجد كلمة فى العربية احسن منها ". (٥) وكان الشافعى يجلس للعلم . وقد التف حوله المصريون الذين عرفوا قدره . فأتخذوه استاذا لهم . مثل الربيع بن سليمان وسوح الغول الذى كان عالم مصر باللغة وكان الشافعى يقدره لفضله وعلمه ويستدعيه الى مجلسه العلمى فيتناقشان ويتناظران. (٦) وكان الراغبون فى أخذ اللغة يتكالبون على مجلس الشافعى بالفسطاط " قال الزعفرانى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ احد تلاميذ الامام الشافعى لرجل من رؤسائهم " انكم لا تتعاطون العلم . فلما تختلفون معنا (اى تجلسون) — فقالوا : نسمع لغة الشافعى ". (٧)

والنحو بمعناه الاصطلاحى كعلم له اصوله وقواعده الخاصة . لم يكن قد تقرر بعد فى تلك الفترة (الى نهاية القرن الثانى الهجرى) وانما كانت مسائله تبحث فى المجالس العلمية الدينية . فربما كانت تعرض للدارسين اثناء تدريسهم

---

(١) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٧ ص ٣٠٢

(٢) القفطى : انباه الرواه جـ٢ ص ٢١١

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٢٨ — بغية الوعاه ص ٣١٥ — اليافعى : مرآه الجنان جـ٢ ص ٣٨

(٤) السيوطى : السابق جـ١ ص ٢٢٨

(٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٧ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٣.

(٦) السيوطى : بغية الدعاه ص ٢٥٢ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨٧

(٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٧ ص ٢٩٩ — ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٤

بالفسطاط العلوم الدينية كالحديث والفقه فيضطرون للوقوف عند ها والمناقشة فيهـــا دون ان يكون لهم كتاب فيها او منهج يلتزمون به " لانه لم يكن للدراسات اللغويـــة والنحوية فى تلك الفترة أثر فى مصر ". (١)

<u>النحو واللغة في طور الحفظ والرواية :</u>

لم تلبث الدراسات اللغوية والنحوية بمصر ان تطورت فى القرن الثالـــث الهجرى على يد أسرة مصرية كان لها اكبر الاثر فى وضع اساس علم النحو فى مصر . وهـى اسرة " بنى ولاد " التى اخذ النحو يأخذ طابعا مستقلا على يد ابنائها وكان رأس هذه الاسرة الوليد بن محمد التميمى المعروف بولاد المصادرى المتوفى سنة ٢٦٣ هـ فعلى يديه تكونت المدرسة التى تعد النواة الاولى لدراسة النحو فى مصر فتشير كثيـر من المصادر الى انه كان اول من ادخل علوم العربية الى الفسطاط ولم تكن كتـب النحو واللغة تعرف بها قبله ". (٢) وكان ولاد بصرى الاصل نشأ بمصر ورحل الـى العراق وسمع بها العلماء ". (٣) وكانت العراق فى ذلك الوقت هى موطـــن الخلافة فى العصر العباسى ولهذا فقد كانت ملتقى الدارسين وكانت تشد اليهـا رحال العلماء الراغبين فى الاستزاده بعلم النحو . وكانت الرحلة وسيلة هامة للاتصال بالعلماء " وكان لاصحاب اللغة مشاركة فى الرحلة مثل اصحاب الحديث ". (٤) وفـى رحلته ذهب لاود المصادرى الى المدينة للاخذ عن علماؤها ثم عرج على العـراق تذكر الرواية التاريخية (ان ولادا كان يأخذ النحو عن رجل من اهل مدينة النبـى

---

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص٦٨

(٢) القفطى : انباه الرواه جـ٢ ص ٣٥٤ — السيوطى : بغية الوعاه ص٤٠٥ — الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص٢٣٢ — شوقى ضيف : المدارس النحوية ص٣٢٨

(٣) السيوطى : بغية الوعاه ص٤٠٥ — الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص٢٣٢

(٤) الرافعى : تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص٢٤٣—٢٤٤

صلى الله عليه وسلم ولم يكن المدنى من الحذاق بالعربية . فسمع ولاد بالخليل بن احمد فرحل اليه . فلقيه بالبصره . وسمع منه ولازمه ثم انصرف الى مصر) . (١) ويبدو ان ولادا قد اصاب فى رحلته وحمل علما غزيرا " فعند انصرافه الى مصر جعل طريقه على المدينة فلقى معلمه فناظره فلما رأى المدنى تدقيق ولاد للمعانى وتعليله فى النحو قال : لقد ثقبت بعدها الخردل (اى انه اكثر دقة منه) (٢) وقد كان الذين يرحلون الى العراق يحملون معهم عند عودتهم كتب النحو واللغة حيث كانوا يقومون بنقلها وحفظها وقراءتها وروايتها على النابهين من طلاب العلم " . فكان ولادا هو اول من ادخل كتب النحو واللغة الى الفسطاط بعد ان حذقها ورواها باسانيدها عن علماء البصرة . (٣) وكانت رحلة ولاد بداية عهد جديد فى الرحلة الى العراق امام العلماء المصريين اذ ترسموا خطاه واقتفوا اثره . ورحلوا الى مدن العراق يستزيدون من العلم والتقوا هناك بشيوخ النحو وعلمائه وأخذوا عنهم ثم عادوا وهم يحملون ما درسوه وينقلون ما سمعوه ويروون ما حفظوه وبذلك اتصلت الدراسات النحوية فى مصر فى زمن مبكر بالدراسات النحوية بالبصرة والكوفة بالعراق (٤)

وكان " ابو عبد الله محمود بن حسان المتوفى سنة ٢٧٣ هـ قد تأثر بصورة واضحة بالعراقيين ـ قال ابن يونس فى تاريخ مصر : ان ابو عبد الله كان نحويا مجددا . وروى عن ابى ذرعة المؤذن وعبد الملك بن هشام " (٥) وكان قديم العهد فى طريقة اصحاب الخليل كولاد وغيره . وتصدر لافادة هذا الشأن فأخذ عنه ابو الحسين بن الوليد ولاد " . (٦)

---

(١) السيوطى : بغية الوعاه ص٤٠٥ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٢

(٢) القفطى : انباه الرواه ج٢ ص ٣٥٤ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص ٤٠٥ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٢

(٣) القفطى : انباه الرواه ج٢ ص ٣٥٤ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص ٤٠٥ الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٢

(٤) شوقى ضيف : المدارس النحوية ص٣٢٨

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص ٣٨٧

(٦) القفطى : انباه الرواه ج٢ ص ٢٦٤ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص ٣٨٧ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٣

النحو ومكانة النحاة بالفسطاط فى عصر المؤلفات العلمية :

كانت مصر فى القرن الثالث الهجرى تغص بالعديد من اللغويين والنحاة وكان معظم هؤلاء من الوافدين اليها . وكان من أبرز هؤلاء النحاه (ابو على احمد بن جعفر الدينورى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ احد النحاة المبرزين — وهو من اصحاب المؤلفات الادبية النحوية وقد سار كأسلافه فى بداية الامر فى الاخذ عن العراقيين ، فقدم البصرة من بلدته دينور . واخذ عن المازنى وحمل عنه كتاب سيبويه . (١) ثم دخل بغداد وقرأه على المبرد ايضا ثم وفد الى مصر متوطنا . فأستقر بها يعلم النحو ". (٢) وكان ابو على الدينورى من اصحاب المؤلفات العلمية فقد ألف كتابا فى النحو سماه " المهذب " جلب فى صدره اختلاف البصريين والكوفيين وعزا كل مسألة الى صاحبها . ونقل مذهب البصريين وعول فى ذلك على كتاب الاخفش (سعيد بن مسعده) وله كتاب مختصر فى ضمائر القرآن استخرجه من كتاب المعانى للفراء ". (٣) وقد تتلمذ على يديه عدد من النحاة فى مصر والاندلس . ومن تلاميذه المصريين محمد بن ولاد . وعبد الله بن عبد العزيز استاذ يعقوب بن يوسف النجيرمى ". (٤) وممن اخذ عنه من الاندلسيين (محمد بن موسى بن هاشم الافشين القرطبى وقد أخذ عنه كتاب سيبويه رواية ". (٥)

---

(١) سيبويه هو واضع علم النحو فى اطاره العلمى — وعمل كتابه فيه . ولم يسبق الى مثله احد قبله . جمع فيه كل المعلومات اللغوية والنحوية فى عصره (ابن النديم / الفهرست ص٨٢) .

(٢) القفطى : انباه الرواه ج١ ص٢٣ — السيوطى : بغية الوعاه ص١٣٠

(٣) القفطى : السابق ج١ ص٢٣ — ياقوت الحموى : معجم الادباء ج٢ ص ٢٤٠ — حاجى خليفة : كشف الظنون ج١ ص١٠٨

(٤) ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندلس ج١ ص٢٣٣ — السيوطى : بغية الدعاه ص١٣٠

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص١٣٠ — الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٦

وكان يعاصر ابو على الدينورى (ابو الحسين ـ محمد بن الوليد التميمى ـ (٢٤٨ـ٢٩٨هـ) احد النابهين من اسرة بنى ولاد ". (١) ويعد محمد بن الوليد من المصريين. يقول صاحب الاعلام " انه نحوى من أهل مصر مولدا ووفاة ". (٢) وقد اخذ محمد بن الوليد العربية بمصر عن محمود بن حسان وابو على الدينورى وغيرهما . (٣) ثم رحل الى العراق واخذ عن المبرد وثعلب وله من الكتب كتاب المنمق ولم يصنع فيه شيئا . وينسب اليه خطأ كتاب المقصور والممدود ". (٤) وهو لابنه ابى العباس بن ولاد . وتذكر بعض المصادر ان محمدا هو أول من أدخل كتاب سيبويه الى مصر بعد ان انتسخه من المبرد . فعندما رحل الى العراق كلم المبرد نفسه فى نسخه على شئ سماه له فأجابه. فأكمل نسخة وابى ان يعطيه شيئا حتى يقرأه عليه فغضب المبرد . وسعى الى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك .فألتجأ ابن ولاد الى صاحب الخراج ببغداد .وكان يؤدب ولده .. فأجابه . ثم الح على المبرد حتى أقرأه الكتاب ". (٥)

ومن النحاة " اصحاب المؤلفات الادبية " الذين وفدوا الى الفسطاط ايضا (الاخفش على بن سليمان) المتوفى ٣١٥هـ ببغداد . الذى جاء الى الفسطاط سنة ٢٨٧ هـ وتصدر للتدريس بها وقد أخذ عنه المصريين اللغة . فقد مكث

---

(١) القفطى : انباه الرواه جـ٢ ص ٢٤٤ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص١١٢ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٧

(٢) الزركلى : الاعلام جـ٣ ص٩٩٩

(٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٩ ص ٩ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٤ـ٢٣٦ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص١١٢

(٤) ياقوت الحموى : السابق جـ١٩ـ ص ١٠٥ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص١١٢

(٥) ياقوت الحموى : السابق جـ١٩ ص ١٠٥ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص٢٣٦.

بها فترة طويلة — حيث خرج منها سنة ٣٠٠ هـ وقد قيل انه لم يغادرها الا سنة ٣٠٦ هـ • (١) وكان الاخفش تلميذا للمبرد • وروى عنه كتابه الكامل • (٢) أحد اركان الادب الاربعة وله من الكتب — كتاب الانواء وكتاب التثنية والجمع وكتاب الجراد "• (٣)

ومن أشهر النحاة الذين قدموا الى الفسطاط وعدوا منها "ابو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم — مولى حمير المعروف بالملطى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ قال ابن يونس في تاريخ مصر : انه كان نحويا يعلم اولاد الملوك النحو "• (٤) وكان معلما وقد أم بالجامع العتيق بالفسطاط • (٥)

ومن اصحاب المؤلفات اللغوية الذين جاءوا الى مصر ايضا (محمد بن محمد ابن الازهرى بن طلحة المعروف بالازهرى اللغوى — الاديب (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) وهو صاحب كتاب التهذيب في اللغة وتفسير مختصر المزنى والتقريب في التفسير "• (٦) وكان الازهرى عالما بالنحو • اماما في الادب • جيد القياس • صحيح القريحة "• (٧)

---

(١) القفطى : انباه الرواه جـ٢ ص ٢٢٧ — السيوطى : بغية الوعاه ص١٣

(٢) السيوطى : بغية الوعاه ص١٣

(٣) ابن النديم : الفهرست ص١٢٩

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٣٠٦ — بغية الوعاه ص٦

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص٦٠

(٦) السيوطى : السابق ص٨

(٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٤ ص٢٤٨ — السيوطى : بغية الوعاه ص٨

وقد كان استاذا لكثير من المصريين فقد كان مقيما بالديار المصرية • [١] ومن اجل تلاميذه " على بن محمد الهروى المصرى ــ وهو اول من أدخل كتاب الصحاح للجوهرى الى مصر ووجد فيه خللا فهذبه وأصلحه ". [٢]

ولاشك ان وجود هؤلاء النحاة قد اسهم فى ازدهار حركة النحو واللغة بالفسطاط وكان لهم الفضل فى شيوع المؤلفات اللغوية والنحوية بها •

المدرسة النحوية بمصر بين التقليد والتجديد :

تطورت الدراسات اللغوية والنحوية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فقد نضجت العلوم على اختلاف مواضيعها وظهرت الكتب الوافية فى اكثرها ". [٣] وكان هذا القرن حدا يفصل بين عهدين وطريقتين ". [٤] وفى هذا القرن تخلص علم اللغة من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية • وقد شعر ائمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى بالحاجة الى منهج يشيرون عليه • والى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة ". [٥] ويعتبر القرن الرابع فتحا جديدا فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية وهما : النحو وعمل المعاجم ". [٦] وتشير كثير من القرائن الى شيوع اللغة العربية فى مصر فى القرن الرابع الهجرى ". [٧] وقد ظهر بوضوح نفور الناس من اللحن الى حد ان اعتبر عيبا كبيرا ومن ذلك " ان الفضل بن عباس دخل على كافور فقال له : أدام الله ايام مولانا " بكسر الميم " فانكر كافور والحاضرون فى مجلسه ذلك فقام رجل من الحاضرين من أوساط الناس ، ولعله النجيرمى وانشد معتذرا عن لحن

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ص٨

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج٤ ص٢٤٨

(٣) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ ص٢٢٠

(٤) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص٤١٧

(٥) متز : السابق ج١ ص٤١٧

(٦) متز : السابق ج١ ص٤١٦

(٧)

اللاحن ، عسى أن يحفو كافـور:

لاغرو ان لحن الداعــى لسيدنا •• أو غصّ من هيبته بالريق أو بهـــر
فمثل سيدنا حالت مهابتــــــه •• بين البليغ وبين القول بالحصـــر
فان يكن خفض الايام عن دهـــش •• من شدة الخوف لا من قلة البصر ". (١)

وفى تلك الفترة " اخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسهـــا وتقف على قديمها وحدها ، وتنافس نظيراتها فى سائر انحاء العالم الاسلامى ، وظهر لاول مرة مؤلفون مصريون متفوقون انضمت جهودهم الى جهود الوافدين من البـــلاد الاخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة أثارت اليها انتباه العالم الاسلامى كله ". (٢)

وكان اللغويون والنحاة المصريين كثيرين ويتفاوتون من حيث الشهرة وغـــزارة الانتاج العلمى وكان فى مقدمة هؤلاء (كراع النمل — أبو الحسن على بن الحسن الهنائى الدوسى الازدى من اهل مصر وتوفى بها سنة ٣١٠ هـ ") (٣) ، وكان كوفى المذهب وقد أخذ عن البصريين وخلط المذهبين وكان الى قول البصريين أميل ". (٤) وكانت كتبه فى مصر مرغوب فيها ". (٥) فقد كان كراع النمل مـــن اصحاب المصنفات وله مؤلفات عديدة مثل " المنجد فى اللغة ". (٦) قال القفطى : " ورأيت جزءاً من كتابه " المنضد " من خطه وقد كتب فى آخره " انه اكمل تصنيفـــا وورق فى سنة تسع وثلثمائة ". (٧) وله كتاب مجرد الغريب على مثال العيـــن وعلى غير ترتيبه — وقد ألف فى غريب كلام العرب ولغاتها على عدد حـــــروف

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٣ — سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص٣٢٣

(٢) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص٦٢

(٣) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص٢٤٠

(٤) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص٢٤٠ — السيوطى : بغية الوعاه ص٣٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص١٣١ — السيوطى : السابق ص٣٢٣

(٦) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠

(٧) القفطى : انبـاه الرواه جـ١ ص٢٤٠ — حاجى خليفة : كشف الظنـون جـ٢ ص١٨٦

الهجاء الثمانية والعشرين ". (١) " وقد بث كراع النمل فى ثنايا كتبه آراء ناضجة فى كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله ". (٢)

كان أعظم علماء اللغة والنحو فى مدينة الفسطاط فى القرن الرابع الهجرى " ابو العباس بن ولاد وابو جعفر النحاس ". وكان ابن ولاد — أبو العباس — احمد بن محمد بن الوليد التميمى المصرى نحوى مصرى وفاضلها وقد أقام بها يفيد ويصنف الى ان مات سنة ٣٣٢ هـ ". (٣) وكان شيخ الديار المصرية مع أبو جعفر النحاس ". (٤) وهو من اسرة بنى ولاد التى استأثر اهلها بعلوم اللغة والنحو وقد تتلمذ على علماء الفسطاط فى أول مراحل حياته " فسمع من ابيه بمصر — ثم رحل الى بغداد فأخذ عن الزجاج — ابو اسحق ابراهيم بن السرى ولزمه وسمع منه مع ابى جعفر النحاس وكان الزجاج يفضله على ابن النحاس ويثنى عليه عند من يقدم ببغداد من المصريين — فكان يقول : " عندكم تلميذ من صفته كذا كذا .. فيقال له : ابو جعفر النحاس — فيقول بل ابو العباس بن ولاد ". (٥)

وقد اشتدت المنافسة بين ابن ولاد هذا ومعاصره ابو جعفر النحاس فقد كانا دائما على نفور — وقد حدث ان جمع بعض ملوك مصر بينهما فى مناظرة احتدم فيها النقاش واشتد الشجار ". (٦) وكان لابن ولاد مجالسه العلمية التى يرتادها طلاب العربية " وكان عبد الله بن يحيى بن سعيد الشاعر المصرى

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٩٣ — القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٢٤ — حاجى خليفة : السابق جـ٢ ص ١٨٦

(٢) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٦٣

(٣) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٩٢ — السيوطى : بغية الوعاه ص ١٦٩ — سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٤١

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨

(٥) السيوطى : بغية الوعاه ص ١٦٩ — الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٨

(٦) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٩٩ — ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٤ ص ٢٠١ — ٢٠٤

احد من لازموا مجلسه وأخذوا عنه ". [١] وكان ابن ولاد على جانب كبير من العلم بالعربية بصيرا بالنحو خبيرا باسرار اللغة عارفا بمفرداتها " [٢] وكان لابن ولاد كثير من المؤلفات العلمية فى النحو واللغة ومن مؤلفاته " كتاب الانتصار لسيبويه على المبرد ". [٣] وهو من احسن الكتب ". [٤] وله ايضا " كتاب المقصور والممدود " وهو مرتب على حروف المعجم ويعالج مشكلات الكلمات المقصورة والممدودة ويذكر طريقة هجائها ويحصر مفرداتها ـ وكان لابن ولاد آراء تقدمية فى كيفية تقعيد القواعد وفى أصول النحو تعد من أنضج ماقيل فى هذا الموضوع ". [٥] وقد تعرض هذا الكتاب لنقد المتنبى (الذى جاء الى مصر فى نهاية النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) ـ فقد قرئ على المتنبى فى مجلسه كتاب المقصور والممدود ـ فصححه ورد فيه على ابن ولاد اغلاطا . واستشهد عند بعضها . وذلك سنة ٣٤٧ هـ ". [٦]

ونبغ من النحويين بالفسطاط فى بداية العصر الاخشيدى ايضا " ابو جعفر النحاس ـ احمد بن محمد بن اسماعيل المرادى المصرى النحوى المتوفى

---

(١) السيوطى : بغية الوعاه ص١٧٢.

(٢) السيوطى : المزهر جـ١ ص ٩١

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٠٥ نحو تيمور ـ وقد بدأ الكتاب بما نصه : (... هذا كتاب نذكر فيه المسائل التى زعم ابو العباس محمد بن يزيد أن سيبويه غلط فيها ـ ونبينها ونرد الشبه التى لحقت بها).

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٨٨

(٥) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ص٦٣

(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٨٢ ـ القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ١٠٤ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٢٨ ـ الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٣٩ ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٤١

سنة ٣٣٨ هـ — الذى ارتحل الى العراق واخذ عن الزجاج والاخفش الاصغر والمبرد ونفطويه ". وبعد رجوع ابو جعفر النحاس من العراق تصدر للتدريس بالجامع بالفسطاط وكان يحضر حلقة ابن الحداد الفقيه الشافعى وكان لابن الحداد ليلة فى كل جمعة يتكلم فيها عنده فى مسائل الفقه على طريقة النحو. وكان لا يدع حضور مجلسه فى تلك الليلة ". (١) وكان قلما حسن من لسانه وكان لا ينكر ان يسأل اهل النظر ويناقشهم عما اشكل عليه فى تصانيفه وحبب الى الناس الاخذ عنه وانتفع به خلق ". (٢) وكان ابو جعفر واسع العلم كثير التأليف ". (٣) (قال ابن يونس فى تاريخه : كان ابو جعفر النحاس عالما بالنحو حازما وكتب الحديث عن الحسن بن غليب وطبقته. ولما آتى الى مصر سمع بها من ابى عبد الرحمن النسائى وغيره (٤) . وتصانيفه تزيد على الخمسين مصنفا ". (٥) ومن ابرز مصنفاته "كتاب معانى القرآن وكتاب أعراب القرآن — وهما كتابان جليلات اغنيا عما صنف قبلهما فى معناهما ". (٦) ولابى جعفر النحاس ايضا كتابا جليلا هو " التفاحة فى النحو ". (٧) ويقول د. احمد مختار عمر " انه ذو اهمية كبيرة وقد وضع تلبية لحاجة الناشئة وكتب فى اسلوب ميسر وطريقة سهله مبسطه . والكتاب يلخص النحو كله فى بضع ورقات ويقدم للدارس المبتدئ عصارة القواعد النحوية العلمية ضحيا جانبا كل ما لا يفيد فى تقويم

---

(١) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ١٠١ — الزبيدى : طبقات النحويين ص ٢٤

(٢) السيوطى : بغية الوعاه ص١٥٧

(٣) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ١٠١ — ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٤ ص٢٢٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٨٢ — السيوطى : بغية الوعاه ص١٥٧.

(٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٤ ص٢٢٤

(٦) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٨٢ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٢٨٨ — انظر

(٧) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٤ ص٢٢٤ — القفطى : انباه الرواه جـ١ ص١٠١ — ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٨٢ — حاجى خليفة كشف الظنون جـ١ ص٤٠٦

النطق وتصحيح البيان وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التي تمتلئ بها كتب السابقين ويعد هذا الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية في دراسة النحو العربي ". (١)

وهكذا كان لابي جعفر النحاس دور كبير في التجديد في مجال الدراسات اللغوية والنحوية وكانت مؤلفاته تشير الى عدم اقتصاره على التأليف والتنقيب والاقتداء بالمدرسة البغدادية وانما تجاوز ذلك الى تمثيل هذه الثقافة وهضمها ثم اخراجها في صورة مبتكره.

كانت مدينة الفسطاط " القنطرة التي عبرت عليها الثقافة العربية، في دراسات النحو واللغة من الشرق الى الغرب عن طريق النحاة المصريين امثال ابو العباس بن ولاد ومعاصره ابو جعفر النحاس — فقد كانت تلك المدينة ملتقى الدارسين من بلاد المغرب والاندلس للاخذ عن علماء النحو بها . وكان لهؤلاء الدارسين فضل كبير في رواج المؤلفات النحوية المصرية في بلاد المغرب والاندلس فقد نقلوها معهم الى بلادهم وحتى نهاية القرن الرابع الهجري كانت بلاد المغرب والاندلس تعتمد اعتمادا كليا في دراساتها العربية الاسلامية على مصر. ولم تنضج تلك الدراسات هناك الا على يد المبعوثين الذين زاروا مصر ودرسوا فيها . ثم عادوا الى اوطانهم يدرسون تلك المؤلفات ". (٢) ومن اشهر هؤلاء الدارسين " فضل الله بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن نجيح الكوني "المتوفى سنة ٤٠٣ هـ " من اهل قرطبة ورحل الى الشرق ولقي ابن ولاد وابن النحاس بمصر وسمع منهما ". (٣) ومنهم ايضا " قاضي قضاة الاندلس منذر بن سعيد بن عبد الله البلوطي " الذي رحل حاجا سنة ثمان وثلثمائة وروى بمصر كتاب " العين " عن ابي العباس بن ولاد بعد ان بخل عليه ابو جعفر النحاس ". (٤)

---

(١) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٦٤
(٢) احمد مختار عمر : السابق ص ٦٤
(٣) ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندلس ج١ ص ٣٩٦
(٤) القفطي : انباه الرواه ج١ ص ١٠٢ — ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٣ — ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندلس ج٢ ص ١٤٢ — الزبيدي : طبقات النحويين ص ٢٠٤

ومن أشهر التلاميذ الآخذين عن علماء الفسطاط " عبد الكبير بن محمد بن سعيد الجزرى العقرى" — الذى رحل الى المشرق وسمع بمصر من ابى جعفر النحاس" (١)
ومن نسطة الاندلس الذين أخذوا عن المصريين أيضا " محمد بن اسحاق بن منذر بن ابراهيم بن ابى عكرمة الداخل الى الاندلس قاضى الجماعة بقرطبة — رحل سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة • فسمع بمصر من أبى جعفر النحاس النحوى وانصرف الى الاندلس ومات سنة ٣٦٧ هـ ". (٢)

---

(١) ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندلس جـ١ ص ٢٤٩

(٢) ابن الفرضى : السابق جـ٢ ص ٨٠ — الزبيدى : طبقات النحويين ص ٣٣٦

٨ ـ ديوان الرسائل ودوره في تدعيم التعريب في مصر الاسلامية

كان الشعر يشغل مكانة هامة بين علوم اللسان العربي السائده بمدينة الفسطاط .. الا ان التقدير والاجلال كان للكلام المنثور الى جانب تقدير الشعر ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئا آخر مظلقا للملكة الشعرية ". (١)

وكان الانشاء أو الكلام المنثور فى صدر الاسلام مقصورا على مكاتبة الخلفاء وأمرائهم وقوادهم أو مع سواهم فى طلب حرب او صلح .. فلما صار الاسلام دولة تفرعت الكتابة الى أقسام اقتضاها تعدد مصالح الدولة وتفرع احتياجاتها . كان اهمها بالنظر الى الانشاء والبلاغة كتابة الرسائل ، وصاحبها يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة ومستودع أسراره .. ". (٢) وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالا للتمرين على اظهار صور البلاغة وأساليبها). (٣) التى تعنى على حد قول العلامة ابن خلدون (مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه ـ أو بمعنى آخر ـ تركيب الالفاظ المفرده للتعبير بها عن المعانى المقصوده ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال ليبلغ المتكلم حينئذ الغاية من أفادة مقصوده للسامع.) (٤)

كان للكتابة والكتاب شأن عظيم فى الدولة الاسلامية منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام .. فقد كان على بن ابى طالب وعثمان بن عفان من كتاب وحى النبى (صلعم) كما كان ابى بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن ابى سفيان يكتبون بين يديه فى حوائجه .. وكان المغيرة بن شعبه ، والحسين بن نمر يكتبان ما بين الناس.. كما كان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ماكان يكتبه من وحى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان حنظلة بن الربيع بن

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٤٢٢
(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية جـ٢ ص ١٢٧
(٣) متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٤٢٦
(٤) ابن خلدون : المقدمة ـ الفصل السابع والثلاثون ص ٥٥٤ ـ ٥٦٠

صيفى خليفة كل كاتب من كتاب النبى اذا غاب عن عمله • فغلب عليه اسم الكاتب وكان رسول الله (صلعم) يضع عنده خاتمه • ولما تولى الخلافة ابو بكر الصديق رضى الله عنه كان يكتب له عثمان ابن عفان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الارقم وحنظلة بن الربيع • وكان يكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت • وعبدالله بن الارقم • (١)

وبعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية بعد الفتوحات الاسلامية احتيج الى نظام يضبط امورها " ••• وكان عمر اول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام " • (٢) وربما أخذ هذا النظام من الفرس الذين كانوا قد سبقوا الدولة الاسلامية بزمن وبلغوا من الحضارة شأنا عظيما • فتذكر الروايات انه بعد ان وفد ابو هريرة الى أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب قادما من البحرين بمال كثير • احتار الخليفة فى عده فأقترح عليه احد الاشخاص • فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الاعاجم يدونون ديوانا لهم • فقال : دونوا الدواوين " • (٣) وبمرور الزمن تعددت الدواوين فى الدولة الاسلامية فكان منها ديوان الخراج والجند والخاتم (انشأه معاوية بن ابى سفيان " • ثم كثرت وزاد انتشارها فى الدولة العباسية مثل ديوان الاحداث والبريد والزمام •• وديوان الانشاء او الرسائل الذى كان اهم تلك الدواوين من الناحية الادبية وكانت مهمة متولية اذاعة المراسيم والبياءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة •• " (٤) وقد استوجبت حالة مصر بعد ان تم فتحها على يد عمرو بن العاص واستقرار العرب بها ضرورة وجود مثل هذا الديوان • " فقد كانت مصر مقسمة اداريا الى مصر العليا والصعيد ومصر السفلى أو اسفل الارض • وهذان

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٩ و ١٠

(٢) الجهشيارى : السابق ص١١

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١ — الديوان فى الاصل كلمة فارسية الجواليقى : المعرب ص٤ ١٥) — اما معناه " فهو سجل او دفتر او مجتمع الصحف يكتب فيها اسماء رجال الجيش واهل العطاء " وهو موضع لحفظ مايتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيش والعمال " • الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٩١

(٤) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٢٢٣

القسمان الرئيسيان كانا مقسمين أقساما أو كورا • وكان بها ثمانون كوره وهذه مقسمة الى قرى تبعا لتقسيم الرومان ونظمهم الادارية •• وكان يحكم الكورة صاحب الكورة الذى يعمل تحت اشرافه موظفون• وكانت اللامركزية متعدمة فى الولايات اى ان جميع موظفى الولاية ورؤساء الكور تحت سلطة الوالى الذى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة • ولقد احتاج الامر الى ان يكون للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى تحرير رسائله الى مختلف اقسام مصر وكورها والى الخليفة نفسه• ولذا نرى فى أخر الرسائل والكتب التى كان يرسلها الولاه اسماء الكتبه الذين كانوا يحررونها مما يدل بوضوح على انه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل ، أو ديوان انشاء ؛ (١) ويبدو انه كان هناك مراسلا بين الفسطاط ودار الخلافة سواء فى المدينة أو دمشق أو بغداد — ولكن يبدو ان ذلك كان بسيطا فى اول الامر وكانت تلك الرسائل قليلة محدوده لضعف شأن ديوان الانشاء بالفسطاط فى بداية عهد الولاه• قال القلقشندى : (••• لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية قاصرة عن التشبيه بديوان الخلافة ، اذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز وفخمة السلطان• ونيابة مصر • بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها • والولايات الصادرة عن النواب وتصاغرة متضائلة بالنسبة الى مايصدر من ابواب الخلافة • فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولاتنصرف الهمم لتدوينه "• (٢) وربما ترجع ضآلة هذا الديوان وعدم قيمته فى أول الامر الى ان القائمين بأمر الدواوين فى تلك الفترة كانوا من الاقباط الذين يعرفون لغة اهل البلاد • وظل هذا الامر قائما حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك وكانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وصرف الكاتب القبطى " اثناس " وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص٢٨ــ٣١ ــ وما ذكرته من المصادر القديمة•

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج١١ ص٢٨ ــ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٩

سنة ٨٧هـ .. " [١] وكان المصريون المسيحيون قد انتشروا فى وظائف البـــلاد وكان منهم بعض ولاة الاقاليم حتى عهد عبد العزيز بن مروان " مثل بطرس الوالـــى على الصعيد " وحاكم مريوط الذى كان يدعى تاوفاسى — كما كان فى ديوان الحكومة المركزية فى الفسطاط او حلوان كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلـــى وهما " اثناسيوس واسحاق اللذين كانا فى عهد عبد العزيز بن مروان) . [٢] وقـــد اقتضت الحالة العامة فى البلاد قبل تعريب الدواوين ضرورة وجود مثل هـــــذا النظام حتى يتسنى للحاكمين والمحكومين مرحلة انتقالية لتدبير امور الدولة التى كانت لغتها الرسمية " اليونانيةـ والعامية القبطية " . وتشير اوراق البردى حتى بعـــد تعريب الدواوين (٨٦هـ — ٩٦ هـ) فى عهد الوليد بن عبد الملك وولاية عبد الله ابن عبد الملك الى وجود تلك اللغات الثلاثة " اليونانية — القبطية — العربيـــة " والجزء الاول من مجموعة اوراق البردى العربية يشير الى التدريس بتلك اللغـــات فنجد احيانا نص الوثيقة باليونانية وشرح باللغة العربية ومجموعة اخرى بالعربيـــة والقبطية . [٣] وكانت الكتابات العربية فى معظم هذه الطرز فى تلك الفتـــرة . لاتتعدى سطرا او سطرين تتضمن " بسم الله الرحمن الرحيم " . لا اله الا الله وحده ومحمد رسول الله ثم أسم الوالى أو بعض الايات القرآنية " . [٤]

كانت أول الرسائل (رسالة عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين الخليفة عمـــر بن الخطاب بعضها يتصل بالفتح وطلب المدد وبعضها يتصل بوصف البلد وما فيها من مدن .. فكان منها رسالته اليه فى وصف مصر بعد فتحها " . [٥] ووصـــــف

---

(١) الكندى : الولاه ص٥٨ — ٥٩ — المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٨ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢١٠

(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص ٩١ — وما ذكرته من المصادر القديمة

(٣) جروهمان : المرجع السابق جـ١ ص ١١—١٥ طراز ٣٢

(٤) جروهمان : المرجع السابق جـ١ ص ١١—٢٧

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٢ — السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٨٨

الاسكندرية فى رسالة اخرى • (١) — كما كتب اليه يصف البحر ". (٢)

وكان لولاة مصر الاقوياء كتاب ينوبون عنهم فى تحرير الرسائل والكتب لارسالهـا الى الولايات المختلفة وقد تبوأ هولاء الكتاب أرفع المناصب وصار لهم شأن عظيم فـى ولاية مصر، فقد كان مجاهد بن جبر مولى بنى نوفل كاتبا فى مصر أيام عمرو بن العاص، وقد استخلفه عمرو على الخراج حينما خرج الى المدينة فسأله عمر بن الخطاب من استخلفت ؟ فقال : عمرو استخلفت مجاهدا • فقال عمر : نعم كاتب وان القلم ليرفع صاحبه ". (٣) وكان وردان الرومى مولى عمرو بن العاص كاتبا له وكان يعرف اليونانية وهو الذى كتب عهد الامان الذى أعطاه عمرو للمصريين • (٤)

وفى عهد الوالى الاموى عبد العزيز بن مروان ٦٥هـ — ٨٦هـ ، جمعت له الصلاة والخراج وبلغت مصر فى عهده شأوا عظيما • وقد جمعت له المغـرب" (٥) فكثرت مراسلاته واحتاج الى كتاب ينوبون عنه فى تحرير رسائله فكان له كتاب عديدون أشهرهم (يناس بن خنايا وكان كاتبا ماهرا من أهل الرها ". (٦) ومن كتـاب عبد العزيز بن مروان ايضا " ابن رمانه الذى بلغ مكانة عالية عند عبد العزيز بن مروان وجمع ثروة طائلة وقد بنى له عبد العزيز دارا وغرس لهم نخلهم الذى كان لهم بناحية حلـوان ". (٧)

---

(١) ابن سعيد : المغرب جـ١ ص٣٧ — المقريزى : الخطط جـ٤ ص٢٧

(٢) المسعودى : موج الذهب جـ١ ص٢١٠ — ابن سعيد : المغـرب جـ١ ص٣٧ •

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٧٩

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص٩٣ — الطبرى : تاريخ الامم والملـوك جـ٤ ص٢٢٩ — القلقشندى : صبح الاعشى جـ١ ص١٣ — ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٤ — سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسـلام ص١٧ — ١٨

(٥) الكندى : الولاه ص٤٨ — ٥٢

(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٣٤

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٠٣

وفى عهد قرة بن شريك الذى ولى مصر (٩٠-٩٦ هـ) كان لديه عدد من الكتاب " لان الوالى كان يتعامل مع عماله فى الكور والاقاليم عن طريق الكتابة والمراسلات وكان الكتاب هم الذين يتولون هذه الاعمال • فنجده يرسل كتابا الى عامله فى كورة أشقوه (من اعمال اسيوط يوصيه بدفع الجزية الى جسطال كورته والى موازيت القرى " العمد " • وفى رسالة أخرى يوصيه فيها بالعدل بين الناس والا يفعل شيئا يكرهونه • وفى رسالة ثالثة يأمره بالقبض على المجرمين " • (١) وكان للخصيب بن عبد الحميد كتاب يكتبون عنه (وكان الخصيب امير مصر على الخراج من قبل امير المؤمنين هارون الرشيد وتنسب اليه منية الخصيب بالوجه القبلى • (٢) وكان جابر بن داود جد البلاذرى يكتب له " • • (٣)

ولم يكن أمر الكتابة قاصرا على الولاء فقد كان العلماء والوجهات يتخذون كتابا يتولون الكتابة عنهم ومنهم من صحب هؤلاء العلماء وصارت له مكانة علمية مرموقة • ومن أبرز هؤلاء " عبد الله بن صالح (المتوفى سنة ٢٢٢هـ) الذى كان يكتب لليث بن سعد وجيه مصر وعالمها " • (٤) وكان عبد الله بن صالح أقرب رجل الى الليث وكان يدخل معه فى ليله ونهاره وفى سفره وحضره ويخلو معه فى أوقات لا يخلو معه غيره " • (٥) " وقد استمرت صلة عبد الله بن صالح بالليث بن سعد مايقرب من عشرين عاما " • (٦)

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٧ •

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٠٥

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٥٦

(٤) الجهشيارى : المرجع السابق ص ٥٤٥ - السيوطى : طبقات الحفاظ جـ١ ص ٨٨ - الذهبى : ميزان الاعتدال جـ٢ ص ٤٦

(٥) ابن سرور المقدسى : الكمال فى اسماء الرجال جـ٢ ص ٢٥٦

(٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ٥ ص ٢٥٨

وكان للقاضى البكرى (هاشم بن ابى بكر البكرى) الذى ولى قضاء مصر من قبل محمد الامين سنة اربع وتسعين ومائة ". (١) اكثر من كاتب مثل احمد بن هتيم الهمدانى من الكوفة ومحمد بن عميرة النخعى كوفى ايضا ، وكان عمرو بن خالد يلزمه ويترسل اليه ، وكان ايضا يكتب له ". (٢) ويبدو انه كان للقاضى البكرى بعض الكتاب الاقباط الذين كانت لهم مكانة فى نفسه . فيذكر الكندى عن حديث ليحيى بن عثمان (.. انه لم يكن احدا أحب الى البكرى من ادريس الخولانى ومقارة الكاتب وغالبا ما كان يحضر مجالسه ". (٣)

وما ان شارفت الدولة الاموية على نهايتها حتى كانت الكتابة الديوانية قد صار لها اصول وقواعد تقننت ووضعت اصولها على يد احد ممن نبغوا من طائفة كتاب الرسائل بها وهو آخر هؤلاء الكتاب (عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب ـ كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين . وقد كان عبد الحميد هذا فى بداية حياته معلم صبية يتنقل فى البلدان وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذى سهل البلاغة فى الرسل ". (٤)

وقد أوضح فى رسالة موجهة الى الكتاب بيان بما يكون عليه هؤلاء الكتاب من أخلاق وفضائل . وبيان بما كانوا يقومون به وما يلتزمون بآدائه من الاعمال منها قوله : (... فجعلكم معشر الكتاب فى اشرف الجهات ، أهل الادب والمروات والرزانة ونصحهم بقوله : أرووا الاشعار وأعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ماتسمو اليه نفسكم ..). (٥) ـ كما نصحهم بالمنافسة فى صنوف العلم والادب وبالتفقه فى الدين وان يبدأو بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ". (٦) ويبدو ان

---

(١) الكندى : الولاه والقضاه ص ٤١١ـ٤١٢

(٢) الكندى : الولاه ص ٤١٥ـ٤١٦

(٣) المرجع السابق ص ٤١٦

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٦ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص ٤٢٦

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٨ ـ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٧٤

(٦) الجهشيارى : السابق ص ٧٤ـ٧٥

ديوان الرسائل بمصر قد صار له شأنا منذ أواخر عهد الولاه الامويين بمصر وبداية عهد الولاه العباسيين بها وصار يدمج فى ديوان الانشاء او يعرف بديوان الانشاء وكان متولى هذا الديوان لايقل شأنا عن القاضى ـ قال الكندى (.. لما قدمت المسوده ردوا خير بن نعيم عن القضاء فأتاه عبدالملك بن مروان يخاصم ابن عم له فقعد على مفرشه فقال : قم مع ابن عمك فقال : كأنك وجدت علينا ان صيرناك كاتبا بعد القضاء .. وقام ولم يخاصم وكان عبد الملك بن مروان النصيرى قد ولى خيرا ديوان الرسائل بعد ان كان قاضيا ..)[1] ويشير المقريزى الى وجود هذا الديوان وان كان لم يحدد لوجوده تاريخا معينا ـ فيقول (.. انه لما كانت مصر امارة كان بها ديوان البريد ويقال لمتوليه صاحب البريد كما كان لبعض امراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل ..)[2]

كما يشير القلقشندى ايضا الى وجود ديوان الرسائل ويوضح مدى ارتباطه بديوان الانشاء ـ فيقول (.. وكان هذا الديوان " ديوان الانشاء فى الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل " تسمية له باشهر الانواع التى تصدر عنه لان الرسائل اكثر الانواع كتابة للانشاء وأعمها ..).[3]

وصار لهذا الديوان (الانشاء) شأن كبير بمصر ، ونبغ بعض الكتاب المصريين الذين صار لهم شأن عظيم فى ميدان الكتابة الانشائية (فقد كان غيلان بن مهران بن مسلم الدمشقى كاتبا من أصل مصرى وكانت له شهرة واسعة وذاعت رسائله . وقد عده الكندى من مفاخر مصر وفضائلها .. وأطلقوا عليه لقب رئيس البلاغة ".[4] واليه تنسب الغيلانة الذين زعموا ان الايمان

---

(١) الكندى : الولاه ص٣٥٦
(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٦٦
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١ ص٩٠
(٤) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص٤٢

هو المعرفة الثابتة بالله وقد تولى غيلان سنة ١٥٠ هـ "(١) وكان رجال الادب والكتاب يقتبسون من رسائله ويستعينون بها في كتبهم وأحاديثهم .. "(٢) وقد حرص الادباء على الاستعانة برسائله في تنقيح اسلوبهم في الكتابة والترسل ويشير الجهشيارى الى مايؤيد ذلك فيقول (.. وفد عبيد الله بن الحسن الهاشمي على المهدى معزيا عن ذلك فيقول (.. وفد عبيد الله بن الحسن الهاشمي على المهدى معزيا عن المنصور ومهنئا بالخلافة فتكلم بكلام قد أعده اعجب الناس به واستحسنوه فبلغه ذلك، فقال لشبيب بن شبه انى والله ما ألتفت الى هؤلاء ولكن سل أبا عبيد الله عما تكلمت فسأله شبيب فقال له : ما أحسن ما تكلم ولكنه لم يتعد بكلامه ان اخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاما فأخبر شبيب عبيد الله بذلك ، فقال له ابوه .. فوالله ما أخطأ حرفا ولاتجاوزت ما قال .. ". (٣)

ديوان الرسائل في العصر الطولونى :

كان حال ديوان الرسائل (الانشاء) في مصر بادئ ذي بدء بين الاضطراب والجمود ، حتى ظفر ابن طولون بولاية مصر ،فأنشأ فيها لنفسه ديوان رسائل وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة ادبية تماثل ما نشأ في بغداد حول دواوين الرسائل) (٤) فقد كانت الرسائل الديوانية هي مقياس العرف اللغوى العام ". (٥) ولهذا كان حظ النثر الفنى أكبر من حظ الشعر ". (٦)

---

(١) عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص٤٢

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٤

(٣) الجهشيارى : المرجع السابق ص ٤٤

(٤) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربى ص ٦ ـ ٦١

(٥) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى جا ص ٢٦١

(٦) احمد امين : ظهر الاسلام ص١٧٣

وكان لقيام ديوان الانشاء بمصر فى هذا الوقت أكبر الاثر فى حياة النثر الفنى بها لالتحاق الكتاب المهره به. وكان وجود هذا الديوان دافعا قويا فى تنافس كتاب النثر الفنى للالتحاق به مما كان له اعمق الاثر فى نهضة النثر الفنى فى تلك الفترة.. ويبدو ان التفكير فى انشاء هذا الديوان كان طبيعيا لاستكمال عناصر النهضة بمصر فى عصر الطولونيين. وخاصة بعد استقلال ابن طولون بمصر حتى تكون لامارته المستقله مراسلاتها ولغتها الدبلوماسية الخاصة بها. ويشير القلقشندى الى ذلك فيقول (ان احمد بن طولون هو اول من أخذ فى ترتيب الملك وأقامة شعار السلطنة بالديار المصرية. ولما شمخ سلطانه وأرتفع شأنه أخذ فى ترتيب ديوان الانشاء لما يحتاج اليه فى المكاتبات والولايات). [1]

وقد اشتهر عدد كبير من كتاب الدواوين فى عهد الدولة الطولونية مثل " ابن عبدكان ". [2] واحمد بن محمد الواسطى. [3] ويعقوب بن اسحاق [4] واحمد بن ايمن. [5] .. وغيرهم وقد كان أشهر هؤلاء الكتاب وأعظمهم مكانة هو (ابن عبدكان ـ ابو جعفر محمد بن مودود وكان احمد بن طولون قد أستكتبه فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقداره ". [6] وقد كان بليغا مترسلا فصيحا وله ديوان رسائل كبير). [7] وقد بلغ من علو منزلته الادبية ان اهل مدينة السلام (بغداد) كانوا يحسدون اهل مصر. عليه ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثله .. ". [8] ويعد هذا الامر ذو دلالة ادبية خطيرة فبعد ان كانت العراق تستأثر بالادباء والكتاب المهره . أصبح

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١١ ص٢٩ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص١٧٣

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١١ ص٢٨

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢ ـ ابن سعيد : المغرب ص٨٣

(٤) الجهشيارى : السابق ـ ابن الداية / المكافأة ص ٢٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٩ ـ وكان ابن ايمن يكتب للعباس بن خالد البرمكى

(٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١١ ص٢٩

(٧) ابن النديم : الفهرست ص٢٠٣

(٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٣ ص١٧

للولايات المستقلة ومنها مصر الطولونية شأن آخر فى اجتذاب هؤلاء الادباء مثل ابن عبدكان هذا الذى لم تقتصر شهرته الادبية فى كتابة الرسائل على مصر فقط بل تعدتها الى بلاد الشام — قال ياقوت الحموى (٠٠ ان الصاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال الرجل رسائل ابن عبدكان — قال ومن ؟ قال رسائل الصابى ٠٠ ". (١)

وقد بلغ من شهرة ابن عبدكان الادبية ان صارت رسائله تقاليد يسير عليها الكتاب من بعده ، ويتابعوه فيها ". (٢) وبعد تقلد ابن عبدكان لديوان الانشاء صار له أثر بعيد فى عالم الادب — فكان يقوم بامتحان من يرغب فى الالتحاق بديوان الانشاء الذى كان قد بلغ منزلة رفيعة جعلت الكثير من الكتاب المراقبين يتلمسون السبل للالتحاق به ، فيروى ياقوت حديثا عن ابن زولاق المؤرخ المصرى فحواه : " ان ابا يعقوب اسحق بن نصير البغدادى قدم من العراق على ابن عبدكان ، والتمس التصرف — فقال ابن عبدكان فيم تتصرف ؟ فقال فى المكاتبات والاجوبة والترسل وكان بين يدى ابن عبدكان كتب قد وردت فقال له خذ هذه واجب عليها فأخذها ومضى الى ناحية الدار ، فأجاب عنها فلما رآها وتأملها الحقه وأجرى عليه اربعين دينارا فى كل شهر فلم يزل معه حتى توفى ابن عبدكان ٠٠ ". (٣)

ومن اشهر رسائل ابن عبدكان " رسالته التى كتبها احمد بن طولون الى ابنه العباس اثناء تمرده وخروجه على طاعة ابيه ٠٠ " (٤) بدأها بقوله : (من احمد بن طولون مولى امير المؤمنين الى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ،

---

(١) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١ ص ٢٥٨

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٧ — القلقشندى : صبح الاعشى جـ١١ ص ١٦٠ — ١٦٤

(٣) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٢ ص ٢٣٧

(٤) الكندى : الولاة ص ٢٢٠ — ٢٢٤

المفسد لكسبه المادى لطوره الجاهل لقدره الناكص على عقبه المركوس فى فتنتـــه المنجوس من حظ دنياه وآخرته .. »(١) يقول الدكتور محمد كامل حسين (ان فى هذا الخطاب تتجلى صورة الكتابة العربية السليمة التى تأثرت بما كان فى مصــر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الاجنبية التى نقلت الى العربية). (٢)

وان كان ابن عبد كان قد وصل الى مكانة ادبية رفيعة فى عهد الدولـــة الطولونية فكان ذلك راجعا الى اهتمام الطولونيين الزائد بكتابهم ، وقد لعـــب بعض هؤلاء الكتاب دورا خطيرا فى النزاع والصراع الذى قام بين العباس بن احمـــد بن طولون ووالده حين تمرد العباس وشق عصا الطاعة عن ابيه. وكان كل من احمـــد بن محمد الواسطى وابن جدار قد لعب دورا بارزا فى هذا الصراع ـ فقد كـــان " الواسطى مختصا باحمد بن طولون ـ فقد كان رفيقا له قبل تقليده مصر ودخـــل معه سنة ٢٥٤هـ عند تقلده الحكم فيها). (٣) كما كان ابن جدار مختصا بالعباس بن احمد بن طولون ووزيرا له). (٤) ويبدأ تمرد العباس وخروجه على والـــده حينما عزم احمد بن طولون على فتح الشام. فخرج فى جيوشه سنة اربع وستيـــن ومائتين واستخلف ابنه العباس على مصر وضم اليه احمد ابن محمد الواسطى مدبـــرا ووزيرا). (٥) وكان ابن جدار وطائفة معه ممن حرضوا العباس بان يتمرد عـــن ابيه ويخرج عن مصر . فلما علم الواسطى بذلك كتب الى احمد بن طولون يخبـــره بذلك وبلغ العباس ذلك فعزم على ما أشار عليه اصحابه وترك العباس الواسطـــى بمصر مقيدا ..) (٦) ويبدو ان احمد بن طولون كان مقدرا لاخلاص الواسطـــى له وخاصة فى ظروف خروج ولده العباس عليه ". فجعله كاتبه الخاص ووزيره وكثيـــرا

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥٠ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ج٧ ص٥ ـ البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠

(٢) محمد كامل حسين : فى الادب المصرى الاسلامى ص٩١

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص٣٢ ـ ٤٢ ـ ابن سعيد : المغرب ج١ ص٨٣

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص٢١٩

(٥) الكندى : السابق ص ٢١٩

(٦) الكندى : السابق ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

ماكان يرسله نائبا عنه الى بغداد . (١) ـ ولم يبلغ الواسطى تلك المكانة بمطلبه أو قدراته الادبية لانه كان ضعيفا فى اللغة ، ليس على دراية كافية بالثقافة الادبية الواسعة ، اذا ماقورن بابن عبدكان (وقد كان كتاب احمد بن طولون يزورون على الواسطى ويحكوا عنه ان الفاظه عامية وانه يغلط فى كتبه ويكثر فاللحن فيها) . (٢) ، وقد أورد البلوى بعضا من رسائله ". (٣)

أما ابن جدار فقد كان أرفع من الواسطى شأنا ، فقد كان من الكتاب الممتازين (قال الصولى عنه : لم يكن بعصر مثله فى وقته حسن البلاغة وكانت له مكاتبات كثيرة حسنة). (٤) فكان قد كتب رسالة الى احمد بن طولون على لسان ولده العباس حينما خرج على طاعة ابيه . يقال انها أثارت حنق احمد بن طولون كثيرا على ابن جدار .. وهى رسالة طويلة تبدأ بـ (.. الى امير المؤمنين ابى العباس احمد طولون مولى امير المؤمنين من عبدالله مولى الله المتمسك بطاعة الله المنحرف عن زيغ ظلم المعصية الى وضوح سر البصيرة القابل من الله موعظته والعامل بما امر به . اذ يقول جل ثناؤه " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " ... سلام على الامير وعلى من استرجع وادكر وفكر وازدجر) (٥)
ثم تمضى باقى الرسالة فى سرد مايبغيه كاتبها منها وتوضح كتابته ماينطوى عليه أسلوبه فى الكتابة ـ فقد برهنت على طول نفسه وقدرته على الاسترسال والتوسع فى مناحى القول مرة بالترادف ومرة باختراع المعانى .. مع التفات الى القرآن أو اقتباس منه .. ". (٦)

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٤٥ ـ البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٩ ـ ٤٢ ـ ابن سعيد : المغرب ص ٢٥١
(٢) البلوى : سيرة احمد بن طولون ٢٤٦ ـ ٢٤٧
(٣) البلوى : السابق ص ٢٦٥
(٤) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٧ ص ١٨٢
(٥) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٢٥٦
(٦) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص٢٦٨

وقد كان لبعض المصريين مكانة أدبية رفيعة خولتهم شرف تلقد هـــذا الديوان فى عهد الدولة الطولونية مثل أسرة بنى المهاجر التى شاركت فى ديوان الانشاء بأكثر من فرد مثل : " الحسن بن محمد بن ابى المهاجر وأخوتـــه بنو المهاجر على وأبو القاسم وأبو عيسى . " (١) وهم ممن ينتمون الى عبد الحميـد الكاتب وكانوا من عقبة الذين استوطنوا مصر بعد موقعة الغراب " (٢)

وقد كان لاحمد بن طولون أثر كبير فى تشجيع أمثال هؤلاء المصريـــين على الكتابة والالتحاق بديوان الانشاء رغم مستواهم الادبى المتواضع اذا ماقورنـــوا بأسلافهم ممن تقلدوا هذا الديوان . وكانت غاية ابن طولون من ذلك توخى مايحمد عقباه منهم . وتذكر الروايات انه لما استكتب جعفر بن عبد الغفار المصرى حينمـــا أنفذ احمد بن محمد الواسطى الى بغداد ـ أضطرب ولم ينهض بما أسند اليه . فقال ابن خاقان لاحمد بن طولون صديقه : الامير أيده الله يحتاج الى كاتـــب أوفى وزنا من هذا الكاتب . فقال ابن طولون : أنا أحتمله وأقنع به لانه مصـــرى . فقال له ابن خاقان : والامير أيده الله يرى ان الكاتب المصرى أكتب من العـــراقى وأنهض بما يتولاه . فقال له : أعلم ان أصلح الاشياء لمن ملك بلدا ان يكـون كاتبه منه . فانه يجمع بذلك اشياء تحمد عاقبتها منها : ان عيال الكاتب وشملـــه وكل ما يملكه معه فى بلده ومنها ان جميع ما يكسبه فيه . وان كان ممن يرغب فـــى تجارة كانت تجارته فيه أوفى شراء عقار أو بناء كان منه وهم مستقرون فى خدمـــتى . والكاتب الغريب ليس كذلك لانه يعتقد المستغلات فى البلد النائى عنى وعنه ويستبطن الرباع ـ ومن يشير عليه ان يعمر بلده الذى يحصل فيه وهو وكذلك فى كل حـــال متطلع الى بلده فهذا الذى زهدنى فى كتاب العراق بما فيهم من الصناعة وتقدمهم فى الكتابة " . (٣)

---

(١) D. Zaky Hassan: Les Tulunides, PP. 286 - 287.
الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤ هـ ٥٥

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢

(٣) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٥٦ ـ ابن سعيد : المغرب جـ١ ص ٨٣

يتضح من النص السابق ان احمد بن طولون كان قد زهد فى كتاب العراق خشية تقلبهم — ويبدو انه كان لا يأمن جانبهم — فقد كشف خروج العباس عن طاعة ابيه عن تمرد ابن جدار وانضمامه للعباس فقتله ابن طولون وفر الواسطى الى العراق وقتل خمارويه الحسن بن مهاجر . . (١)

كان ابن طولون يأنس بالكتاب المصريين ، فقد كانوا عند حسن ظنه وكان يشملهم برعايته (فقد كان احمد بن طولون يعجب بالحسين بن مهاجر ويسأل عنه) . (٢) وقد تمتع ابن مهاجر بكثير من الخلال الحميدة التى طالما صارت ترفع من قدره — وتذكر الروايات (انه قد جرى ذكر الحسين بن مهاجر فى مجلس ابن عبدكان فقال عنه . عندما طعن عليه الحاضرون : " الصدق اجمل ما يؤثر عنه ، فيه فضل وانه لعلى أفضل طريقة . . . وابن مهاجر وقور النفس مستصغر لنصيحة من ينصحه بعيد الغور ، لا يؤثر على تدبير مال صاحبه وعلى ما زين حاله عنده شيئا من أعراض الدنيا " . (٣) ولا شك ان اتاحة الفرصة للكتاب المصريين كان له أثر كبير فى النهوض بالنثر الفنى بمصر فان كان هؤلاء الكتاب لم يبلغوا مكانة الكتاب العراقيين الادبية الا ان وجودهم بديوان الانشاء كان حافزا لهم فى اتقان الاساليب الادبية العربية ليبلغوا مكانة هؤلاء الكتاب العراقيين .

ديوان الرسائل فى عهد الدولة الاخشيدية :

وفى عهد الدولة الاخشيدية نشطت الكتابة الديوانية نشاطا لا يقل عما كان فى عهد الدولة الطولونية — فقد كانت رسائل القرن الرابع الهجرى بصفة عامة " وهو القرن الذى كانت تعاصره الدولة الاخشيدية بمصر هى أدق آية من ازدهار

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٢ — ٨٣

(٢) ابن سعيد : المغرب جـ ١ ص ١٥٠

(٣) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٤٦

الفن الاسلامى ومادتها هى أنفس ما عالجته يد الفنان وهى اللغة). (١) وبمصر كان أحد ائمة اللغة والنحو وهو " ابو جعفر النحاس ". قد وضع كتابا يقدم فيه ألوانا من الدراسة الواسعة وما يحتاج اليه المشتغلون بها من أدوات وأرشادات وهو كتاب (صناعة الكتاب). (٢) وقد فقد هذا الكتاب ـ واورد القلقشندى نتفا من هذا المؤلف المفقود يتبين منها ان غاية مايصبو اليه النحاس فى مؤلفه هو سلامة اللغة والالفاظ حتى تأتى الرسائل كاملة الرواء بينة الاعراب واضحة الاداء.. "(٣) كما يعرف الكتاب انواع هذه الرسائل بحسب المكتوب اليهم بها وموضوعاتها كما بين مما يجمل فى افتتاح رسائل الامراء وما يلزم ذلك من دعاء وما يجب فى الكتابة الى القضاء والنظراء. وما يحسن الى الابناء والفتيان والنساء. كما بين الفاظ الافتتاح وألفاظ الختام ". (٤)

كان هناك عدد من الكتاب فى ديوان الاخشيديين ويبدو هذا واضحا حينما طلب الاخشيد من كتابه ردا على رسالة ملك الروم. فكتب له عدد من كتابه اجوبة " رسائل " فاختار منها كتاب النجيرمى ". (٥) ومن كتاب الاخشيد يبن محمد بن عبدالرحمن الروزبارى وكان يعاون الفضل بن جعفر بن الفرات (ابن حنزابه) كما كان على بن صالح من كتاب كافور والكاتب البغدادى سهل بن محمد وابو الحسن ابن جابر وكان يكتب لعبيد الله بن طغج الاخشيد). (٦)

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جا ص ٤٢٩

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ٤ ص ٢٢٤

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٨ ص ١٢٨ ـ ١٤٥

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٨ ص ١٤٤

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٧ ـ القلقشندى : صبح الاعشى جـ٧ ص ١٠ ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٢٥

(٦) ابن سعيد : المغرب جا ص ١٨٨ ـ ١٨٩

وقد وفد الى الفسطاط احد الكتاب المشهورين ملتحقا بديوان الانشاء وهو " على بن محمد بن نصر بن بسام " الكاتب الذى كان حسن البديهة شاعرا ماضيا ، أديبا لا يسلم من لسانه أحد ، وهو من أهل بيت الكتابة وله ديوان رسائل وتقلد الديوان بمصر ". (١)

وكان لبعض هؤلاء الكتاب شأن عظيم فى تبوأ أعلى المناصب فى مصر فى تلك الفترة " فقد كان على بن محمد المشهور بابن كلا " بمثابة وزير وسفير للاخشيد " فقد بلغ منزلة رفيعة عنده وكان كاتبه فى دمشق قبل ان يتولى مصر فلما أستقل بمصر أرتفع شأنه فى دولته ". (٢)

كان اهم وأعظم هؤلاء الكتاب شأنا فى عهد الدولة الاخشيدية (ابراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى الكاتب وكان طما بعلوم العربية . فقد أخذ النحو عن الزجاج فى العراق وتخرج عليه من المصريين أبو الحسن المهلب وجناده اللغوى)" . واعظم رسالة الكتاب الذى ارسله الاخشيد الى الطانوس عظيم الروم . وكان قد ورد الى الاخشيد كتاب الطانوس عظيم النصرانية يفتخر فيه . ويزعم ان له المنقطيه فى خطابة اذا جرت عادته الا يخاطب الا خليفة " ـ فقرئ هذا الكتاب على الاخشيد فطلب الى كتابه اعداد رد عليه . وكتب جماعة منهم . ووقع اختيار الامير على الرد الذى اعده النجيرمى . فأرسله الى حاكم بيزنطه . وقد أعجب النجيرمى نفسه بالكتاب فنسخ منه نسخا وانفذها الى البصرة وأعمالها يفتخر بها ..) . (٣) وهى رسالة طويلة تظهر فيها ثقافة النجيرمى التاريخية ". (٤)

---

(١) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ١٤ ص ١٣٩

(٢) ابن سعيد : المغرب جـ١ ص ١٥٦ـ١٦٥ـ١٩٠

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٦ ـ السيوطى : بغية الوعاه ص ١٨١ ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص٣٢٥

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٧ـ١٧٢ ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص٣٢٥ .

ـ مصادر الرسالة ـ

اولا ـ المصادر الاصلية

ثانيا ـ المراجع العربية الحديثة

ثالثا ـ المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية

رابعا ـ المراجع الافرنجية .

اولا : المصادر الاصلية

١ـ ابن الاثير (ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المتوفى سنة ٦٣٠هـ)

أ ـ اسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ ١٥جزاء ـ القاهرة ١٩٣٨م

ب ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ـ القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.

ج ـ الكامل فى التاريخ ١٢ جزء ـ بولاق ١٢٩٠هـ

٢ـ الازرقى (المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩م) او (٢١٩هـ/ ٨٣٤م) أو ٢٢٣هـ / ٨٣٨م)

ـ اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ـ جزءان ـ المطبعة الماجدية بمكة جـ١ ص ١٣٥٢هـ ـ جـ٢ سنة ١٣٥٣هـ

٣ـ الاصطخرى (ابراهيم بن محمد المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ـ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى).

ـ كتاب مسالك الممالك ـ ليدن ١٩١٧م.

٤ـ الاصفهانى (ابو الفرج ـ المتوفى سنة ٣٥٦هـ)

ـ الاغانى ـ القاهرة (دار الكتب المصرية).

٥ـ ابن ابى اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجى المتوفى سنة ٦٦٨هـ)

ـ عيون الانباء فى طبقات الاطباء ـ جزءان ـ القاهرة ١٣٠٠هـ

٦ـ الانصارى (صفى الدين احمد بن عبد الله الخزرجى المتوفى بعد ٩٢٣هـ)

ـ خلاصة تذهيب الكمال فى اسماء الرجال . القاهرة ١٣٢٢هـ

٧ـ ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد الحنفى المتوفى ٩٣٠هـ)
ـ كتاب تاريخ مصر المعروف باسم " بدائع الزهور فى وقائع الدهور "
٣ اجزاء ـ القاهرة ـ بولاق ١٣١٢ هـ ـ ١٨٩٤م.

٨ـ البخارى (محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦هـ)
أ ـ الجامع الصحيح ـ مطابع دار الشعب ٩ اجزاء ـ القاهرة
١٣٧٨هـ.
ب ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ الطبعة الاولى ـ
القاهرة ١٣٢٥هـ.

٩ـ البلوى : (ابو محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى ـ المتوفى فى
القرن العاشر الميلادى).
ـ سيرة احمد بن طولون ـ تحقيق محمد كرد على ـ دمشق /
المكتبة العربية ١٣٥هـ / ٩٤٠م.

١٠ـ البلاذرى (ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى
المتوفى ٢٧٩ هـ)
ـ فتوح البلدان ـ القاهرة ١٣١٨هـ ـ ١٩٥٦م

١١ـ ابن تيمية (ابو العباس احمد بن عبد الحليم)
ـ مقدمة فى اصول التفسير ـ دمشق / مطبعة الترقى ١٩٣٦م.

١٢ـ الثعالبى (ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى المتوفى
٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)
أ ـ يتيمة الدهر ـ ٤ اجزاء ـ القاهرة ١٩٤٧م.
ب ـ لطائف المعارف ـ ليدن ١٨٦٧م.

١٣ـ الجاحظ (ابو عثمان عمر بن بحر بن محبوب المتوفى ٢٥٥هـ)
ـ البيان والتبيين ج ١ ـ القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ٠

١٤ـ الجرجانى : التعريفات ـ القاهرة ١٢٨٣ هـ

١٥ـ ابن الجزرى : (شمس الدين احمد بن محمد المتوفى ٨٣٣هـ)
أ ـ النشر فى القراءات العشر ـ دمشق ١٣٤٥هـ
ب ـ غاية النهاية فى طبقات القراء ـ نشر برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٣٣م٠

١٦ـ ابن جلجل : (ابو داود سليمان بن حسان الاندلسى)
ـ طبقات الاطباء والحكماء
القاهرة ـ طبع المعهد العلمى الفرنسى ـ تحقيق الاستاذ / فؤاد سيد ١٩٥٥م٠

١٧ـ ابن جماعة : (بدر الدين بن ابراهيم ابن جماعة المتوفى ٧٣٣هـ)
ـ تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم
الهند ـ ١٣٥٣هـ٠

١٨ـ الجهشيارى : (ابو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى الكوفى المتوفى ٣٣١هـ / ٩٤٢م)
ـ الوزراء والكتاب
الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٣٨م٠

١٩ـ الجواليقى : (ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد الخضر)
ـ المعرب من الكلام الاعجمى على حروف المعجم٠
القاهرة ٥ ١٩٣٨م٠

٢٠ـ ابن الجوزى (ابوالفرج عبدالرحمن بن على البغدادى ـ المتوفى ٥٩٧هـ)
ـ نقد العلم والعلماء او تلبيس ابليس
ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة.

٢١ـ ابن ابى حاتم الرازى (المتوفى ٣٢٧هـ)
ـ الجرح والتعديل (حيدر اباد ١٩٥٢م)

٢٢ـ حاجى خليفة (المتوفى ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م)
ـ كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون
٢ اجزاء . استنابول ـ ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

٢٣ـ ابن حبان (محمد بن حبان البستى المتوفى ٣٥٤هـ)
ـ مشاهير علماء الامصار ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة
والنشر ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩م.

٢٤ـ ابن حجر العسقلانى (احمد بن على المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)
أ ـ الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية فى مناقب سيدنا ومولانا
الامام بن سعد ـ القاهرة ـ المطبعة الاميرية ـ ١٣٠١هـ
بولاق.
ب ـ توالى التأسيس بمعالى ابن ادريس
القاهرة ـ بولاق ١٣٠١هـ.
ج ـ الاصابة فى تمييز الصحابة ـ ١٨ جزءاً / القاهرة ـ
مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ.
د ـ تهذيب التهذيب ـ الهند ١٣٢٥ هـ ـ طبعة بيروت
١٣٢٥ هـ.
هـ ـ الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة ـ حيدر اباد
١٣٤٩هـ.

٢٥ـ الحصرى القيروانى (ابو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المتوفى ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م)

ــ زهر الاداب وثمر الالباب ــ القاهرة ١٩٥٣م •

٢٦ـ ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ــ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى) •

ــ كتاب صورة الارض ــ القاهرة ١٣٦٤هـ ــ ١٩٤٥م •

٢٧ـ ابن خرداذبه (ابو القاسم عبد الله بن عبد الملك المتوفى ٣٠٠هـ)

ــ المسالك والممالك ــ ليدن ١٨٨٩م •

٢٨ـ الخطيب البغدادى (ابو بكر احمد بن عبد الله بن ابى الخير بن على بن حسن)

ــ تاريخ بغداد ــ القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م •

٢٩ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ــ المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ ــ ١٤٠٦م) •

أ ــ المقدمة ــ القاهرة ــ المكتبة التجارية

ب ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ١ القاهرة ١٢٨٤هـ •

٣٠ـ ابن خلكان : (ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم ــ المتوفى ٦٨١هـ / ١٢٨١م) •

ــ وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان ــ القاهرة

تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ الطبعة الاولى ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م ــ وطبعة عيسى البابى الحلبى •

٣١ـ الخوارزمي (ابو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف)
ـ كتاب مفاتيح العلوم ـ القاهرة ١٣٤٤هـ ـ ليدن ١٨٩٥م٠

٣٢ـ الداني (ابو عمرو عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٤٤٤هـ)
ـ التيسير في القراءات السبع ٠
تحقيق اتوبرتزل ـ استانبول ١٩٣٠م٠

٣٣ـ ابن الداية (ابو جعفر احمد بن يوسف المتوفى ٣٤٠هـ/ ٩٤١م)
ـ المكافأة وحسن العقبى ـ صححه وضبطه الاستاذ احمد امين بك وعلى الجارم بك ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ المطبعة الاميرية ـ ببولاق سنة ١٩٤١م٠

٣٤ ـ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي المتوفى سنة ٨٠٩هـ)
ـ كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار ـ بيروت ـ المكتب التجاري قسم ١ ج٤ ـ بولاق ـ المطبعة الكبرى ١٣١٠ هـ ١٨٩٣م٠

٣٥ـ الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان المتوفى ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧، ١٣٤٨م)
أ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام
١٥ جزء ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة ١٣٦٨هـ
ب ـ تذكرة الحفاظ ـ طبع حيدراباد / الهند ١٣٣٣هـ
ج ـ سير اعلام النبلاء / القاهرة ١٩٥٧/ ١٩٦٢م٠
د ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ القاهرة ١٣٢٥هـ
هـ ـ العبر في خبر من غبر ـ الكويت ـ دائرة المطبوعات والنشر ج١ ص ١٩٦٠م٠

٣٦ ـ الرازى (ابن ابى حاتم الرازى المتوفى ٣٢٧هـ)
أ ـ اداب الشافعى ومناقبه / تحقيق الشيخ عبدالغنى عبدالخالق
القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م.
ب ـ كتاب الجرح والتعديل ـ مطبعة المعارف العثمانية ـ حيدر
اباد ـ بالهند ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣م.

٣٧ ـ الراغب الاصبهانى (ابو القاسم حسين بن محمد)
ـ محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء.
القاهرة ١٣٢٦هـ.

٣٨ ـ ابن رستة (احمد بن عمر المتوفى ٣٣٢هـ)
ـ الاعلاق النفيسه ـ ليدن ١٨٩١ م.

٣٩ ـ ابن رشيق (المتوفى ٤٦٢ هـ)
ـ العمده فى صناعة الشعر ونقده ـ القاهرة ١٩٢٥م.

٤٠ ـ الزبيدى (ابو بكر بن الحسن)
ـ طبقات النحويين واللغويين ـ القاهرة ١٩٥٤م.

٤١ ـ الزركشى (الامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى)
ـ البرهان فى علوم القرآن ـ الطبعة الاولى ـ تحقيق ابو الفضل
ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ـ "عيسى الحلبى وشركاه"
القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧م.

أى طبعة؟ وكم عدد الأجزاء؟

٤٢ ـ الزركلى (خير الدين)
ـ الاعلام ـ القاهرة ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ / ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩م.

٤٣ ـ ابن زولاق (ابو محمد الحسن بن ابراهيم المتوفى ٣٨٧هـ / ٩٩٧م)
ـ اخبار سيبويه المصرى ـ نشر الاساتذة محمد ابراهيم سعد
وحسين الديب ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ ـ
١٩٣٣م) .

٤٤ ـ ابن الزيات (ابو عبدالله محمد ناصر الدين محمد لابن عبدالله بن عمر ـ المتوفى
٨١٤ هـ / ١٤١١م) .
ـ الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى
والصغرى ـ القاهرة ـ الطبعة الاميرية بمصر .
١٣٢٥ هـ / ١٩٥٧م .

٤٥ ـ ساويرس بن المقفع (المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى)
ـ سير الاباء البطاركة ٤ مجلدات ـ همبورج ١٩١٢م /
باريس ١٩١٥م .

٤٦ ـ السبكى (تاج الدين ابو نصر عبدالوهاب بن تقى الدين السبكى ـ المتوفى
٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ ٦ اجزاء ـ القاهرة ـ المطبعة
الحسنية ١٣٢٤ هـ .

٤٧ ـ السخاوى (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى
المتوفى ٩٠٢هـ)
ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ القدسى مطبعة
الترقى ١٣٤٩هـ .

٤٨ ـ ابن سعد كاتب الواقدى (ابو عبدالله محمد بن سعد ـ المتوفى ٢٣٠ هـ /
٨٤٥م) .
ـ الطبقات الكبرى ـ ١٣ اجزاء ـ بيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧م
وطبعة ليدن ٨ اجزاء ١٩٠٥ / ١٩٢١م .

٤٩ ـ ابن سعيد (على بن موسى المغربى المتوفى ٦٨٥هـ / ١٢٧٥م)

ـ المغرب فى حلى المغرب ـ السفر الرابع ـ ليدن ١٨٩٩م

نشر تلكوست ـ اكمل تأليف المغرب فى حلى المغرب الجزء الاول

من القسم الخاص بمصر وعنى بنشره والتعليق عليه الدكتـــــور

محمد حسن ـ د • سيدة كاشف ـ د • شوقى ضيـــف •

القاهرة / مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م •

٥٠ ـ سعيد بن البطريق (المعروف باسم اوتيخا المتوفى ٣٢٨ هـ / ٩٤٠م)

ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جزءان فى مجلد •

بيروت ١٩٠٥ ـ مطبعة الاباء اليسوعيين •

٥١ ـ السمرقندى (ابو الليث نصر بن محمد المتوفى ٣٧٥ هـ)

ـ بستان العارفين ـ الاستانة ١٢٩٦هـ •

٥٢ ـ السلمى (ابو عبد الرحمن السلمى المتوفى ٤١٢هـ)

ـ طبقات الصوفية ـ الطبعة الاولى / دار الكتاب العربى ـ

مكتبة الخانجى بمصر ١٩٥٣م • ١٣٧٢هـ نور الدين شريبة

٥٣ ـ السمعانى (ابو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى

المروزى ـ المتوفى ٥٦٢هـ ـ ١١٦٦م) •

ـ انساب العرب ـ ليدن ١٩١٢م •

٥٤ ـ السهيلى :

ـ الروض الانف والمشرع الروى فى تفسير ما اشتمل عليه

حديث السيرة النبوية لابن هشام ـ القاهـــرة

بدون تاريخ • مطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٢هـ (١٩٠٤)

٥٥ ـ السيوطى (الحافظ جلال الدين عبدالرحمن ـ المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
١ ـ تاريخ الخلفاء ـ تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبدالحميد
القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م.
٢ـ الاتقان فى علوم القرآن ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥م. ؟
٣ـ تحذير الخواص من اكاذيب القصاص ـ القاهرة
٤ ـ حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة.
(المطبعة الشرفية بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ـ جزءان).
٥ ـ طبقات الحفاظ ـ تحقيق على محمد عمر ـ القاهـــرة ـ
الطبعة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.
٦ ـ بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاة.
القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م.
٧ ـ تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ـ القاهرة ١٩٦٦م
الطبعة الثانية.

٥٦ ـ الشابشتى (ابو الحسن على بن محمد المتوفى ٣٨٨ هـ)
ـ الديارات ـ بغداد ١٩٥١م.

٥٧ ـ الشافعى (ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعى المتوفى ٢٠٤ هـ بمصر)
أ ـ الام ـ الاجزاء ١و٢و٣ القاهرة ١٩٦٩م.
ب ـ الرسالة / تحقيق الشيخ احمد شاكر ـ القاهرة ١٣٥٨هـ /
١٩٤٠م.
ج ـ احكام القرآن (جمع البيهقى المتوفى ٤٥٨ هـ) تحقيق
عزت العطار ـ القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١م.

٥٨ ـ ابن شاكر الكتبى : (المتوفى ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م)
ـ فوات الوفيـــات
جزءان ـ القاهرة ١٢٩٩هـ.

٥٩ ـ الشعرانى (عبدالوهاب)

ـ كتاب الطبقات الكبرى المسماه " بلواقح الانوار فى طبقات الاخيار ، او طبقات الشعرانى .

المطبعة الشرفية / القاهرة ١٢٩٦هـ

٦٠ ـ الشيرازى (ابو اسحق ابراهيم بن على (المتوفى ٤٧٦هـ)

ـ طبقات الفقهاء ـ بغداد ـ المكتبة العربية ١٣٥٦هـ

٦١ ـ صاعد بن احمد الاندلسى (المتوفى ٤٦٢هـ)

ـ طبقات الامم ـ مطبعة السعادة بمصر .

٦٢ ـ طاشكبرى زاده (احمد بن مصطفى)

ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٣ اجزاء ـ مراجعة وتحقيق كامل بكرى ـ عبدالوهاب ابو النور ـ القاهرة ـ دار الكتب الحديثة ـ مطبعة الاستقلال الكبرى .

٦٤ـ الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير المتوفى ٣١٠هـ)

أـ تاريخ الامم والملوك ١١ جزءا ـ القاهرة ١٩٣٩م . ـ

ب ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ـ القاهرة ـ ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م .

٦٥ ـ ابو الطيب : (عبدالوهاب بن على)

ـ مراتب النحويين واللغويين ـ القاهرة ١٩٥٥م .

٦٦ـ الطوسى (السراج)

ـ اللمع بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقى سرور القاهرة ١٩٦٠م .

٦٧ ـ ابن عبد البر القرطبي (ابو عمر يوسف المتوفى ٤٦٣ هـ)
أ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ج١
ـ المطبعة السلفية ـ المدينة ـ الطبعة الثانيـة
١٣٨٨ ـ ١٩٦٨م. والطبعة الاولى / القاهـرة
ادارة الطباعة المنيرية .
ب ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب / تحقيق محمـد
البجاوي ـ مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة
ج ـ مختصر جامع بيان العلم وفضله. القاهرة ـ ادارة
الطباعة المنيرية.

٦٨ ـ ابن عبد ربه الاندلسي (المتوفى ٣٢٧هـ)
ـ العقد الفريد ـ بتحقيق احمد امين وآخرين ـ القاهرة
١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م. لجنة التأليف والترجمة والنشر

٦٩ ـ عبد الله بن عبد الحكم (ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٠٤هـ)
ـ سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك ابن انس
برواية ابنه (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفـى
٢٦٨ هـ).

٧٠ ـ ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى ٢٥٧هـ)
ـ فتوح مصر واخبارها ـ طبعة توري ـ ليدن ١٩٢٠م.
مكتبة المثنى ببغداد .
ـ فتوح مصر والمغرب ـ لجنة البيان العربي بالقاهـرة
١٩٦١م.
ـ فتوح مصر واخبارها ـ المعهد العلمي الفرنسي ـ القاهرة
١٩١٤م.

٧١ـ ابن العبري (ابو الفرج بن هرون الملطى المعروف بابن العبيرى المتوفى ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) ٠
ـ تاريخ مختصر الدول ـ الطبعة الاولى ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت ـ لبنان ١٨٩٠م٠

٧٢ـ عريب بن سعد (القرطبى ـ المتوفى ٣٦٦هـ ـ ٩٧٦م)
ـ صلة تاريخ الطبرى ـ الجزء الثانى عشر من كتاب " الطبرى ـ تاريخ الامم والملوك ـ الطبعة الاولى / المطبعة الحسينية بمصر٠

٧٣ـ ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الشافعى المتوفى ٥٧١هـ / ١١٧٥م) ٠
ـ التاريخ الكبير جـ١ و٢و٥ ـ مطبعة روضة الشام ـ دمشق ١٣٢٩هـ٠

٧٤ـ ابن العماد الحنبلى (ابو الفلاح عبد الحى بن احمد بن محمد الصالحى المتوفى ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) ٠
ـ شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ٨ اجزاء ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ٠

٧٥ـ العمرى : شهاب الدين احمد بن فضل الله المتوفى ٧٤٢هـ٠
ـ مسالك الابصار فى ممالك الامصار جـ١ ـ جـ٢ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤م٠

٧٦ـ القاضى عياض (المتوفى ٥٤٤هـ)
ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك/ تحقيق د٠ احمد بكير محمود ـ بيروت ٠

٧٧ـ الغزالي (الامام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ)
ـ احياء علوم الدين جـ١ و ٢ و ٣ مطبعة لجنة نشر الثقافة
الاسلامية ـ القاهرة ١٣٥٦هـ٠

٧٨ـ الفارابي (الفيلسوف ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي)
ـ احصاء العلوم ـ تحقيق د ٠ عثمان امين ـ القاهرة
ـ الانجلو المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٨م٠

٧٩ـ الفخر الرازي (المتوفى ٦٠٦هـ)
ـ مناقب الامام الشافعي ـ القاهرة ١٢٧٩هـ٠

٨٠ـ ابو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماه المتوفى ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ ـ
١٣٢٢م)٠
ـ المختصر في اخبار البشر جـ١ و٢ ـ القاهرة ١٣٢٥هـ٠

٨١ـ ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم ابن علي بن محمد بن فرحون اليعمري
المدني المالكي المتوفى ٧٩٩ هـ)٠
ـ كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ـ الطبعة
الاولى مصر ١٣٥١هـ٠ المطابع ابن شقرون بالفحامين بمصر

٨٢ـ ابن الفرضي (الحافظ ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي ـ
المعروف بابن الفرضي المتوفى ٤٠٣هـ)٠
ـ تاريخ العلماء والرواه للعلم بالاندلس ـ جـزءان
ـ مكتبة الخانجي ـ تحقيق عزت الحسيني العطار
١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م٠

٨٤ـ القابسى (على بن محمد بن خلف القيروانى المتوفى ٤٠٣هـ)
ـ الرسالة المفصلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين
ذيل لكتاب د • احمد فؤاد الاهوانى (التعليم فى رأى
القابسى ـ القاهرة ١٩٤٥م)

٨٥ـ ابن قتيبة (ابى محمد عبدالله بن مسلم المتوفى ٢١٣هـ / ٨٢٨م أو ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)
١ـ ادب الكاتب ـ القاهرة ١٣٤٦م •
٢ـ عيون الاخبار(١) ـ القاهرة ١٩٢٥م •
٣ـ المعارف : طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٠م •

٨٦ـ قدامة بن جعفر (المتوفى ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م أو ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م أو ٣٣٧هـ/ ٩٤٨ـ٩٤٩م)•
ـ نقد الشعر ـ القاهرة ١٩٥٩م •
ـ نقد النثر ـ القاهرة ١٩٣٣م •

٨٧ـ القرآن الكريم •

٨٨ـ القفطى (جمال الدين على بن محمد بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالوهاب المتوفى ٦٤٦هـ)
أ ـ مختصر الزوزنى المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء / بغداد مكتبى المثنى ـ مصر ـ مؤسسة الخانجى •
ب ـ انباه الرواه على انباه النحاة ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٥٠م ـ ١٩٥٥م •

(١) نشرت دار الكتب الأول ١٩٢٤ والثانى ١٩٢٦ والثالث ١٩٢٨ والرابع ١٩٣٠ والمؤسسة نشرت مصورة ١٩٦٤

٨٩ـ القلقشندى (ابو العباس احمد المتوفى ٨٢١هـ)

ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشاء جـ٣ ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٥م ٠

٩٠ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابى بكر المتوفى ٧٥١هـ) ولد ٦٩١ هـ

أ ـ اعلام الموقعين عن رب العالمين ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ ـ والطبعة الثانية ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥م ٠

ب ـ مدارج السالكين ـ القاهرة ١٩٥٦م ٠ تحقيق محمد حامد الفقي ـ السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م

٩١ـ ابن كثير (عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المتوفى ٧٧٤هـ)

ـ البداية والنهاية فى التاريخ ـ طبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الاولى ١٩٣٢م ٠

٩٢ـ الكندى (ابو عمر محمد بن يوسف الكندى ـ المتوفى ٣٥٠هـ)

ـ الولاه وكتاب القضاه ـ الاباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨م ٠

ـ ولاة مصر ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ٠

٩٣ـ الماوردى (ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المتوفى ٤٥٠هـ)

ـ الاحكام السلطانية والولايات الدينية ـ القاهرة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ٠

٩٤ـ ابو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاتابكى المتوفى ٨٧٤هـ)

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ الاجزاء من ١ : ٤ القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠م ٠

٩٥ ـ المسعودى (ابو الحسن على بن الحسن بن على المتوفى ٣٤٦هـ)

أ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ١ و٢ ـ القاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م ٠

ب ـ التنبيه والاشراف : القاهرة ١٩٣٨م

٩٦ـ المقدسى (المعروف بالبشارى ابو عبدالله محمد بن احمد ـ المتوفى ٣٧٥هـأو ٣٨٨ هـ)٠
ـ احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (الطبعة الثانية ـ ليدن ١٩٠٩م)٠

٩٧ـ المقريزى (تقى الدين احمد بن على بن عبدالقادر بن محمد المتوفى ٨٤٥هـ)
أ ـ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ـ تحقيق د٠ عبدالمجيد عابدين ـ القاهرة ١٩٦١م٠
ب ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار ـ طبعة بولاق ـ جزءان ١٢٧٠هـ ـ طبعة مؤسسة الحلبى بالقاهرة ـ جزءان٠
ج ـ اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا جـ١ ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م ـ نسخة اخرى تحقيق ـ د٠ جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٨م٠

٩٨ـ ابن النديم (محمد بن اسحق ـ المتوفى ٣٨٣هـ)
ـ الفهرست ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية الكبرى٠

٩٩ـ الحافظ ابو نعيم (احمد بن عبدالله الاصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ)
ـ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٣٥٧هـ / ١٩٣٢/١٩٣٨م٠

١٠٠ـ النووى : (محى الدين بن شرف المتوفى ٦٧٦هـ)
أ ـ تهذيب الاسماء واللغات ـ القسم الاول ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ بالقاهرة٠

ب ـ التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (مختصر من كتاب الارشاد لابن الصلاح المتوفى ٦٤٣ هـ ـ على هامش الجزء الاول لشرح الكرماني على البخاري)٠ القاهرة بدون تاريخ ٠

١٠١ ـ النويري : (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المتوفى ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ ـ ١٣٣٢م)٠
ـ نهاية الارب في فنون العرب ـ الاجزاء ١ الى ٤
القاهرة ١٩٦٣م٠

١٠٢ ـ ابن هشام (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣ او ٢١٨هـ)
ـ تهذيب سيرة ابن هشام ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار سعد بمصر ١٣٧٤ هـ ـ السيرة النبوية ـ القاهرة ١٩٣٦م٠

١٠٣ ـ اليافعي (عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان المتوفى ٧٦٨هـ)
ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ الطبعة الاولى ـ حيدر اباد الهند ـ ١٣٣٧هـ٠

١٠٤ ـ ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ـ المتوفى ٦٢٦هـ)٠
أ ـ معجم البلدان ١٨ اجزاء ـ القاهرة ١٩٣٦م٠ (١)
ب ـ معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب)
٢٠ جزءا ـ القاهرة ١٢٥٧هـ ـ ١٩٣٨م

١٠٥ ـ ابن وهب (عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ـ المتوفى ١٩٧هـ)
ـ الجامع في الحديث جا تحقيق دافيد ويل ـ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٣٩م٠

---

(١) طبع دار صادر وبيروت ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م

ثانيا — المراجع العربية الحديثة

١— ابراهيم احمد العدوى (الدكتور)
ابن عبد الحكم — رائد المؤرخين العرب — الانجلو المصرية ١٩٦٣م.

٢— احمد امين بك:
١— فجر الاسلام جـ١ — القاهرة ١٩٤١م.
٢— ضحى الاسلام جـ٢ — الطبعة الاولى — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٣٥٣ — ١٩٣٥م.

٣— احمد تيمور باشا :
نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الفقهية الاربعة (الحنفى والمالكى والحنبلى وانتشارها عند جمهور المسلمين) القاهرة دار الكتاب العربى ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥م.

٤— احمد شلبـى : (الدكتور)
تاريخ التربية الاسلامية بيروت ١٩٥٤م.

٥— احمد عيسـى : (الدكتور)
تاريخ البيمارستانات فى الاسلام — دمشق ١٣٥٧هـ — ١٩٣٩م

٦— احمد فريد الرفاعى (الدكتور)
— عصر المأمون — جزءان — الطبعة الاولى — مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧م.

٧— احمد فكـرى:
— مساجد القاهرة ومدارسها جـ١ — دار المعارف بمصر ١٩٦١م.

٨- احمد مختار عمر (الدكتور)
- تاريخ اللغة العربية بمصر - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٩- امين الخولي
- المجددون في الاسلام ١٩٦٥م.

١٠- جرجي زيدان
١- تاريخ آداب اللغة العربية - الاجزاء من ١ : ٣
القاهرة ١٩٣٧م.
٢- تاريخ التمدن الاسلامي - ج ٣ - القاهرة - دار الهلال ١٩٥٨م.

١١- جواد علي (الدكتور)
تاريخ العرب قبل الاسلام - الجزاء من ١ الى ٨
المجمع العلمي العراقي -١٣٧هـ - ١٩٥٦م.

١٢- حسن الباشا (الدكتور)
- الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار - القاهرة ١٩٦٥م.

١٣- حسن الباشا (الدكتور) وآخرين
- القاهرة - تاريخها - فنونها - اثارها (القاهرة - مطبعة الاهرام التجارية ١٩٧٠م).

١٤- حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
١- تاريخ الاسلام السياسي - الاجزاء من ١ : ٣ القاهرة ١٩٣٥م.
٢- تاريخ عمرو بن العاص - القاهرة ١٩٢٢م.

٣ـ تاريخ الدولة الفاطمية ـ القاهرة ١٩٥٨م٠
٤ـ الفاطميون فى مصر (وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ـ المطبعة الاميرية بمصر ـ القاهرة ١٩٣٢م)٠

١٥ـ حسن ابراهيم حسن (الدكتور) وعلى ابراهيم حسن
ـ النظم الاسلامية ـ القاهرة ١٩٣٩م٠

١٦ـ حسن احمد محمود (الدكتور)
ـ حضارة مصر الاسلامية فى العصر الطولونى
القاهرة ١٩٦٣م٠

١٧ـ حسن عبدالوهاب
ـ تاريخ المساجد الاثرية ـ طبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦م٠

١٨ـ حسين مؤنس(الدكتور)
ـ فجر الاندلس (دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الطولونية ـ القاهرة ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩م٠)

١٩ـ الخربوطلى (الدكتور على حسنى)
١ـ مصر العربية الاسلامية ـ القاهرة ـ مطبعة الانجلو ١٩٦٣
٢ـ الحضارة العربية الاسلامية ـ القاهرة ١٩٦٢م٠

٢٠ـ دائرة المعارف الاسلامية
١ـ مادة / علم التاريخ (مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)
٢ـ مادة / ابن عبدالحكم / طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٣م٠

٢١ـ دراسات عن ابن عبد الحكم
ـ اعداد مجموعة من الاساتذة ـ القاهرة ـ المكتبة العربية ـ
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٢ـ زكى مبارك (الدكتور)
ـ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٥٧م.

٢٣ـ زكى محمد حسن (الدكتور)
١ـ الفن الاسلامى فى مصر جـ١ ـ القاهرة ١٩٣٥م.
٢ ـ مصر والحضارة الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٤٢م.
٣ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٣٧م.
٤ ـ كنوز الفاطميين ـ القاهرة ـ ١٩٣٧م.
٥ ـ فنون الاسلام ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م.

٢٤ـ ابو زهرة ـ الدكتور محمد . الشيخ
١ـ الشافعى ـ حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ـ القاهرة ١٩٣٣م.
٢ ـ تاريخ المذاهب الاسلامية جـ١ ـ دار الفكر العربى
بالقاهرة.

٢٥ـ سعاد ماهر (الدكتوره)
ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحين جـ١ المجلس الاعلى
للشئون الاسلامية بالقاهرة.

٢٦ـ السيد عبد العزيز سالم (الدكتور)
١ـ تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ـ الطبعة
الثانية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩م.
٢ـ التاريخ والمؤرخون العرب ـ القاهرة ١٩٦٧م.

٢٧ـ سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة)
١ـ مصر فى عصر الولاه ـ القاهرة
٢ـ مصر فى فجر الاسلام ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٠م.
٣ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ـ الطبعة الثانية ـ القاهـرة ١٩٧٠م.
٤ ـ احمد بن طولون (القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥م).
٥ ـ عبد العزيز بن مروان ـ القاهرة ١٩٦٧م.
٦ ـ الوليد بن عبد الملك ـ القاهرة ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢م .
٧ ـ مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه. الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٦م.

٢٨ـ شوقى ضيف (الدكتور)
١ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ القاهرة ١٩٤٣م.
٢ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ بيروت ـ ١٩٥٦م.
٣ ـ المدارس النحوية ـ القاهرة ١٩٦٨م .

٢٩ـ الشيال (الدكتور جمال الدين)
ـ تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى جـ١ دار المعارف بمصر ١٩٦٧م.

٣٠ ـ طه حسين (الدكتور)
ـ مع المتنبى ـ القاهرة ١٩٣٣م.

٣١ـ عبد الرحمن بدوى (الدكتور)
ـ التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ـ دراسات لكبار المستشرقين ـ الف بينها وترجمها د . عبد الرحمن بدوى. (الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦م).

٣٢- عبدالرحمن زكى (الدكتور)
١- الفسطاط وضاحيتاها (القطائع والعسكر) القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦م.
٢ - تراث القاهرة العلمى والفنى فى العصر الاسلامى - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩م).

٣٣- عبدالعزيز الدورى (الدكتور)
- بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب - بيروت ١٩٦٠م.

٣٤- عبداللطيف حمزه (الدكتور)
- الحركة الفكرية فى مصر - القاهرة ١٩٤٧م.

٣٥- عبدالله خورشيد البرى (الدكتور)
١ - القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة - القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
٢- القرآن وعلومه فى مصر من ٢٠هـ : ٣٥٨ هـ (القاهرة - دار المعارف).

٣٦- على باشا مبارك
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة - جزءان - القاهرة ١٣٠٦هـ.

٣٧- فيليب حتى (الدكتور)
- تاريخ العرب مطول جزءان (بيروت ١٩٥٨م).

٣٨- محمد الصادق عرجون
- التصوف فى الاسلام - منابعه - أطواره - القاهرة ١٩٦٧م.

٣٩ـ محمد عبدالله عنان

١ـ مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ـ طبع دار الكتب المصرية ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م.

٢ـ مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الاولى ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

٤٠ـ محمود احمد

ـ جامع عمرو بن العاص ـ القاهرة ١٩٥٣ـ ١٩٦٣م.

٤١ـ مراد كامل (الدكتور)

ـ حضارة مصر فى العصر القبطى ـ القاهرة

٤٢ـ مصطفى منير أدهم

ـ رحلة الامام الشافعى الى مصر ـ القاهرة ١٩٣٠م.

٤٣ـ ولفنسون اسرائيل (الدكتور)

ـ تاريخ اللغات السامية ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م.

ثالثا : المراجع الافرنجية المترجمة الى العربية :

١ـ ارنولد (توماس)
ـ الدعوة الى الاسلام ـ ترجمة د • حسن ابراهيم حسن ود • عبد الحميد عابدين واسماعيل النهراوى (القاهرة ١٩٥٧م) •

٢ـ مسز بتشر (أ • ل)
ـ تاريخ الامة القبطية وكنيستها ٣ اجزاء ـ ترجمة اسكندر تادرس ـ القاهرة ١٩٠٠م •

٣ـ بتلر (الفرد • ج)
ـ فتح العرب لمصر ـ تعريب محمد فريد أبو حديد ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٣م •

٤ـ بروكلمان (كارل)
١ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ تعريب د • نبيه فارس ومنير بعلبكى ـ بيروت ١٩٤٨ـ١٩٤٩م •
٢ـ تاريخ الادب العربى الاجزاء من ١ : ٤ تعريب د • عبد الحليم النجار ـ القاهرة ١٩٦٢م •

٥ـ بل (هـ • آيدرس)
ـ حضارة مصر اليونانية الرومانية وعلم البردى (من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى) دراسة فى انتشار الحضارة واضمحلالها ـ تعريب د • محمد عواد حسين ـ د • عبد اللطيف احمد على • (القاهرة ١٩٥٤م)•

٦ـ جروهمان (ادولف)
ـ اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ـ الاجزاء من ١ الى ٥
ترجمة د • حسن ابراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٣٤م •

٧ـ دى كاسترى :
ـ الاسلام خواطر وسوانح ـ ترجمة احمد فتحى زغلول ـ القاهرة
ـ ١٣١٥هـ / ١٨٩٨م •

٨ـ روزنتال (فرانز)
ـ علم التاريخ عند المسلمين ـ ترجمة صالح احمد الملى ـ
مراجعة توفيق حسين ـ بغداد مكتبة المثنى ـ ١٩٦٣م •

٩ـ على بهجت وألبير جبرائيلى
ـ كتاب حفريات الفسطاط تعريب على بهجت ومحمود عكوش ـ
الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ دار الكتب • ١٣٤٠هـ / ١٩٢٨م •

١٠ـ فلهوزن : (يوليوس)
ـ احزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام (الخوارج
والشيعة) ترجمة د • عبدالرحمن بدوى ـ القاهرة / مكتبة
النهضة المصرية ١٩٥٨م •

١١ـ ورل (ولهم)
موجز تاريخ القبط ـ ترجمة د • مراد كامل ـ القاهرة

١٢ـ وهيب كامل (الدكتور)
١ـ استرابون فى مصر (القاهرة ١٩٥٣م)
٢ـ ديودور الصقلى فى مصر (القاهرة ١٩٤٧م)
٣ـ هيرودت فى مصر (القاهرة ١٩٤٦م)

١٣ـ متز (آدم)
ـ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ جزءان
(ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريده ـ القاهرة ١٣٧٧هـ ـ
١٩٥٧م).

١٤ـ نيكولسون (رينولد)
١ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه (ترجمها وألف بينهـا
وعنونها د. ابو العلا عفيفى (القاهرة ١٩٤٧م ـ ١٩٥٦م)
٢ـ الصوفية فى الاسلام ـ ترجمة نورالدين شريبه (القاهـرة
١٩٥١م).

١٥ـ هرنشـو :
علم التاريخ (الرسالة السابعة) ترجمه وعلق حواشيه وأضاف
اليه فصلا فى التاريخ عند العرب ـ د. عبدالحميد العبادى
ـ القاهرة ١٩٣٧م.

١٦ـ هوروفتش (يوسف)
ـ المغازى الاول ومؤلفوها ـ ترجمه الدكتور حسين نصـار ـ
القاهرة ١٩٤٩م

رابعا : المراجع الافرنجيـــة :

1) Butler-Alfred, J.:
The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 Vols., Oxford, 1884.

2) Bevan : History of Egypt under the Ptolemic Dynesty.

3) Geswell (K.A.C.) :
Early Muslim Architecture (Umayyads, Abbasids and Tulunids), Vol.1, 2., Oxford 1932-1940.

4) Encyclopaedia of Islam. (Vol.III, Leiden, London, 1936).

5) D. Georgy Sobhy Bey :
Lectures in the History of Medicine., Cairo - Fuad I University Press, 1949.

6) Lane-Pool (Stanley) :
A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1924.

7) Milne, (J. Grafton) :
A History of Egypt under Roman Rule, London,1924.

8) Munier: (Henri) :
L'Egypte Byzantine. (Precis de l'hist. d'Egypte, T. Vol. II, 1932.

9) Quatremére: (Et.) :
Recherches Critique et Historiques sur la langue et litérature de l'Egypt; Paris, 1808.

10) Farag Rofail Farag :
Sociological and moral studies in the field of Coptic monasticism, Leiden, 1964.

11) Gastön Wiet :
Catalogue général du musée Arabe du Caire. Stéles funéraires, Vol.1: IV; Le Caire, 1932.

12) D. Zaky Mohamed Hassan :

Les Tulunides. Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du ix^e siecle, Paris, 1933.

13) Woolner (H.C.) :

Languages in history and Politics.
